أمير عاطف

لم يحن وقتك بعد

رواية

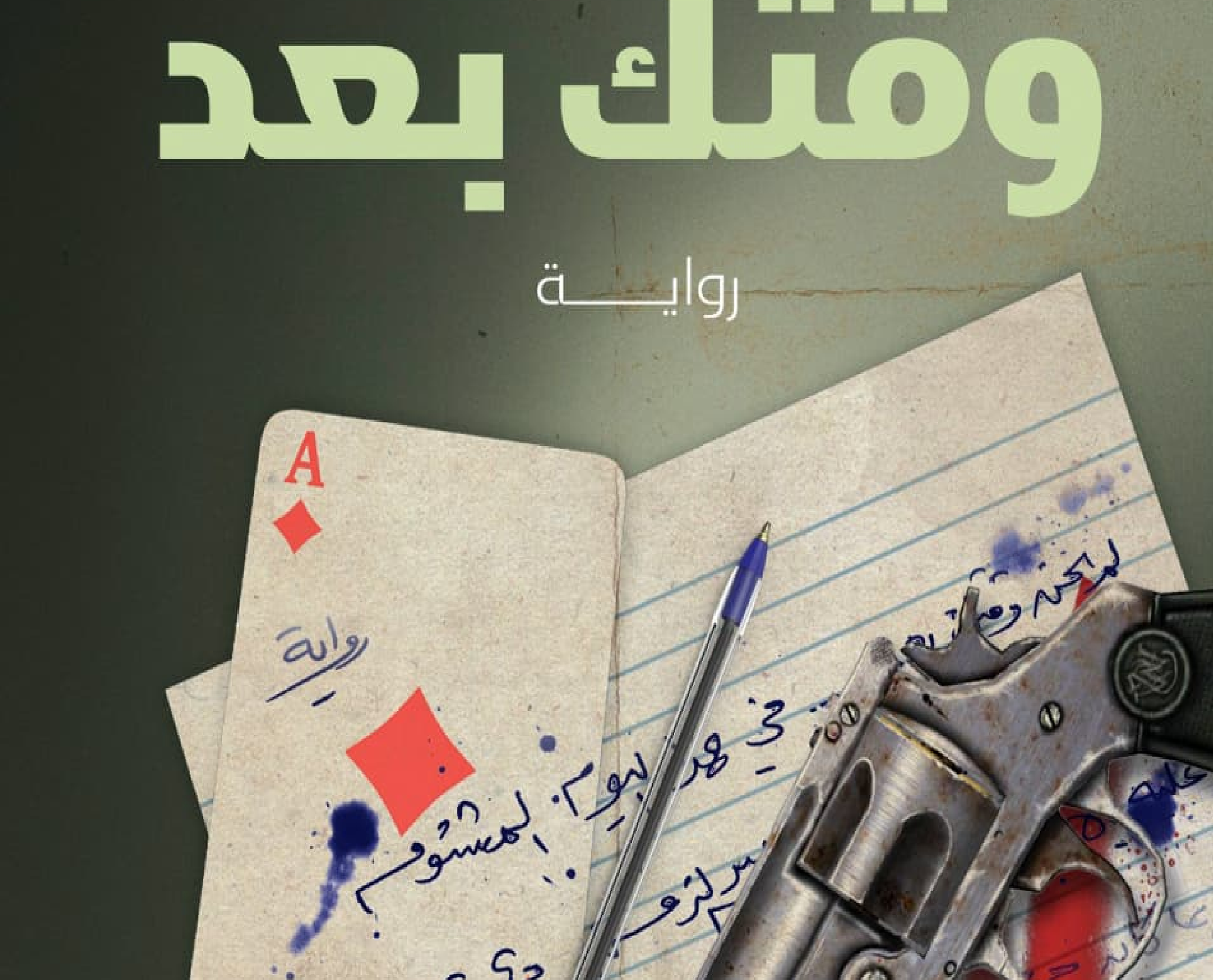

دار دوِّن

أمير عاطف: لم يحن وقتك بعد، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٥

رقم الإيداع: ٢٠٢٤/٣٠٨٩٤ - الترقيم الدولي: 978-977-806-457-5

جَميعُ حُقــوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محْـــفُوظةٌ للناشِرْ

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الــواردة فـــي هـــذا الكتـــاب

لا تُعبـــر عـــن رؤيـــة الناشـــر بالضـــرورة

وإنمـــا تعبـــر عـــن رؤيـــة الكـــاتب.

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

تنويه ليس مهمًا

قرائي الأعزاء...

جميع الأحداث التي سردتُها في تلك الرواية ليست إلا أحداثًا عشتها وعاينتها بنفسي، مع مراعاة تغيير بعض الأسماء حفاظًا على الخصوصية وتجنبًا للمساءلة القانونية، رغم أنني لا أخشى أي مساءلة على الإطلاق، فلم أعد أكترث كثيرًا بما قد يحدث لي! فما هو أسوأ سيناريو يمكن أن يحدث؟ لقد مررت بما هو أسوأ من ذلك بكثير، وشهدتُ أسوأ ما يمكن للإنسان أن يشهده، والجدير بالذكر هو أنني سأقوم بما هو أشد سوءًا بعد أن أكتب كلمة "تمت".

على أي حال، تنقسم هذه الرواية إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

عبارة عن أحداث سأحكيها وأسردها بنفسي، وأنقلها لكم - كما رأيتُها أو حُكيت لي بعد حدوثها - نقلًا دقيقًا أمينًا.

القسم الثاني:

سيكون عبارة عن صفحات مُتفرقة من مذكرات، دوّنها البطل بنفسه، بعدما عاشها، وقد كتبها في وقت لاحق، متى؟ لا يهم معرفة الوقت الذي كتبها فيه، ستعرف في النهاية، المهم أنه استطاع كتابة أحداثها وتدوينها ووصفها بدقة بالغة، وهذا من حسن حظنا، وحظي!

القسم الثالث:

سأعاود سرده بنفسي، مثلما فعلت في القسم الأول.

القسم الرابع:

لا تعليق!

ملحوظة نسيت أن أخبركم بها:

ربما أكون أنا والبطل... شخص واحد!

مع وافر الاحترام والتقدير

القسم الأول
(ما قبل ...)

الأحد ٠٩ فبراير ٢٠٢٥

الساعة ٠٦:٢٨:٣٩ صباحًا

تلك روايتي السابعة...

أكتبها وأنا مقبلٌ على أهم وأخطر قرار من الممكن أن يتخذه أيّ شخص...!

في الحقيقة، لم أكن أعلم أن تلك الرواية هي الرواية التي ستجعلني أرى كل شيء على حقيقته؛ فهي بمثابة الشمعة التي ستحترق من أجل أن تضيء لي الطريق المُظلم، هذا الطريق الذي طالما رأيته مُضيئًا مُنيرًا، ليس هذا فحسب، بل...

طالما الجسد سليم والعقل يعمل، ليست هناك أية مشكلة، سوف تتشبث بالحياة...

تتتتتتتتتتتتتتتتتتاايللانينايسسسشث

(التأرجح...!!!)

(مطلوب قراءة أربعة الكتب التي اشتريتها في علم النفس قبل البدء في الكتابة...)

سيكولوجية الشخوص
من هذه الشبكة؟
عمر مكور
الكاتب فتحي
عائلته
زياد
الوطار
نبذة
مسودة
المستشفى
2005
الرواية
الفيروزاني
خصوصية
يكون كل منزل
الرواية
الأحداث
الأبطال
الأماكن
الزمان
الأسلوب
الأسلوب الكتابي
مواصفات البطل
سلبية؟
إيجابية
الرومانسية
النشر
العمر ٤ سنة
٢٩
١٩٨٤
١٩٨٥
٢٠٢٥
يجب الدخول قبل منتصف الليل
البعثة مع أم صاحب
مطلوب تنظيف الأحمار
[مهم جدًا تحرير الصور المناسب قبل بدء الرواية]
[الطبيعية + المعرصة]
(شعر أشعث)
يجب التفكير من النهاية حينما أصل إلى الذروة

بسم الله الرحمن الرحيم

يا مسهل الحال يا رب... ساعذني أنتهِ من كتابة تلك الرواية على خير

الاثنين ١٠ فبراير ٢٠٢٥

الساعة ٠٥:١١:١٧ فجرًا

أنا أعرف جيدًا ما الذي سأفعله بعد الانتهاء من كتابة تلك الرواية، والتي ترددتُ كثيرًا قبل كتابتها، لكني في النهاية أخذت قرار الكتابة، وثمة قرار آخر ستعرفونه في الوقت المناسب، تريّثوا ولا تتعجلوا!

كل ما سيتم ذكره هنا في هذه الرواية حقيقيًا، حتى أسماء الشخوص، بعد تفكيرٍ طويل، قررت أن أجعله حقيقيًا، عن قصدٍ بكامل إرادتي، وأتحمل كل العواقب التي ستنجم عن ذلك. حتى المساءلة القانونية مستعد لها. بالعكس، سأحاكم نفسي أولًا قبل أن ترفع يدُ القانون ميزانًا لتحاكمني، ما الذي سيحدث في أسوأ الظروف؟! لكني هتلقممنكنلكمنمنبلب...

حذذذذفففففف

-١-

لم تكن الصفحات السابقة سوى مسوّدات عشوائية لرواية ما، أو بالأحرى محاولات لكتابة افتتاحية الرواية السابعة التي يحاول أن يبدأ في كتابتها الكاتب المخضرم عمر مدكور، وقد سبقت هذه المحاولات محاولاتٌ أخرى عديدة، بلغت حوالي اثنتي عشرة مسوّدة غير مكتملة!

لطالما حرص عمر على أن تكون افتتاحيات رواياته مشوقة، ويؤمن دائمًا بأن الافتتاحية تُعد ثاني أهم عنصر في الرواية، بعد الحبكة نفسها؛ فهي التي تدفع القارئ إلى اتخاذ قراره بشأن مواصلة القراءة من عدمها، وتثير فيه حماسةً وفضولًا لمعرفة الأحداث القادمة، ويعرف جيدًا أن عقل القارئ بداخله جزء صغير جدًا، بحجم حبة الأرز، يضيء تلقائيًا عند قراءة افتتاحية مثيرة ومشوقة؛ لذا كان حريصًا جدًا على أن يجعل كل افتتاحيات رواياته كذلك.

في تلك الفترة، كان عمر مدكور يمر بأسوأ مرحلة يمكن أن يمر بها كاتب؛ إذ شعر أن سحابة قلمه لم تعد تمطر على روايته شآبيب الحروف كما كانت تفعل من قبل، ولم تعد تغمرها بالأفكار التي تجعله يكتب بلا توقف. في تلك الأيام، كان يشعر بأن ربّة الإلهام عصيّة، أبيّة على التحليق في غرفة مكتبه؛ فالفكرة مُكتملة في ذهنه، والحبكة بدأت تتشكل في مخيلته، والشخصيات نضجت واكتمل نموهم بداخله كاكتمال الجنين في رحم أمه، وبدأت تظهر أمامه وتتحدث إليه، غير أنه لم يكن قادرًا على البدء في كتابة روايته أو خلق عالمها وأجوائها.

بعد أن كتب على حاسوبه تلك الافتتاحية الأخيرة، يوم الاثنين ١٠ فبراير ٢٠٢٥، قام بحذفها بأن ظل ضاغطًا على زر الحذف بقوة عدة مرات متتالية حتى كاد يكسر حاسوبه، ثم نهض مُنفعلًا عاقدًا يديه خلف رأسه، يجول بناظريه في أنحاء غرفته، حتى وقعت عيناه على مكتبته الضخمة، التي تحتوي على أثمن الكتب والروايات وأندرها، تتوسطها ست روايات تحمل اسمه، وقد اكتشف مؤخرًا أمرًا غريبًا أزعجه وأقلق راحته، وهو أن حبكات رواياته تتشابه مع حبكات روايات كاتب مغمور عاش في فترة الستينيات من القرن الماضي يُدعى فتحي دربالة!

بدأ الأمر حينما كان في منزل ناقدة أدبية مشهورة في الوسط الثقافي تُدعى نهال عزام، بعد أن سهر معها وقضيا معًا الليل بأكمله، أشارت إليه بأن إحدى رواياته تتشابه حبكتها مع حبكة رواية لهذا الكاتب. في البداية، لم يُعر الأمر اهتمامًا ولم يأبه له، واعتبره شيئًا واردًا، خاصة أن فتحي دربالة هذا غير معروف، ولم يقرأ روايته سوى عدد قليل من الناس؛ بدليل أنه لم يصادف أي مراجعة لأي قارئ قرأ رواياته من قبل، وتحدث عن هذا التشابه، ولم يقرأ مقالًا واحدًا تناول هذا الموضوع؛ لذا اعتبر الأمر ليس إلا توارد خواطر أو توارد أفكار.

في اليوم التالي، استطاعت تلك الناقدة بصعوبة أن تحصل على باقي روايات الكاتب فتحي دربالة، وبعدما قرأتها، لاحظت أن الأمر تكرر في باقي الروايات أيضًا، وأن حبكات رواياته مُتشابهة إلى حدٍّ كبير مع روايات عمر مدكور، بل مُتطابقة. عندما ذهب إليها في الليل، أخبرته بما اكتشفته، وهي تنظر إليه بنظرات مملوءة باللوم:

- لماذا يا عمر تلجأ لسرقة أفكار رواياتك من رواياتٍ أخرى؟ ولماذا لم تخبرني بذلك قبل أن أرشحك لتلك الجوائز، وتحصل عليها؟ بهذا سأكون متواطئة معك في نظر من سيكتشفون الأمر.

قال لها متحفزًا وبنبرة حادة: أقسم لكِ يا نهال أنني لم أسرق شيئًا، ما هذه الترهات التي تقولينها؟!

لم ترد عليه، مكتفية بنظرة تعكس عدم تصديقها، فاستطرد:

- لن ألومكِ إن لم تصدقيني؛ فالأمر غريب حقًا - نهض مُنفعلًا - لكني أقسم لكِ أنني لم أسرق شيئًا، ولا أعرف هذا الكاتب حتى!

استخرج هاتفه من جيبه، وفتح موقع جوجل ليبحث عن اسمه، فلم يجد سوى مقال صغير قديم في منتدى مغمور:

... ولم يكتب الكاتب فتحي دربالة، الذي وُلد وترعرع في حي الجمالية بقاهرة المعز، سوى ست روايات، تم نشرهم عام ١٩٦٧، لم تحظ بأي شهرة حينها، حتى اندثرت في غضون وقت قصير، ولم ينل حقه في الاحتفاء رغم قدرته على نسج حبكات عبقرية لرواياته التي لو قررت اقتناءها ستجد صعوبة بالغة؛ لأن الناشر حينها لم ينشر طبعات أخرى سوى الطبعة الأولى.

سألها من أين حصلت على تلك الروايات، فأخبرته أنها أوصت البائعين في سور الأزبكية، والمتخصصين في الكتب القديمة والنادرة، بالبحث عن رواياته. أخذ الروايات منها، وظل يقرأها طوال الليل، جحظت عيناه من هول ما قرأ، وشعر أنه أمام كارثة حقيقية بالفعل! اتصل بتلك الناقدة ليسألها عن الحل؛ فنصحته بأن

يلتزم الهدوء والصمت، وألا يُلقي الحجر في المياه الراكدة، وألا يثير الموضوع إطلاقًا، ولا يتكلم فيه حتى مع نفسه، وأوضحت له أنه طالما مضت خمسة عشر عامًا دون أن يلاحظ أحد من قرائه هذا الأمر، فهذا يعني أن لا أحد اكتشفه، ولن يكتشفه أحد، وذكّرته بأنها حصلت على تلك النسخ بصعوبةٍ بالغة، مستطردة:

- المهم الآن هو أن تنكبّ على كتابة روايتك السابعة، على أن تكون حبكتها من إبداعك الخالص، فتحي دربالة هذا لم يكتب سوى ست روايات فقط، اكتب أنت الرواية السابعة التي ستحفظ ماء وجهك.

- ماء وجهي؟! - قالها مشدوهًا - معنى كلامك هذا أنكِ تصدقين مائة بالمائة أنني سارق بالفعل!

- دعك مني يا عمر، وصُب كل اهتمامك على روايتك السابعة، ما حدث قد حدث، وانتهى الأمر، تصديقي لك أو عدمه لا يهم الآن.

رأى عمر أن محاولة تبرئة نفسه من تهمة لم يرتكبها ستكون عبثًا، غير أنه من الصعب ترك الموضوع هكذا دون حل. وفي الوقت نفسه، ليس من الحكمة إثارة موضوع خامد لم ينتبه إليه أحد. حاول جاهدًا أن يُبعد تلك الأفكار عن عقله، وينصرف إلى كتابة روايته السابعة، انكبّ على حاسوبه لنسج خطوط الأحداث الرئيسية والفرعية فيها، وتشكيل الشخصيات، حتى حصل على كل الأدوات التي يحتاجها للبدء، لكن بدا أنه غير قادر على منع نفسه من التفكير في هذا الأمر الغريب، وغالبًا هذا السبب وراء وقوفه الآن أمام مكتبته حائرًا، يفكر في كيفية كتابة افتتاحية مشوقة لروايته السابعة.

كان ذلك في الوقت نفسه الذي تقف فيه زوجته "نجلا" خلف باب غرفته، تزمُّ شفتيها وقد غمرها الحزن على حال زوجها، فكرت في أن تطرق الباب وتستأذنه بلطفٍ للدخول، لتتحدث معه وتحاول تهدئته، لكنها عدلت عن ذلك؛ فهي تعرف طباعه جيدًا، وتدرك أنه حين يكون منفعلًا بسبب أمر ما، لا يحب أن يُواسيه أحد، أو يهدئ من روعه، وما يمر به الآن ليس بالأمر الهيّن؛ فهو عاجز عن بدء رواية جديدة!

عمر عبد الحي مدكور، كاتب روائي مشهور، خريج كلية الحقوق بجامعة القاهرة، يقف الآن على أعتاب عقده الرابع، رغم أن مظهره لا يوحي بأن عمره أربعون عامًا، نتيجة مواظبته على تمارين رياضية شاقة وقاسية كل صباح، مما منح جسده بنية قوية، إضافةً إلى أنه مارس في شبابه ألعابًا قتالية.

عمر مدكور، عضو في نقابة المحامين، رغم أنه لا يمارس المحاماة، غير أنه يحفظ القانون عن ظهر قلب، بفضل ولعه بشغراته ودهاليزه، لم يترافع طوال حياته إلا في ثلاث قضايا فقط، إحداها كانت تخص متهمًا محكومًا عليه بالإعدام، وقد اعترف بجريمته، حينها قال عمر "إن الاعتراف لم يعد سيد الأدلة"، ودافع عن هذا المتهم حتى حصل على البراءة في جلستين؛ في الجلسة الأولى، نجّاه من عقوبة الإعدام شنقًا؛ لأن وقت وقوع الجريمة كان عمره سبعة عشر عامًا وأحد عشر شهرًا وثلاثين يومًا، ما يعني أنه كان قاصرًا من منظور القانون. وفي الجلسة الثانية، أثبت أن المتهم كان قد فارق الحياة قبل أن يصل المتهم إلى منزله، ويضع الوسادة على وجهه ليخنقه.

بعد هذه القضية، أصبح عمر مشهورًا كمحامٍ، لكنه لم يرتح لهذه الشهرة؛ فاختار أن يتجه إلى الكتابة، مدفوعًا بتشجيع والدته التي كانت تؤمن بموهبته. نشر روايته الأولى التي حققت نجاحًا كبيرًا، فتحولت شهرته من مجال المحاماة إلى عالم الأدب والكتابة، مستغلًا شغفه بالقانون في بناء حبكات مُعقدة ومتقنة في روايات بوليسية مشوّقة تخطف الأنفاس.

كتب حتى الآن ست روايات جعلته من أبرز وأشهر كتّاب الجريمة، وهو الآن يحاول الشروع في كتابة روايته السابعة العصية على البدء، وبينما كان يفكر في افتتاحية خاطفة ومشوقة، سمع طرقًا على الباب، فالتفت بعصبية، وخطا نحوه عازمًا على توبيخ زوجته بشدة؛ لأنه يعلم أنها تدرك جيدًا عواقب هذا الفعل، فتح الباب غاضبًا، لكنه سرعان ما هدأ انفعاله وابتسم حين وجد أمامه الشخص الوحيد الذي يملك الحق في طرق باب مكتبه دون أي عواقب؛ ابنته "سما"، التي كانت تقف مبتسمة، وتشير إليه طالبة الإذن بالدخول. في تلك اللحظة، هدأت العواصف داخله، وسمح لها بالدخول، فدخلت، ثم عانقته وقبّلته قائلة:

- لم أستطع النوم ووالدي الحبيب مُنفعل.

طبع قبلة على خدها قائلًا: - وكيف عرفتِ أنني مُنفعل؟ فأجابته بصوتٍ خفيض، وقد ارتسمت ابتسامة على مُحيّاها:

- أولًا، قلبي هو من دلني عليك، فهو دائمًا يرشدني إليك. وثانيًا، لأنني الوحيدة في هذا البيت التي لها الحق في طرق باب مكتبك، لذلك لم أتردد وجئت لأطمئن عليك.

كان ذلك حين دخل أخوها إياد بصوتٍ جهوريٍّ، وفي يده ثمرة موز:

- ليتني كان اسمي "سما" لأتمكن من فعل ذلك دون توبيخ أو إهانة.

لكزه والده على كتفه: - قلت لك مليون مرة، لا تقارن نفسك بأختك؛ أنت رجل، ولن يضرك شيء لو عاملتك بخشونة، لكنني حريص جدًا على إغداق الحنان على أختك هنا، في هذا البيت، قبل أن تنتقل فيما بعد إلى بيت زوجها، رغم أنني لا أعرف إن كنت سأوافق على أن يأخذها أحد مني.

قال ذلك، وهو يأخذ منه ثمرة الموز، ليضعها في فمه، ثم أضاف مازحًا:

- إضافة إلى أنها تتحدث معي بصوت هادئ ومنخفض، وليس مثل هذا الصوت العالي الذي يشبه نهيق الحمير.

تنحنح إياد مُتظاهرًا بالإحراج، بينما دخلت "نجلا"، زوجته، حاملةً كوبًا سعة ٢٣٠ ملم من القهوة السادة المغليّة - كما يحبها - ووضعته على مكتبه، وهي تدعو له أن يُتم روايته على خير، ثم عانقته من الخلف هامسة في أذنه:

- ألا تشعر أنك بحاجة إلى الراحة قليلًا لتصفّي ذهنك؟ لقد أجهدتَ عقلك طوال الفترة الماضية، وتحتاج إلى أن تفصل قليلًا.

رد عليها مُبتسمًا: - بعد عودتي من السفر يوم الخميس القادم، سنذهب إلى شرم الشيخ أنا وأنتِ ونقضي هناك يومين.

تدخّل إياد مازحًا بفضول، وهو يغمز له:

- أدفع نصف عمري لأعرف أين تذهب أيام الثلاثاء والأربعاء من كل أسبوع.

ردت عليه نجلا: - قلت لك مئة مرة، إنه يسافر إلى الإسكندرية للعمل على كتابة مقالات لجريدة عربية.

شرع عمر ذراعيه على امتدادهما قائلًا: - حسنًا، أعتقد أنه حان الوقت لأغلق على نفسي مرة أخرى، وأعمل على تلك الرواية اللعينة، تفضلوا.

خرج إياد وهو يشيح بيده، بينما قبّلته سما قبل أن تغادر هي الأخرى، ثم همست له نجلا مرة أخرى:

- سأنتظرك في غرفة النوم لنتحدث قليلًا إن أردت.

غمزت له، فابتسم ابتسامة باردة قائلًا: - سأحاول.

علّقت نظرها عليه لثوانٍ ثم هزت رأسها دون أن تظهر له ضيقها: - مممم حسنًا... حاول.

مرّت ساعتان حتى تجاوزت السابعة صباحًا، وما زال في مكتبه، ممددًا على الأريكة الجلدية، غارقًا في التفكير بروايته السابعة، حتى سمع صوت غلق باب الشقة في الخارج، فأدرك أن سما وإياد قد ذهبا إلى الجامعة، وغالبًا نجلا ما زالت مستيقظة تنتظره، فوجد أنه من السخيف أن يُطيل تأخره أكثر من ذلك، وأنه يجب أن يجلس معها، ويظهر لها اهتمامه، رغم أنه لم يكن متحمسًا للتفوّه بأي كلمات تعبر عن الحب أو الاهتمام، لكنه قرر أن يفعل ذلك حتى لو تطلّب الأمر بأن يتظاهر بعكس ما بداخله، فخرج من مكتبه ودخل غرفة النوم

ليجدها تنتظره بالفعل، مرتديةً قميص نوم أزرق اللون!

من يرى ويلاحظ البرود الذي أصاب علاقتهما مؤخرًا، يجزم أنهما تزوجا زواجًا تقليديًا، لكن الحقيقة أن زواجهما جاء بعد قصة حب كانت تُضرب بها الأمثال بين زملائهما في الجامعة؛ فقد أحبها منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها، وبذل كل ما بوسعه للفت انتباهها، وجعلها تحبه. حتى جاء اليوم الذي صارحته فيه بأنها تبادله المشاعر نفسها؛ فظل يقفز أمامها فرحًا حتى ظنّ من حولهما أنه قد فقد عقله. كان معروفًا في الجامعة بأنه المتعهد الرسمي للرحلات، ولم يكن يذهب إلى أية رحلة دون أن يكتب اسمها قبل اسمه.

توطدت علاقتهما وتعمّقت حتى تخرجا وتزوجا بعد التخرج مباشرة، بدأ معها من الصفر، حتى أصبح الكاتب المشهور الذي هو عليه الآن. لكن مع مرور الوقت، بدأت الكتابة تسيطر على جزءٍ كبيرٍ من وقته واهتمامه، فيما استحوذت المعجبات وشهواته تجاههن على جزء آخر. في الوقت نفسه الذي كانت فيه نجلا منهمكة في تربية سما، التي التحقت هذا العام بكلية الفنون الجميلة، وإياد الذي التحق بكلية الحاسبات ونظم المعلومات؛ فاتسعت المسافة بينهما حتى أصبحت فجوة يجاهدان عبثًا في سدها.

إلى أن ظهرت خلود شلبي، الطبيبة الناجحة، التي استطاعت - بأقل مجهود - أن تحتل قلبه بعد أن تعرّف إليها في ندوةٍ لمناقشة رواياته وأعماله الأدبية التي قرأتها كلها وتحفظها عن ظهر قلب، تمكنت من لفت انتباهه منذ اللحظة الأولى، من طريقة كلامها الساحرة ولباقتها حين وقفت لتناقشه في عدة نقاط برواياته. لمعت

عيناه حين رأى فيها امرأة لم يصادف مثلها من قبل، لم ينبهر بأيّة امرأة قبل ذلك كما انبهر بخلود، والتي لم تكن تشبه أحدًا، كانت مُنفردة، ومُتفرّدة في كل شيء، سواء حسن قسماتها، سحر نظراتها، أو روعة كلماتها.

كانت خلود تحبه من قبل تلك الندوة، أحبّته في البداية ككاتب تحب قلمه، وبعدما تابعت حساباته في وسائل التواصل الاجتماعي، وبرامج التلفاز، أحبّته كرجل هادئ ساحر رزين، وكانت تحلم بأن تكون جزءًا من حياته. بعد الندوة، تبادلا الرسائل، واتفقا على أن يحتسيا القهوة معًا، حدث في تلك المقابلة كل شيء، وفي غضون فترة قصيرة استطاعت بسهولة إزاحة كل النساء من قلبه وحياته، لتجلس مُتربّعة بمفردها.

حتى حدث ما قلب حياتها رأسًا على عقب؛ فقد توفّيت ابنتها الكبرى في حادث سير في أثناء نزهة معها، تبدل حال خلود حينها واستوطن الحزن قلبها، لم يتركها عمر ولم يتخلّ عنها، بل ظل بجانبها يدعمها، وفعل كل ما في وسعه وأكثر لمساندتها وتعويضها وابنتها الأخرى، ولو بجزءٍ قليلٍ عما فقدتاه. كان هذا على حساب بيته، وهو ما شعرت به نجلا، التي أدركت أنه هذه المرة لن يترك خلود بعد فترة قصيرة كما كان يفعل مع الأخريات، بل رأت أن علاقتهما تزداد عمقًا يومًا بعد يوم، حتى جاء اليوم الذي تشاجرا فيه، ووضعت أمامه الخيار بين أن يبقى معها أو مع خلود. حاول تهدئتها وإقناعها، كذبًا، بأنه مستمر مع خلود فقط؛ لأن روحها هشة في تلك الفترة بسبب فقدها لابنتها، وأنه لا يستطيع التخلّي عنها في مثل هذه الظروف؛ فوقفت أمامه منتصبة القامة، واضعة يديها على

خصرها، وقالت له الجملة التي ندمت عليها طوال حياتها:

"لن أستطيع أن أعيش مع رجل خائن، رجل يخونني مع عاهرة يذهب إليها ويزني معها"

ورغم أن خلود هي الوحيدة التي لم يمارس معها علاقة منذ أن تعرّف عليها، لكنه شعر في تلك اللحظة بالدم يغلي في عروقه، غير أنه آثر الحفاظ على هدوئه، وسكت هنيهة مطرقًا رأسه، ثم قال بنبرة هادئة:

- خلود ليست عاهرة يا نجلا، ولم أزنِ معها، وبسبب هذا الكلام، سأتزوجها غدًا على سنة الله ورسوله، ولو أردتِ الطلاق، فلا مانع لدي، وكل حقوقكِ مصونة.

ظنت في البداية أنه يهددها فقط، لكنها أدركت لاحقًا أنه كان جادًا في كلامه، وعاد في اليوم التالي بإبهام أزرق اللون، سألته مستغربة عن تلك الصبغة الزرقاء، فأخبرها بلا مبالاة أنه كان عند المأذون قبل قليل، وقد تزوج خلود، وسيسافر معها إلى مدينة "دهب" لقضاء أسبوع معًا، مكررًا ما قاله سابقًا بخصوص الطلاق إن أرادت، لكنها لم تطلب الطلاق، وآثرت أن تحكّم عقلها حفاظًا على بيتها، وعلى الصحة النفسية لإياد وسما. وبعد فترة من التفكير، هدأت وعادت إلى رشدها، وطلبت منه بنبرة منكسرة بها بعض الرجاء طلبين؛ الأول: ألا يُخبر سما وإياد بزواجه الثاني، والطلب الآخر: أن يذهب إلى خلود فقط يومي الثلاثاء والأربعاء، فوافق متفهمًا دون نقاش، مُقدرًا عدم طلبها الطلاق وخوفها على هدم البيت.

حين رآها مرتدية قميص النوم الأزرق ابتسم، فرحت حينها؛ لأن

ابتسامته تلك دلالة على أنه ما زال مُتذكرًا لون القميص الذي ارتدته له لأول مرة يوم زفافهما. اقتربت منه، ونظرت في عينيه مليًا، نظرات تشي باشتياق ممزوج بالرغبة، رغم أنها لم تلمح في عينيه ولو جزءًا صغيرًا من هذا الاشتياق، غير أنها تجاهلت هذا الإحساس، ولمست شفتيه قبل أن تجذبه إلى الفراش. ذلك الفراش الذي تبادلا فوقه الرغبة والشبق في أعلى مراحلهما يومًا ما، هو الفراش نفسه الذي باتت الرغبة فيه اليوم من طرفٍ واحد فقط؛ طرفها. أما هو فقد كان الأمر بالنسبة له أشبه بأداء واجب، سداد مستحقات يجب أن يدفعها درءًا لحدوث ما يُعكِّر هدوءه النفسي.

بعدما انتهيا استلقى بجوارها مُمدِّدًا جسده لدقيقتين قبل أن يولي ظهره لها نائمًا على جنبه الأيسر دون أن تصدر منه أية كلمة، مرت دقيقتان حتى سمع صوت أنينها، اعتدل في نومته، فرأى دموعها تنساب على وجنتيها، سألها عمَّا بها، لكنها لم ترد، مرر أصابعه على شعرها مكررًا سؤاله، فأجابته مندهشة:

- هل حقًّا لا تعرف ماذا بي؟ أنت تعرف جيدًا.

رد عليها، مستغربًا، أو هكذا بدا لها: - أقسم لكِ أنني لا أعرف فعلًا لماذا تبكين؛ لذلك أسألك الآن، وأنتظر إجابة مقنعة، نحن كنَّا معًا للتو، نمارس الحب!

- حب؟! - أطلقت ضحكة قصيرة مُتهكمة - لا تقُل "حب"، تستطيع أن تسميه جنسًا، تفريغ شهوة، مُجاملة.. ليس أكثر من ذلك، إنما الحب لا تمارسه هنا، بل تمارسه هناك... معها.

اعتدل في جلسته متأففًا، ثم مد يده مُلتقطًا سيجارة أشعلها

بانفعال:

- تذكّري جيدًا من الذي بدأ الشجار الآن، لقد اتفقنا مسبقًا على ألا نأتي على ذكر اسمها في هذا البيت، وها أنتِ التي تخالفين الاتفاق وتتحدثين عنها.

اعتدلت هي الأخرى لتصبح مقابلة له، قائلة بنبرة حادة:

- أنت مخطئ يا عمر، لستُ أنا من بدأ، بل أنت، بدأت حينما استحضرتها في خيالك وأنت معي، حينما ابتسمت لي وأنت فوقي، ولمست رقبتي، كنت تراها هي، لا أنا، وحينما تحدثت معها في سرك بعد أن انتهيت مما تسميه ممارسة الحب!

يعلم جيدًا أن كل كلمة نطقت بها أصابت كبد الحقيقة، لكنه أغمض عينيه مستجمعًا شجاعته لينكر وينفي ما قالته، ومطلوب منه أن يبدو مُقنعًا، ويدرك أن الأمر يتطلب إتقانًا، وقد كتب في إحدى رواياته جملة يؤمن بها تمامًا:

"كي تبدو مقنعًا عندما تنكر شيئًا، عليك أن تنكره بإخلاصٍ وإيمان، وأن تظهر الضجر والانفعال"

وهذا ما فعله بالضبط. ورغم ذلك، لم تقتنع نجلاء، وكان على يقين تام بأنها لم تقتنع، لكن ضميره كان مرتاحًا؛ لأنه - على الأقل - أنكر ما قالته مُصدقًا نفسه.

لم يُكمل سيجارته وأطفأها في منتصفها ثم تركها ودلف إلى الحمام، جلس على حافة البانيو مُنتظرًا امتلاءه وهو يفكر في خلود، والتي استطاعت أن تُخلّد اسمها في قلبه، وتنقشه على جدران

روحه، تلك المرأة التي تمكنت بجدارة أن تسبر أغواره، وتكتشف أشياء هو نفسه لم يكن يعلم شيئًا عنها، استطاعت أن تجعل عينيها ملجأه، وأن تجعل حضنها حصنه، وقلبها ملاذه الآمن، رغم أنه يقضي معها يومين فقط في الأسبوع، إلا أنها تملك القدرة على أن تجعله يشعر في هذين اليومين بما يعجز عن الشعور به في باقي الأيام؛ يذهب إليها مُستنزفًا، فتشحن طاقته، يأتيها مُشتتًا، مُمزقًا، فتُلملم شتاته وتُعيده إلى نفسه.

هو أيضًا لم يكن مجرد متلقٍّ؛ فقد فعل لها الكثير في المقابل، ووقف إلى جانبها حين فقدت ابنتها الكبرى، تلك الفترة التي كانت فيها جسدًا شاحبًا فارغًا من الحياة، حينها شعرت أن ابتلاءات الدنيا قد حاقت بها واجتمعت على رأسها دفعة واحدة؛ فقررت الانتحار، لكن ما جعلها تثني عن قرارها هذا شيئان: ابنتها الأخرى، وهو... كان حريصًا على البقاء بجانبها، لا يتركها، كان خائفًا عليها من نفسها، وبذل قصارى جهده ليجبر جروحها، وانتشلها من بئر الضياع والحزن التي أغرقتها، ونجح في تعويضها - ولو جزئيًا - عن فقدانها لابنتها، رغم علمه التام أنه لا أحد يستطيع تعويضها عنها. لكنه على الأقل منحها القوة اللازمة لتجاوز تلك المرحلة بأقل الخسائر الممكنة. ومع مرور الوقت، أصبح جزءًا أصيلًا من حياتها، بل واهتم أيضًا بـ"دينا"، ابنتها الأخرى التي أحبته.

في البداية، كان شعوره نحوها لا يتعدى الشفقة، لكنه تحوّل تدريجيًا إلى اهتمام، فاهتمام أكبر، حتى انتهى به الحال إلى الحب، ذلك الحب الذي كان يزداد يومًا بعد يوم، ويُحوّله إلى إنسان آخر غير الذي كانه من قبل، تغيرت في داخله طباع كثيرة، إلا طبعًا واحدًا...

ألا وهو الخيانة.

هناك دراسة - لا تسأل عن مصدرها - تقول إن هناك نوعًا من الرجال لا يعتبرون خيانتهم للمرأة دليلًا على عدم حبهم لها، أو عدم رغبتهم فيها، بل يرون أنه لا علاقة بين هذا وذاك؛ فالرجل أحيانًا يستطيع أن يحب امرأة من كل قلبه، ويحب غيرها دون أي شعور بالذنب، ويرى ذلك شيئًا طبيعيًا؛ فداخل قلب الرجل ملايين الشعيرات الدموية، من بينها شعيرة واحدة مسئولة عن نسخ قلبه إلى عشرات النسخ، كل نسخة لديها القدرة على حب امرأة بعينها، وبذلك يستطيع أن يعشق عشرات النساء، وأن يكون مُخلصًا لكل امرأة على حدة، مُخلصًا لها في اللحظة التي يكون فيها بجوارها وفي حضنها، وكان عمر مدكور - ببساطة - ينتمي لهذا النوع من الرجال!

رغم زواجه من خلود وولعه بها، لم يستطع أن يكره نجلا، بل على العكس، هناك في قاع قلبه بقية رواسب حبه لها، ذلك الحب الذي بدأ مشتعلًا منذ أن كانا في الجامعة، لكنه تآكل وصَدِئت تروشه بفعل عوامل الزمن ومرور تسعة عشر عامًا من زواجٍ أثمر عن سما وإياد. وطالما أشفق عليها من خيانته لها، ليس فقط مع خلود، وإنما مع نساء كثيرات؛ من بينهن - على سبيل المثال لا الحصر - تلك الناقدة الأدبية المشهورة التي تُدعى نهال عزام، زوجة أشهر ناقد أدبي في الوسط الثقافي، والتي يخاف منها ومن قلمها اللاذع الحاد كحد السيف كُتّاب كُثُر، علاوة على أنها زوجة أحد أكبر النقاد في الوسط الأدبيّ، تلك الناقدة ساعدته كثيرًا في بداية مشواره في حقل الأدب والثقافة، وكانت تنشر أسبوعيًا في إحدى أكبر المجلات الثقافية

مقالًا نقديًا عن رواياته، تُشيد فيه بمهاراته في الكتابة وإبداعه الذي لا مثيل له، وكلما كانت الليلة التي تقضيها معه ساخنة، كان المقال النقدي الذي يُنشر في اليوم التالي أكثر إشادة! ليس فقط مقالات، بل كانت تُمهِّد له الطرق للحصول على جوائزَ كثيرة؛ لأنها كانت ترشحه لها.

كان مُولعًا بفكرة أنه يجلس الآن مع ناقد أدبي كبير، يهتز لقلمه الوسط الأدبي والثقافي بالكامل، ومنذ سويعاتٍ قليلة كان يقضي مع زوجته وقتًا عاصفًا بالرغبة والنشوة، ينتابه شعور جارف حين يقف على منصة حاملًا جائزة أدبية، ويصفق له كل الحضور، بينما تقع عيناه على نهال عزام التي تجلس بين الحضور في الصف الأول وتُصفق له بحرارة، فيتبادلان الابتسام، والنظرات التي تحمل كلامًا كثيرًا لا يفهمه سواهما.

وفي الحقيقة، ليس كل ما تكتبه تلك الناقدة عنه يُعد مجاملة أدبية، فهو يستحق معظم ما تكتبه؛ إذ يمتلك أدوات عديدة في الكتابة، ولا يضاهيه في إبداعه إلا قلة قليلة، ويتميز ببراعة فائقة في نسج حبكات معقدة في رواياته، ولديه قدرة لا مثيل لها في الإمساك بتلابيب القارئ من أول صفحة إلى كلمة "تمت"، لكنه يدرك تمامًا ويعترف بأن كل ما يملكه من أدوات ليس كافيًا ليظهر ككاتبٍ لامع في سماء الأدب، ولا ليقف على منصات الجوائز الأدبية كل بضعة أشهر، ويحصد هذا الكم من الجوائز في فترة وجيزة. كما يعلم جيدًا أن تلك الناقدة ربما تقيم علاقات سرية مع المسؤولين عن الجوائز، ما يدفعهم إلى قبول ترشيحاتها دون تردد؛ فالوسط الأدبي والثقافي مليء بالعديد من الأمور الخفية والأحداث التي

تجري خلف الكواليس، ليس فقط في مصر، بل في معظم الأوساط الثقافية حول العالم... وعلى مر التاريخ.

في اليوم التالي...

الثلاثاء ١١ فبراير ٢٠٢٥

استيقظ عمر بعد الفجر بقليل، أخذ حمامًا دافئًا وارتدى ملابسه على عجل، ووقف أمام المرآة ليهندم مظهره، كان ذلك حين استيقظت نجلا. لمحها في انعكاس المرآة، وقد كسا وجهها العبوس. استدار نحوها وقبّلها واضعًا يديه على خصرها، ثم سألها عمّا بها، فقالت له مُتوددة بلسان الترجي:

- ألم يحن الوقت لتطلّق تلك العاهرة، وتلتفت لبيتك وأولادك، وتهتم بهم أكثر من ذلك يا حبيبي؟ إياد بدأ يرتاب في الأمر، ويسأل أين تذهب هذين اليومين.

اشتعل غضبًا، وردّ بنبرة حادة:

- أولًا، هي ليست "عاهرة" يا نجلا، آخر مرة قلتِ هذه الكلمة، تزوجتها في اليوم التالي، ويمكنني الآن أن أقرر إعطاءها يومًا إضافيًا، فأقضي معها ثلاثة أيام بدلًا من يومين، لكني سأعتبر ما قلتِه زلة لسان، وسأعتبر نفسي لم أسمع منكِ شيئًا.

ثم استدار مرة أخرى نحو المرآة ليصفف شعره، الذي بدأ يغزوه بعض الشيب عند فوديه، لم يلتفت لذلك، ثم أضاف بنبرة أقل حدة، محاولًا تخفيف وطأة تهديده ووعيده:

- إضافة إلى ذلك، هي امرأة ثكلى، ولو تركتها قد تنتحر، لقد حاولت الانتحار عدة مرات من قبل وأنقذتها.

التفت إليها مرة أخرى وضمها إلى صدره: - ما يحدث ليس ذنبك

يا نجلا، إنه ذنبي وحدي، أنا المخطئ. صدقيني، لقد ابتلاكِ الله برجل عيناه لا تكتفيان بامرأة واحدة. لن أقول لكِ إن معظم الرجال كذلك، ولن أعلق طيشي ونزقي على تلك الحجة. كل ما أريده منكِ هو أن تتحملينى، اعتبرى هذين اليومين فرصة لتشتاقى إلىّ، وأنا أيضًا أعود إليك مشتاقًا، وبذلك يتجدد حبنا، ويبقى الاشتياق بيننا مشتعلًا.

قالها ولثم مفرق شعرها، فردت عليه، وعيناها مليئتان بالقلق:

- أخشى أن أفقد عقلي، وينفد صبري، وأختِرك بيني وبينها فتختار...

قاطعها بوضع سبابته على شفتيها، ثم قبلها قائلًا:

- لا يا نجلا... لا تقولي هذا الكلام، أنتِ نجلا، أول امرأة أحببتها حبًا حقيقيًا في حياتي، أنتِ التي تزوجتُها بعد تخرجي مباشرة، خوفًا من أن يخطفكِ منى رجل آخر ويحظى بكِ، أنتِ التى فتحت عينيها على الحب وتعلّمته على يدي، أنتِ نجلا التي عشت معها أجمل سنوات حياتي، وأنجبنا معًا أجمل هديتين من الله، سما وإياد.

ضمها إلى صدره وربّت على ظهرها برفقٍ حتى شعر أنها هدأت قليلًا، قبل أن يطبع على شفتيها قبلة أخرى، ثم غادر متوجهًا إلى خلود.

-٢-

كانت خلود تنتظره على أحر من الجمر، وهو أيضًا لم يكن أقل منها لوعةً واشتياقًا. حين يكون معها، يشعر وكأنه يملك الدنيا وما فيها، إضافةً إلى إنجازه جزءًا كبيرًا من روايته، يجد معها راحة وهدوءًا لا يجدهما في أي مكان آخر، يذهب إليها مُشتاقًا، مُنهكًا، مُبعثرًا، مكسور الجناحين، وما أن تلتقي عيناه بعينيها حتى يشعر بأنه عاد ليحلّق من جديد.

كانت الساعة السابعة صباحًا حين رن جرس الباب، تفاجأ بقطة تقترب منه، تصدر مواءً مستمرًا، فشعر بالخوف وركلها بقدمه، لعنها بأقسى الألفاظ. في الوقت نفسه الذي فتحت فيه خلود الباب واستقبلته بحبورٍ وحضنٍ دافئٍ يشي بمعاناتها خلال الأيام الخمسة الماضية. عندما عانقها، شعر وكأن كل التعب الذي كان يثقل كاهله قد زال وتلاشى، تناول الفطور معها ومع ابنتها دينا، التي تحبه وتعتبره عوضًا عن والدها الذي نادرًا ما تراه. بعدها، دخل غرفة النوم ليستلقي ويمدد جسده على السرير، بينما ذهبت دينا إلى الجامعة. في تلك الأثناء، كانت خلود قد انتهت من تحضير قهوته، ثم قضيا بعد ذلك وقتًا مُغلفًا باشتياقٍ يعلوه اشتياق. وبعدما انتهيا، دست رأسها في صدره قائلة:

- هل استعددت جيدًا لندوتك وحفل توقيعك غدًا؟

- أعتقد ذلك، ولكني سأذهب إلى أمي أولًا لأطمئن على صحتها قبلما أذهب إلى الندوة.

- أريد أن أذهب إليها معك وأراها.

- أعتقد أن هذا المشوار سيكون متعبًا لكِ يا حبيبتي، هذا غير أنه ليس طبيعيًا أن تذهبي إلى مستشفى في يوم عطلتك، يكفي أنكِ معظم أيام الأسبوع تقضينها في مستشفى.

- أريد الاطمئنان عليها، ورؤية تلك السيدة التي أنجبت هذا الرجل الذي ينير حياتي كلها، وامتلك قلبي وعقلي وكل حواسي.

- حسنًا، ولكن بشرط.

قبّلته قائلة: - اشترط ما تشاء، ما هو شرطك؟

اعتدل في جلسته، وأخذها بين ذراعيه حتى أصبح رأسه فوق رأسها، وقال لها وهو ينظر في عينيها اللتين تشعان بسحرٍ لا يُقاوَم: - أن تُقبّليني خمسمائة قبلة.

أكملا ما كانا يفعلانه منذ قليل، مُفرغًا معها كل الأوقات العصيبة التي مرّ بها خلال الأيام الماضية، لم يشعر بمتعة في ممارسة الحب كما يشعر معها؛ فهي قادرة، في دقيقةٍ واحدة، على أن تعوّضه عن أي تعب أو مشقة عاشهما لسنوات، لديها القدرة على التجدد دائمًا، وأن تكون عشر زوجات مختلفات في أربع وعشرين ساعة. ورغم تشابهها معه في أمورٍ كثيرة؛ فإنها تكمّله في أمور أكثر، إضافة إلى حبها وشغفها بالقراءة؛ فلا يرسل أيًا من رواياته إلى دار النشر قبل أن تقرأها، وتقدم له تقريرًا كاملًا بملاحظاتها، التي غالبًا ما تتوافق مع ملاحظاته السابقة، ليباشر العمل عليها.

وبشكلٍ عام، استطاعت خلود أن تسلب قلبه؛ فهي في نظره المرأة

الكاملة المتكاملة المكتملة، والتي تمتلك جسدًا غضًّا، بَضًّا، مُفعمًا بالأنوثة، وعقلًا لم يرَ مثله في أي امرأة أخرى، إضافة إلى عينيها السوداوين الواسعتين اللتين بمجرد أن ينظر إليهما، ينسى نفسه، بل ينسى الدنيا وما فيها.

***

في الوقت نفسه

كانت نجلا تجلس مع صديقة عمرها، حسناء، التي تلقّت مكالمتها منذ ساعة تخبرها فيها بأنها مغمورة بالحزن، فذهبت إليها على الفور، وكانت أمام باب شقتها ترن الجرس بعد ربع ساعة، وما إن فتحت نجلا الباب، سألتها حسناء، وقد بدا على وجهها القلق:

- ما بكِ يا نجلا، قد أقلقتِني عليكِ، هل حدث شيء لكِ أو للأولاد؟

- لا يا حسناء، الأولاد بخير، أنا التي حدث لها مكروه. قالتها وهي تشير لها بالدخول وأغلقت الباب، ثم جلستا في غرفة المعيشة. سألتها حسناء مُجددًا:

- ما بكِ؟ أقلقتِني عليكِ... تحدثي.

- لم أعد أحتمل العيش في هذا الوضع أكثر من ذلك، وأفكر جديًا في الطلاق من عمر.

ضربت حسناء بيدها على صدرها: - ما هذا الذي تقولينه؟ هل تظنين نفسك صغيرة لتفكري في هذا الأمر؟ لقد تحملتِ ما هو أكثر من ذلك منذ أن كان أولادك صغارًا، والآن بعدما كبرا تقولين هذا الهراء؟!

- حينما كانا صغارًا كنت أتمتع بطاقة كبيرة للتحمُّل، أما الآن فلا... وأريد فعلًا أن أطلب منه الطلاق.

- حينما كان أولادك صغارًا كنتِ ستستحوذين على الشقة بصفتك حاضنة لهما، أما الآن لو طلبتِ الطلاق ستجدين نفسك في الشارع بمجرد أن تحصلي على ورقتك. أخبريني أين ستعيشين وكيف؟

- لديّ مبلغ من المال قد ورثته عن والدتي قد أودعته في البنك.

- كم سنة سيصمد معك هذا المبلغ؟ حتى لو ربطتِه بشهادةٍ بنكية لتدرّ عليكِ دخلًا شهريًا، كم ستأخذين منه؟ بالتأكيد مبلغ هزيل لن يكفيكِ.

صمتت حسناء لهنيهة، بينما انهارت نجلا في البكاء، استطردت صديقتها:

- لا تفكري في الطلاق مرة أخرى، أنت تحبينه، وهو كذلك يحبك، لا تضعي في اعتبارك ما يفعله خارج المنزل، كل الرجال هكذا، كلهم كلاب، والمرأة الذكية هي التي تستطيع أن تساير أمورها وتُسيّرها بالشكل الذي يجعلها مرتاحة.

سألتها نجلا مستغربة: - كيف؟

ردت عليها حسناء بالسؤال نفسه، لكن بتعجب واستهجان: كيف! هل ما أقصده صعب الفهم لهذه الدرجة؟! عمومًا أنا أقصد أن تستغلي هذين اليومين الذي يقضيهما عمر مع الهانم، في الترويح عن نفسك، وتبحثين عن الذي يُقدر جمالك، ويُقدر وجودك، وما أكثرهم!

قاطعتها: - ما هذا الذي تقولينه أيتها المخبولة؟! أخونه؟ لالالا بالطبع، رغم أنه يستحق ذلك، لكني لست تلك المرأة، كيف سأنظر إلى نفسي في المرآة مرة أخرى بعدما أتحدث - مجرد التحدث - مع رجل آخر! هل لو كنتِ مكاني كنتِ ستفعلين الشيء نفسه؟

- أولًا أنا لست مكانك، وزوجي ليس كزوجك، كل الناس يعرفون أن شوقي غربال ليس إلا خاتمًا في إصبعي، وكما ترين، رغم جاهه وماله وقوته يطيع كل أوامري، ويفعل لي كل ما أطلبه قبل أن أفكر فيه حتى! وهذا ما قلته لكِ في البداية، منذ أن كنا في الجامعة، لكنك سخرتِ مني وقلتِ لي إن الذي بينكما قصة حب، وليس عقد إيجار. أخبريني الآن ماذا فعل لكِ الحب! ماذا جلب لكِ سوى الألم!

- لم أكن أعلم المستقبل.

- إذن فليس أمامك سوى أن ترتضي بوضعك الحالي، على الأقل أنتِ الآن تسكنين في شقة لها سقف وجدران، وتنامين بجوار أولادك كل يوم.

دخل فجأة إياد، وألقى عليهما السلام في خجلٍ مُصطنع، ثم استأذنهما أن يضع هاتفه في الشاحن ليشحن قليلًا قبل أن يذهب إلى الجامعة، ما إن رأته حسناء حتى اتسعت عيناها، وتهلّلت:

- بسم الله ما شاء الله، ابنك زادت قامته وأصبح أطول مني، ليس ذلك فقط، بل وسيذهب إلى الجامعة! من يصدق أنه كان يجلس على حجري منذ يومين!

أقبل عليها الابن وصافحها فجذبته إليها لتقبلّه: - ما بك أيها الأبله،

هل تخجل من حسناء؟ أنا مثل أمك يا ولد، ولو كان الله رزقني بأولاد كانوا سيصبحون في سنك، هل نسيت أنني كنت يومًا ما كنت أبدل لك حفّاظاتك؟!

- يا طنط حسناء من فضلك لا تحرجيني، لقد قلتِ لي هذا الكلام كثيرًا، وقد حفظته عن ظهر قلب، من فضلك لا تقوليه مرة أخرى؛ لأنني أخجل من ذلك، فقد قلتِ منذ قليل: أنا الآن في جامعة.

ثم التفت إلى والدته طالبًا منها مصروفه، فأخبرته أنها قد تركته له على الكومود. استأذنهما ودخل غرفته مرة أخرى، مُمسكًا بهاتفه الآخر، وأخذ يعبث به حتى استطاع أن يتواصل بالهاتف الذي وضعه منذ قليل في غرفة المعيشة، وقد ضبطه على وضع فتح الكاميرا، والتي كانت موجهة ناحية حسناء، وأخذ يلتقط عدة لقطات ويكبر الصور ليرى تفاصيل جسدها الذي يلهب غرائزه. لم تكن تلك المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك؛ فهو يمتلك داخل هاتفه أكثر من ثلاثين صورة لها كانت قد نشرتها من قبل في حسابها على إنستجرام في مناسباتٍ مختلفة. لم يمر يوم دون أن يفتح تلك الصور ويتصفحها، ويكبّر كل صورة ليشاهد كل تفاصيل جسدها التي يحفظها عن ظهر قلب.

دخلت عليه أخته فجأة، وهو مُنهمك في المشاهدة والفحص، جحظت عيناها من هول ما رأت، لكزته على كتفه، فانتفض من مكانه، قائلةً بصوتٍ خافت:

- ما هذا الذي تفعله أيها الخنزير؟ إنها صديقة أمك، وفي مثل عمرها، هل جُننت؟!

نهض وقاطعها، واضعًا يده على فمها:

- ألم يخبزك والدك ألا تقتحمي عليّ غرفتي فجأة؟ أين احترام الخصوصية؟

- وأنت، ماذا فعلت بخصوصية الآخرين؟ وبمن؟ صديقة أمك! هل فقدت عقلك؟

- لا تتدخلي في شؤوني، واغربي عن وجهي الآن، وإذا نطقتِ بكلمة واحدة، سأخبرهم عن أحمد الذي كنتِ تجلسين معه بالقرب من مدرج كلية التجارة.

نظرت إليه بازدراء: - كم أنت خسيس! سأخبر أبي بكل شيء.

أطلق ضحكة ساخرة، وقال مُتهكمًا: - وهل تظنين أن لديه وقتًا لنا؟!

رمقته شزرًا، ثم خرجت من الغرفة، لم يأبه، ولوّح لها بيديه باستخفاف، ثم أعاد فتح هاتفه ليواصل مراقبة حسناء.

***

ارتدى عمر بدلة أنيقة رمادية اللون، في الوقت نفسه الذي كانت فيه خلود قد انتهت من ارتداء ملابسها. لمعت عينا عمر حين رآها، اقترب منها وقبّلها قائلًا: - ما كل هذا الجمال؟ هل كل هذا لي وحدي؟ أنا أحسد نفسي عليكِ كل يوم.

- كل هذا الجمال يا حبيبي لا يظهر إلا لأنك في حياتي.

قبّلها مرة أخرى، ثم فتح باب الشقة، ليفاجأ بالقطة نفسها واقفة

عند الباب، صاح متفاجئًا:

- هذه القطة أقسمت بكل أيمانات المسلمين أن تجعلني أصاب بنوبة قلبية! قالها بينما لوّح لها بقدمه نحوها لتبتعد، فضحكت خلود قائلة:

- حرام عليك يا حبيبي، لا تخوّفها؛ إنها قطة لطيفة، ولا تبدو مثل قطط الشوارع. أصدرت القطة مواءً خافتًا، فلوّح عمر بقدمه مرة أخرى، فابتعدت القطة خائفة.

استقلا سيارتهما واتخذ عمر شارع صلاح سالم، وحينما مرّ بجوار قلعة صلاح الدين الأيوبي، حانت منه التفاتة إلى أحد أسوارها، فشعر بدوار مباغت، وكأن الأرض تدور من حوله، وسرعان ما هاجمته نغزة حادة في قلبه أفقدته السيطرة على عجلة القيادة، فانحرفت السيارة بشكل مفاجئ إلى اليسار بينما تدلت رأسه على صدره.

صرخت خلود صرخة مدوية، وانقضّت بسرعة على عجلة القيادة محاولةً السيطرة عليها، في حين مدت قدمها اليسرى نحو المكبح لتوقف السيارة، وفي اللحظة ذاتها، اقتربت منهما سيارة أخرى كانت تسير خلفهما بسرعة، لكن بفضل تحكمها، تمكّنت خلود من تفادي الاصطدام في اللحظة الأخيرة. عاد وعيه فجأة، واستطاع أن يرى النور يعود تدريجيًا إلى عينيه، واستوعب ما حوله، فأمسك عجلة القيادة مجددًا، وانحرف بهدوء نحو اليسار حتى أوقف السيارة بمحاذاة الرصيف، تنفست خلود الصعداء حينها وسألته بصوتٍ مرتعش:

- ما بك يا حبيبي، ماذا حدث لك؟

حاول عمر التقاط أنفاسه المتسارعة، فبادرت خلود بإخراج زجاجة ماء ومدتها إليه. تناولها عمر، ورشف منها قليلًا ليهدأ. في تلك الأثناء، كانت السيارة التي تفادت الاصطدام بهما قد توقفت، ونزل منها رجل متوجهًا نحوهما ليطمئن عليه:

- هل أنت بخير؟ لم يستطع عمر الرد، فتدخلت خلود مجددًا قائلة:

- كل شيء على ما يرام، نعتذر عفًا حدث.

بقي الرجل يحدق في وجه عمر، واستطاع أن يتعرف عليه:

- هل أنت عمر مدكور، الكاتب الكبير الذي حصل على جائزة أدبية الشهر الماضي؟

التفت عمر إليه بعينين زائغتين ووجه شاحب، بالكاد يلتقط أنفاسه، فأجابت خلود سريعًا:

- نعم، هو، شكرًا جزيلًا لاهتمامك، ونعتذر مرة أخرى عفًا حصل.

عرض الرجل مساعدته، لكن خلود شكرته للمرة الثالثة بلهجةٍ حازمة، ليعود إلى سيارته ويرحل، بينما وضعت خلود يدها على كتفه: - ماذا حدث لك يا عمر؟

- لا أعرف... هذه هي المرة الثالثة التي يحدث لي هذا هنا، مررت من قبل بجوار قلعة صلاح الدين، وشعرت بالإحساس نفسه، لكن وقتها كنت مُترجِّلًا، فجلست على الرصيف حتى استعدت وعيي، أما المرة الأخرى، فكانت قبل خمس سنوات تقريبًا، عندما كنت مع

الأولاد عند باب زويلة.

كان العرق يتصبب على جبينه ووجهه، أخرجت خلود منديلًا بلطف ومسحت عرقه، ثم بلّلت يدها بقليل من الماء، ومسحت وجهه مرة أخرى.

- أعتقد أنك بحاجة إلى الراحة، دعنا نعود إلى المنزل، لا داعي لأن نذهب إلى أي مكان اليوم.

- لالالا... أنا بخير... هيا بنا.

حينما أمسك هاتفه، لاحظ إشعارًا بمكالمة فائتة، كان الرقم المتصل من المستشفى؛ حيث ترقد والدته، شعر على الفور بنغزةٍ جديدةٍ في قلبه، وكأن حدسه يخبره بأن هذه المكالمة لن تحمل خبرًا سارًا، حاول الاتصال بالرقم، لكن لم يجبه أحد، دون تردد، اتجه مباشرة إلى المستشفى، وعند وصوله، استقبله الطبيب المسؤول عن حالة والدته بوجهٍ عابس.

- لقد اتصلنا بك منذ نصف ساعة تقريبًا يا أستاذ عمر.

قالها وأطرق رأسه، أمسكه عمر من ذراعيه يهزه ويسأله عما حدث، نظر الطبيب إليه بأسى، وقال بصوت منخفض:

- لقد حاولنا معها، ولكن أمر الله كان نافذًا.

شعر عمر أن الدنيا تدور من حوله، وبدأ يفقد توازنه، أمسكت خلود بمرفقه لتسنده كي لا يسقط، لكنه أفلت ذراعه من يدها واتجه مسرعًا نحو غرفة والدته. هناك، رآها راقدة على سريرها، عيناها مغمضتان في هدوء، وكأنها نائمة، أخذ يهزها بقوة، والدموع تنهمر

من عينيه وهو يصرخ مستغيثًا طالبًا منها أن تستيقظ، كان ذلك حين دخلت وراءه خلود التي أخذت تبكي هي الأخرى، ثم دخل الطبيب قائلًا بأسى:

- لم نترك شيئًا إلا وفعلناه معها.

جذبه عمر من ياقة سترته، وأخذ يصرخ فيه: - كيف ماتت؟! كانت بحالة جيدة أمس، وأنتم أخبرتموني بذلك! كيف ماتت اليوم؟! دفعت لكم مئات الآلاف لتعيش، كيف يحدث هذا في أحد أكبر المستشفيات؟!

حاولت خلود تهدئته، وحالت بينه وبين الطبيب الذي كان مطرقًا في صمت، ترك عمر الطبيب والتفت مجددًا إلى والدته، يصرخ بصوت متهدج:

- استيقظي يا أمي، لا تتركيني وحدي في هذه الدنيا، بدونك أنا لا شيء.

ظل يصرخ هكذا حتى كاد يفقد وعيه، وفي تلك اللحظة، رن هاتفه، كان المتصل أحد المشرفين على ندوته وحفل توقيعه، ردت خلود بدلًا منه، وأبلغتهم بضرورة إلغاء الندوة بسبب وفاة والدته.

جلس عمر على حافة السرير بجوار جثمان والدته، ممسكًا بيدها يقبلها، بينما ذهبت خلود إلى الخزينة لدفع الفاتورة وإنهاء الإجراءات المتبقية. وفي اليوم التالي، تم دفنها، وحرص عمر على إقامة سرادق عزاء كبير في مسجد عمر مكرم، حضر فيه نخبة من أشهر الكتاب والأدباء في الوسط الثقافي، كما لم يغب عن المشهد بعض الفنانين

والمخرجين.

ظل عمر غارقًا في حزنه لأكثر من أسبوع، لم ينطق خلاله إلا بكلمات مُقتضبة، اتصلت خلود بـ"نجلا" تستأذن منها أن يظل معها في تلك الفترة، وأن هذا سيكون في صالحه. كانت نجلا، في قرارة نفسها، تدرك أن عمر يرغب في ذلك أيضًا، لكنه يشعر بالحرج في أن يخبرها بذلك، وبعد لحظة من التردد وافقت على مضض، متجنبة إثارة أي أزمات، خصوصًا في هذا الظرف الحساس.

بعد مرور ثمانية أيام بدأ عمر يستعيد قوته تدريجيًا، شكر حينها خلود على كل شيء فعلته معه، وعن وقوفها بجواره ومساندته:

- ليس بيننا شكر يا عمر، فأنت حبيبي قبل أن تكون زوجي، رحمها الله والدتك وأسكنها فسيح جناته.

- بالمناسبة هي ليست أمي الحقيقية، ولكني أعتبرها أكثر من أم، فهى التى ربتنى واعتنت بى منذ أن كنت أنا وأخى طفلين مشردين في السابعة من عمرنا، حتى أصبحث الكاتب المشهور عمر مدكور.

- أخوك! قالت مشدوهة ثم سألته باستغراب: وأين هو إذًا؟!

- هو توأمي، لكنه مات، ذهب مع أصدقائه إلى مدينة رأس البر، وعادوا من غيره؛ ليخبرونا أنه مات غرقًا، كان ذلك منذ حوالي عشرين عامًا.

- حياتك كلها مليئة بأحداثٍ ومواقف غريبة يا عمر، وهذا لن يزيدني سوى حبًا لك، وفيك.

أمسك يدها، وقبّلها ثم نظر في عينيها، فشعر أن هناك خطبًا ما،

سألها عما تخبئه عنه، أنكرت في البداية، لكن بعد إلحاحه قالت له:

- في أثناء إنهاء بعض الأوراق في المستشفى، سمعت حديثًا غريبًا بين ممرضتين كانتا تتحدثان عن أن والدتك توفيت بسبب إهمال طبي، حاولتُ مواجهتهما بما سمعت، لكنهما أنكرتا، وأخبرتاني أنهما كانتا تتحدثان عن مريضةٍ أخرى!

اعتدل عمر في جلسته سارحًا في كلام خلود لثوانٍ ثم قال لها:

- هيا بنا نذهب إليهم، وسأبلغ الشرطة بذلك.

- لن يفيد يا عمر، لن تصل إلى شيء، سيصرون على موقفهم، ولن تجني سوى المتاعب، وربما يقاضونك، فالأمور لا تُدار بهذه الطريقة، ولا تستبعد أنهما كانتا بالفعل تتحدثان عن مريضةٍ أخرى، المهم الآن أن تستعد لندوة الغد؛ لقد أجلناها أكثر من مرة، وقراؤك ينتظرونك بشغف، وأنت تعلم جيدًا مدى أهمية هذه الندوة، إنها الشيء الوحيد الذي قد يساعدك على الخروج من دوائر أحزانك.

-٣-

في اليوم التالي

مركز اقرأ الثقافي ـ الساعة السابعة مساء

كان ينتظره هناك مدير دار النشر التي تنشر له كل رواياته، إضافة إلى عددٍ من النقاد والصحفيين، والأهم من ذلك عشرات القراء الذين كانوا متلهفين للقائه، وفي منتصف القاعة تنتصب كاميرا ستذيع هذا اللقاء على إحدى القنوات الفضائية، جلس عمر خلف المنضدة التي عليها سبعة ميكروفونات مُبتدرًا كلامه:

- جمهوري العزيز، لن أبدأ كلامي بالديباجة التي حضرتها أمس لألقيها عليكم، بل سأرتجل، فقد قررت أن يكون حديثي لكم اليوم هو أهم حديث يخرج من قلبي إليكم.

سكت قليلًا ليرتب ما سيرتجله، ثم استكمل بعد ثوانٍ:

- منذ نعومة أظافري، كنت أحلم بهذا اليوم، وهذا الموقف تحديدًا طالما داعبني في خيالي، وتمنيت من كل قلبي أن يحدث، الموقف الذي أجلس فيه أمام جمهور مؤمن بي وبموهبتي، ككاتبٍ مشهور ذي سمعة طيبة، هذا الحلم طالما راودني، وطالما بكيث في جنح الظلام مُتمنيًا أن أحققه، وبحمد الله استطعت تحقيقه، بل واستحوذت على جوائز رفيعة في الأدب، وها قد جاء اليوم الذي أعلن فيه خبرًا مهمًا، لكنه ليس سارًا.

سكت لثوانٍ سادت فيها القاعة لحظات من الصمت الثقيل، فتسمّرت العيون عليه، واحتبست الأنفاس انتظارًا لما سيقوله، لكنه

فجأة شعر بوخزة حادة في قلبه، وجال بعينيه الزائغتين في أنحاء القاعة، كأنهما تلاحقان طيفًا غامضًا لا يستطيع إدراكه، وقف مشيرًا بيدٍ مرتعشة نحو الفراغ، فتابعت أنظار الحاضرين ما يشير إليه بيده، لكنهم لم يروا شيئًا، ظل عمر متجمّدًا في مكانه، فاغرًا فمه ووجهه يكسوه الذهول، عيناه مثبتتان نحو الأفق البعيد، انتفضت خلود من مكانها بسرعة، واندفعت نحوه، تسأله بقلقٍ بالغ:

- ما بك يا عمر؟

التفت لها بوجهٍ شاحب: - لا تقلقي يا خلود، أنا بخير.

شعر آنئذٍ أن حلقه متيبس كصحراء قاحلة مجدبة، وهذا ما شعرت به خلود التي فتحت على الفور زجاجة المياه، وصبت له قليلًا من الماء، فشرب بشراهة رجل ظل في الصحراء لشهر كامل دون قطرة ماء، شعر بعدها أنه أفضل، فشكرها واعتذر للحضور، ثم أردف:

- أعتذر... كنت أقول إن الوقت قد حان لأعلن خبرًا مهمًّا، لكنه للأسف ليس سعيدًا، روايتي التي أكتبها الآن، الرواية السابعة... ستكون آخر رواية لي...

علت همهمات الحاضرين، وبدأت النظرات تتبادل بينهم بقلقٍ وحزنٍ واضحين، وقد ارتسم الأسى على وجوههم. لم يمهلهم عمر وقتًا ليغرقوا في تلك المشاعر، وقطع همهماتهم بصوتٍ حاسم:

- أعرف أنكم تشعرون بالحزن من قراري هذا، ولكني تعودت أن أكون صريحًا معكم وشفافًا إلى أبعد حد، لا أخفي عليكم أي سر، ولكني فعلًا تعبت، تعبت بالمعنى الحرفي ليس مجازًا. الكتابة ليست

سهلة، ونسج حبكة لا يشوبها ثغرة ليس بالأمر الهيّن، تأليف قصة وعالم متكامل وخلق شخوص من عدم ليس سهلًا على الإطلاق، كل ذلك كان حملًا زائدًا عليّ وعلى كاهلي وعلى ذهني، كل هذا أرهقني إلى أبعد حد، تعبت، ولا أريد أن يأتي اليوم الذي أشعر فيه أن قلمي قد بدأ ينضب، أريد أن أعتزل الكتابة الآن، وأنا في قمة مجدي، قبل أن يأتي اليوم الذي أكون فيه غير قادر على خلق حبكة تحبس الأنفاس كما عودتكم، لقد رأيث بوادر هذا اليوم لا أخفي عليكم ذلك، رأيته وأنا أكتب روايتي التي أكتبها حاليًا، ولكن بعدما اعتصرت نفسي استطعت أن أجد القصة التي ستخطف لُبّ كل من سيقرأها، استطعت أن أنسج الحبكة التي ستبقيكم جاحظي الأعين طوال قراءتها، وكما عودتكم أن كل رواية لي تكون أعلى من سابقتها، وتتساءلون حينها كيف سيكتب قصة أعظم منها، وبعون الله أفاجئكم بقصة أعظم بالفعل، ولكن بعد تلك الرواية التي سأكتبها حاليًا، روايتي السابعة، أستطيع أن أخبركم أنها ستكون السقف الذي لم ولن أستطيع تجاوزه، ولن يأتي كاتب بعدي يستطيع كتابة رواية أعظم من تلك الرواية التي أكتبها حاليًا؛ فهي الرواية التي أستطيع أن أقول عنها بأريحية "سقف الروايات".

سكت لهُنيهة، وزادت الهمهمات مرة أخرى فقاطعها مُبتسمًا:

- ولكن اطمئنوا، لن أختفي عن الأنظار رغم كل ذلك، سأكون موجودًا ولكن بشكلٍ آخر، سأهتم بأشياءٍ أخرى متعلقة أيضًا بالأدب والكتابة والثقافة، لكني أحتاج إلى الراحة، والتفرغ لأشياء أخرى يجب أن أعطيها المزيد من وقتي - قالها وهو ينظر إلى خلود التي تجلس في الصف الأول وعيناها مغرورقتان - لن يكون عمري القادم

بأي حال أكثر مما فاتني، لذلك أريد أن أتفرغ لأشياء كثيرة كما قلت، منها على سبيل المثال لا الحصر، مكتبتي التي لم أقرأ فيها سوى ألف وسبعمائة كتاب، وما زال هناك أكثر من ألف وخمسمائة كتاب لم أقرأهم بعد. أيضًا أولادي أريد أن أعطيهما المزيد من وقتي واهتمامي، وأريد أيضًا أن أعيش مع شخص أحبه طوال أيامي القادمة، المتبقية من عمري، ولا أعلم بالضبط كم ستكون تلك الأيام.

لقد قلتُ للعالم في رواياتي السابقة خمسة وثمانين بالمائة مما أريد قوله، والخمسة عشر بالمائة الباقية سأقولها في روايتي القادمة، وبذلك، أكون قد أنهيت... وانتهيت من كل ما أريد قوله.

قالها ثم شرع ذراعيه على امتدادهما والابتسامة تعلو وجهه، ابتسامة يشوبها بعض انكسار لم يلاحظه أحد سوى خلود، ثم نهض ليصافح مدير دار النشر، ومندوب وزارة الثقافة الذي أعطاه وسامًا، ثم بدأ يوقع لقرائه النسخ التي معهم، لأكثر من ساعة، حتى بدأ يشعر بالإنهاك، لكنه أصرّ أن يُكمل حتى آخر قارئ، فقد كان حريصًا على أن يختتم حفل التوقيع هذا بأجمل صورة، تلك الصورة التي يريدها أن تبقى دائمًا عالقة في أذهان كل جمهوره ومحبيه، وبعد انتهاء الحفل لاحظ أن صديق عمره، دكتور ماجد العقاد، طبيب القلب المجتهد، ما زال جالسًا ينظر إليه مُبتسمًا، فنهض عمر ونزل من المنصة ليصافحه:

- ما هذه المفاجأة الجميلة يا ماجد، كيف لم ألاحظ وجودك وسط الحاضرين؟! منذ متى وأنت هنا؟

- منذ أن كنت طفلًا صغيرًا تتمنى هذا الموقف.

- افتقدك كثيرًا يا صديقي، لم نتقابل منذ فترة طويلة!

- أنت دائمًا مشغول يا عمر، وأنا أقدر انشغالك، علاوة على أنني أيضًا كنت منشغلًا في عدة أمور وبعض المشكلات.

- هل ما زلت في مشكلات مع أخوك؟

- نعم - قالها وهو يزمّ شفتيه - نعم يا عمر، لا يريد أن يعطيني حقي في الميراث، بل وكذب عليّ وأخبرني أنه لم يكن هناك ميراث أصلًا.

- أعانك الله عليه يا صديقي، لا أعرف كيف ينام شخص، وهو مستحوذ على حقوق غيره، ومِن مَن؟!! أخوه!

كان ذلك حينما انتهيت خلود من التنسيق مع أحد مُعدّين قناة فضائية كبيرة لترتيب لقاء معهم، وأخذت الوسام وحقيبته من المنضدة، ثم انضمّت إليهما، هتف د. ماجد مُبتسمًا:

- دعيني أخمن، أنتِ مدام خلود، دكتور خلود، أليس كذلك؟

ضحكت برقة، وسألته دهشة كيف عرفها، فأجابها:

- في آخر رواية له خصص صفحتين ونصفًا في وصف البطلة، وكيف كان يحبها البطل، كل حرف ذكره في وصف هذه المرأة تنطبق عليكِ، على الأقل ما رأيته منكِ الآن، واهتمامك به، علاوة على عينيكِ السوداوين الواسعتين، وشعرك الأسود الطويل الفاحم.

ضحك عمر قائلًا له: - تخصص القلب جعلك تتقن التركيز في التفاصيل يا ماجد، وهذا ما أحبه فيك، ولكنك نسيت أنني أخبرتك منذ فترة أنني تزوجت.

- ولكنك لم تُرِني صورتها، ولم تخبرني أن تلك التفاصيل التي

ذكرتها في وصف بطلة آخر رواية لك منطبقة تمامًا عليها.

- بل كل ما وصفته، لا يمثل نصف بالمائة منها.

- ما كل هذا الحب! لقد بدأت أغير منكَ، يجب أن أفعل مثلك وأتزوج مرة أخرى.

ضحكوا معًا حتى قاطعتهم خلود قائلة لعمر بنبرة جادة: - بما أن صديقك تخصص قلب، ألم تخبره عما حدث لك يوم وفاة والدتك في أثناء القيادة؟!

نظر إليها عمر متسائلًا وقد نسى ما حدث، بينما سألها دكتور ماجد ماذا تقصد، فأخبرته خلود بالحادثة التي كادت أن تقع نهار هذا اليوم، وعن تلك النغزة التي تباغت قلبه بين الحين والآخر، فسأله ماجد قاطبًا جبينه: - ما قصة هذه النغزة يا عمر؟ وما الذي حدث لك منذ قليل في أثناء الندوة؟ بماذا شعرت؟

حاول عمر التقليل من أهمية الموضوع: - لا شيء، فهي تحب دائمًا أن تهوّل الأمور، الأمر أصغر من ذلك بكثير و..

قاطعته خلود بنبرة حازمة: - لقد أخبرتني أن تلك النغزة قد جاءتك مرتين قبل ذلك، واليوم حينما مررنا من أمام القلعة لاحظت أن عينيك ترفان أيضًا ثم تنهدت، أليس كذلك؟

أضاف ماجد إلى كلامها: - هذا إضافة إلى أنك اليوم قلت إنك تعبت وتشعر بالإرهاق يا عمر، ما بك؟! أخبرني، فأنا لست دكتور ماجد الآن، أنا صديق عمرك.

- أقسم لك أن الأمر هيّن يا ماجد، ولا يستأهل كل ذلك، دعنا من

هذا الكلام الآن، المهم، سنرحل لأنني لديّ مشوار مهم، وسنتقابل قريبًا.

ودّع صديقه، وأخذ خلود ليوصلها إلى بيتها، مُتعمّدًا أن يسلك شارع صلاح سالم، وأن يمر بجوار قلعة صلاح الدين، والتي حينما اقترب منها شعر بنفس ما أحس به من قبل، بينما كانت تراقبه خلود بحذر، حتى شعرت أنه بدأ يدخل في نوبة إعياء:

- من فضلك يا عمر، توقف الآن أرجوك، سأقود أنا، من فضلك توقف.

- حسنًا... حسنًا يا خلود، لا تقلقي عليّ أنا بخير... سأتوقف عند بوابة القلعة بعد خمسين مترًا... سأقوم بمغامرةٍ صغيرة، هل تريدين أن تشاركيني فيها؟ أم أوصلك إلى البيت وأعود لأقوم بها بمفردي؟

- هذا أمر لا جدال فيه، سأشاركك بالطبع، ولكني فقط أريد أن أعرف ماذا ستفعل.

ابتسم لها بصمتٍ دون أن يجيب.

في ذلك اليوم كان يُقام حفل موسيقي للموسيقار عمر خيرت، ضمن حملة دعائية لتعزيز السياحة في القلعة بعد التجديد الذي أجرته وزارة الآثار، أوقف سيارته في مرأب السيارات، اشترى تذكرتين، ثم عبر البوابة الإلكترونية، ومن هناك كان عليهما السير في طريق عبارة عن مطلع شاق بعض الشيء، إذ تفصل بينهما وبين القلعة في الأعلى مسافة تُقدّر بحوالي ثلاثمائة متر، فالقلعة ترتفع عن سطح الأرض ما يقارب أربعين مترًا. في تلك اللحظة، لم تستطع

خلود كبح نفسها، فسألته بنبرة هادئة:

- هل أستطيع أن أسألك يا عمر لماذا نحن هنا؟

لم يجب عليها، مكتفيًا بأن نظر إليها مبتسمًا، فزمت شفتيها وسألته مستطردة:

- هل أنت بخير يا عمر؟!

- نعم بخير... ولكني فعلًا لا أعرف بالضبط لماذا أنا هنا... لكني أشعر بحنين غريب وجارف، ما طبيعة هذا الحنين، لا أعرف... أشعر بأن هناك ذكرى ما تربطني بهذا المكان.

- بالتأكيد حينما اصطحبتك والدتك رحمها الله إلى هنا.

- هل ستتفاجئين لو أخبرتك أن أمي اصطحبتني في طفولتي إلى كل الأماكن التي يجب أن يذهب إليها أيّ طفل... ما عدا تلك القلعة؟... لم آت إلى هنا أبدًا... هذه أول مرة... أو هذا ما أعتقده.

شعرت خلود بالاندهاش وسألته: - إذًا ما السر في كلامك هذا؟!

- ليس لديّ إجابة... على العموم دعينا نستمتع... قالها مُبتسمًا، أمسك يدها واستكملا المسير نحو الأعلى، حينما انعطفا يمينًا وجدا نفسيهما أمام قلعة صلاح الدين المهيبة، والذي زاد من هيبتها نظام الإضاءة الحديث، كان المكان في ذلك الوقت مليئًا بالجمهور الذي حرص على حضور حفل عمر خيرت، ما عدا هو، هو الوحيد الذي لم يكترث بالأمر، انعطف يسارًا دون باقي الجمهور، ومعه خلود التي كانت تجول بداخلها آلاف من علامات الاستفهام، ظل يسير حتى وصل إلى سورٍ حديدي قصير، اجتازه وأمسك بيد خلود ليساعدها

على اجتيازه هي الأخرى، ثم استكملا المسير في ممر شبه مظلم، طوله حوالي خمسة عشر مترًا، حتى وصلا إلى سورٍ شبه مُنهدِم، من خلال هذا المكان الذي يقفان فيه يستطيعان أن يشاهدا جبل المقطم بالكامل، وأيضًا طريق صلاح سالم ومسجد السيدة عائشة "رضي الله عنها"، أشار لها عمر أن تبقى في مكانها دون أن تتحرك، وظل ينظر للسور بعينين شاخصتين، وقد قرر في داخله أن يقترب منه، تردد في البداية لكنه اقترب منه بالفعل.

- ما الذي لفت انتباهك في هذا المكان يا عمر؟ سألته خلود، فيما اقترب عمر من السور بحذرٍ شديدٍ دون أن يجيبها، حتى أصبح أمامه مباشرة، نظر من خلاله إلى الأسفل، فوجد أن المسافة بينه وبين الأرض حوالي خمسة وعشرين مترًا، مسافة كافية لموت أي شخص يقفز من هذا المكان! شعر حينها برغبةٍ عارمة في القفز، في الوقت نفسه الذي هاجمه فيه صداع شديد، فأمسك رأسه ضاغطًا عليها بيديه بكل قوته، اقتربت منه خلود وجذبته إلى الوراء، ثم جثا على ركبتيه، سألته خلود التي بدا عليها القلق:

- ما بك يا عمر؟ من فضلك لا تقلقني عليك.

- لا شيء يا خلود...

قالها وكان العرق يتصبب على جبهته وظهره، كان ذلك حين فاجأهما أحد أفراد الشرطة يسألهما بطريقة جافة: - ما الذي تفعلانه هنا؟ من فضلكما أرياني بطاقات هوياتكما.

أخرجا البطاقات وأخذ يتفحصها فيما، قالت له خلود:

- هذا عمر مدكور، كاتب روائي وأديب مشهور، وقد شعر ببعض الصداع من الزحام، فاقترحت عليه أن نبتعد قليلًا عن هذا الزحام حتى يتعافى من هذا الصداع.

أعطاهما بطاقات الهوية قائلًا لها بخشونة: - أنا لا أعرف كُتابًا ولا أدباء، هذا المكان الذي أنتما فيه محظور على أي شخص أن يجتازه، من فضلكما اخرجا الآن قبل أن أحرر لكما محضرًا و...

قاطعه عمر الذي بدأ يكون بخير نوعًا ما: - نحن نعتذر لك يا حضرة الضابط، أنت على حق.

أخذت منه خلود بطاقات الهوية، ثم أمسك عمر يدها واتجها إلى بوابة الخروج:

- ألم نستكمل المسير إلى الأعلى لنحضر حفل عمر خيرت؟

هز لها رأسه نافيًا، واتجه مسرعًا نحو سيارته، وحينما جلس أمام عجلة القيادة طلب من خلود أن تعطيه قرص "كيتوبريك" ليقضي على هذا الصداع، ففعلت. بعدما ابتلع القرص بقليل من الماء انطلق نحو منزلها، وحين وصلا قبّلها قبلة ساخنة ليودعها:

- لا أعرف كيف سأنتظر خمسة أيام أخرى كي أعود مجددًا إلى حضنك يا خلود، ولكنك لن تغيبي عن بالي إلى أن أراكِ ثانية، إن احتجتِ أي شيء اتصلي بي على الفور.

- سأتصل بك كل يوم كي أطمئن عليك، وأطمئن على روايتك القادمة.

- شكرًا لكِ يا خلود على مساندتك لي على اجتياز الفترة التي

عشتها بعد وفاة أمي... وشكرًا على مشاركتك جنوني وأفعالي اللامنطقية... وشكرًا على...

قاطعته بأن وضعت سبابتها على شفتيه: - لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام مرة أخرى، ليس بيني وبينك أي شكر، أو أي شيء من هذا القبيل، كن بخير دائمًا يا حبيبي.

أومأ لها برأسه ثم قبّلها قبلة أخرى قبل أن يتوجه إلى بيته، وصعدث هي إلى منزلها، فوجدت أمام باب شقتها قطة نائمة، امتعضت حينها، ثم فتحت الباب ودخلت فوجدت ابنتها دينا جالسة على الأريكة تنتظرها، وقد لاحظت على ملامح وجهها أنها تريد أن تقول شيئًا، سألتها أمها ما بها، فلم ترد عليها، أعادت عليها السؤال، فأجابتها:

- أريد أن أسافر إلى إيطاليا في عطلة الصيف القادمة يا أمي.

- لقد قلت لكِ سابقًا إنني أرفض ذلك رفضًا قاطعًا، أنا أخاف عليكِ يا حبيبتي، فقد فقدت أختك من قبل، ومنذ ذلك الحين وأنا قلبي يعتصر عليها، وليس عندي أي استعداد أن أفقدك مثلها، لا أعلم ماذا قد يحدث لكِ هناك.

- هل حقًا حزينة على أختي؟ شيء عجيب! رغم أنني لا ألاحظ ذلك، وأجدك سعيدة مع عمر ولا شيء يعكر عليكِ صفو حياتك.

اغرورقت عينا خلود قائلة لها: - لا تزايدي عليّ يا دينا، فأنتِ لا تعلمين شيئًا عن حزني القابع داخل صدري، لا تعلمين شيئًا عن البكاء الذي يلازمني كل ليلة طوال الليل، تنامين في غرفتك بينما

أنا مستيقظة ممسكة بصورها أنظر إليها وأبكي، لا تتحدثي طالما لا تعلمين شيئًا، فأنتِ لا تعي حجم الجهد الذي أبذله كي أقف هكذا أمامك سعيدة ويبدو عليّ الصمود.

أطرقت دينا، وقد أحسّت أنها تجاوزت الحدود، فيما تابعت خلود بنبرة مُتهدجة:

- عمر الذي تتحدثين عنه بهذه الطريقة غير اللائقة، هو نفسه من فعل لأجلك ما لم يفعله لكِ والدك، وهذا باعترافك الشخصي، وقد قلتِ بنفسك إنه كان له دور كبير في إعادة بناء حياتنا، رغم أنه لم يكن مُجبرًا على ذلك؛ فأنا بالنسبة له لست سوى زوجة ثانية، امرأة من بين مئات النساء اللواتي يتمنين أن يكنّ بجواره، لكن الله يحبنا وأراد أن يعوضنا، فأرسله لي ولكِ أيضًا، وملأ قلبه بالرحمة تجاهنا، فأصبح مأوانا وملجأنا.

شعرت الابنة بالخجل وسكتت لهوانٍ، جثت أمها على ركبتيها منهارةً في البكاء، فأقبلت عليها ابنتها كي تهدئ من روعها قليلًا، وأخذتها في حضنها، ظلت تعتذر لها حتى توقفت قليلًا عن البكاء. كان ذلك حين سمعتا صوت طرقٍ على باب الشقة. اتجهت دينا نحو الباب، ونظرت عبر العين السحرية فلم تجد أحدًا، سألتها أمها من الطارق، فأخبرتها دينا أنها لم ترَ أحدًا، وما إن ابتعدت عن الباب حتى سمعت طرقًا مرة أخرى، فتحت بسرعة، فوجدت قطة تدخل الشقة راكضةً متجهة نحو خلود التي نهضت منتفضة خوفًا من أن تخدشها. أمسكت دينا عصا البيسبول وهُرعت وراءها، قائلةً لأمها أن تحترس؛ لأن هذه القطة مسعورة غالبًا، صرخت خلود وأمسكت

مطفأة السجائر وألقتها عليها، لكنها لم تصبها، اختبأت القطة وراء الكرسي، طاردتها دينا حتى ضربتها على ظهرها، فصرخت القطة قبل أن تهرع نحو الباب هاربةً. ألقت عليها دينا عصا البيسبول فأصابتها في ظهرها مرة أخرى، وأصدرت مواءً مخيفًا وخرجت من الشقة، فأغلقت دينا الباب بسرعة، بينما اتصلت خلود بحارس العقار، ووبّخته على وجود قطط مسعورة في سلم العمارة، وطلبت منه أن يصعد ليطرد أي قطة يجدها، ثم جلست لتلتقط أنفاسها، واقتربت منها دينا لتهدئ من روعها:

- تلك القطة نفسها التي كانت واقفة أمام باب الشقة حينما جاء عمر إلى هنا. قالت خلود.

- لا تكترثي بالأمر يا أمي، سأضع طعامًا مسمومًا أمام باب الشقة وننتهي من ذلك الأمر.. المهم.

سكتت قليلًا لتزدرد لعابها، تقاوم صوتها الداخلي الذي يحثها على إخبار أمها ما تريده، وهذا ما شعرت به خلود التي قالت لها، وهي تزم شفتيها:

- حسنًا يا دينا، دعيني أفكر في أمر سفرك هذا، وأسأل عن كافة الجوانب، وإن وجدتُ الأمر آمنًا لكِ سأوافق على سفرك.

-٤-

دخل عمر بيته بعدما أعاد شحن روحه بالطاقة الإيجابية، مستعدًا لتفريغها تدريجيًا طوال أيام هذا الأسبوع، فوجد نجلا جالسة في غرفة المعيشة مع صديقتها حسناء التي تنحنحت ونهضت متوترة، لأنها تعرف جيدًا ما سيفعله عمر. رمقهما بنظرة جافة دون أن يتفوّه بكلمة، لكن ملامح وجهه كانت تترجم تأففه، استأذنت حسناء لتذهب، فألحّت عليها نجلا أن تجلس قليلًا، لكن حسناء أصرت.

- سنعوضها في وقتٍ لاحق، ادخلي إلى زوجك الآن، وأدعو الله أن يهدئ سركما.

قالتها وغادرت، بينما دخلت نجلا غرفة النوم، فوجدث عمر يبدل ملابسه في شرود، صاحت فيه:

- لماذا تصر على إحراجي أمام صديقتي؟ كان يجب عليك أن تُلقي السلام على الأقل.

- أنا لا أكترث بإحراجك أو إحراجها أصلًا، الأجدر بأن يكون مُحرجًا من نفسه هو أنتِ؛ لأنك خالفتِ ما طلبته منك سابقًا. أمسكها من ذراعها بقوة مُستطردًا: - كم مرة قلت لكِ لا تتواصلي مع هذه الحرباءة مرة أخرى؟ كم مرة قلت لكِ إنني لا أرتاح لها ولا أريدها أن تدخل بيتي؟

ردت عليه وهي تتألم: - إنها صديقتي منذ الطفولة - جذبت ذراعها وأفلتتها من قبضته - ثم إنني طوال اليوم أجلس في هذا البيت وحيدة.

- وحيدة رغم وجود سما وإياد؟!

أطلق ضحكة متهكمًا، ثم استطرد:

- يا لكِ من امرأة فاشلة.

- لن أرد عليك، ولن أعلق على هذه الكلمة.

- أنا الذي لن يرد عليكِ، لقد عدتُ إلى النكد والهم والغم - رفع لها سبابة متصلبة - لن أعطيكِ الفرصة لتنكدي عليّ.

قالها ودخل غرفة مكتبه، فتح اللاب توب، والتمعت عيناه حين فتح ملفًا مخفيًا، يحتوي على معظم مغامراته النسائية، عدة فيديوهات له مع الناقدة الأدبية نهال عزام، وفيديوهات أخرى مع مضيفة، ومذيعة معروفة تدعى إسراء شبل، وعدة كاتبات أخريات، فقد كان حريصًا على أن يوثق كل اللحظات الخاصة التي بينه وبينهن، يضع هاتفه فوق أي منضدة ويضبطه على وضع التصوير حين يمارس معهن العلاقة، لم يفعل ذلك خلسة أو دون علمهن، بل يخبرهن أنه سيفعل ذلك، ولم يجد من أغلبهن أيّ اعتراض، وبعد الانتهاء يعيد تشغيل الفيديو ويشاهدانه معًا، وينتهي الأمر على هذا النحو، يذهب بعدها إلى بيته، ويحفظ الفيديو في هذا الملف الذي يحتوي على أكثر من أربعين فيديو، مارس فيهم الجنس مع سبع عشرة سيدة.

يحب أن يفتح هذا الملف بين الحين والآخر ليشاهد بعض الفيديوهات التي يتذكرها مُبتسمًا، فخورًا بنفسه، وبمغامراته التي خاضها وعاشها.

كان ذلك حين دخلت نجلا فجأة، فأغلق كل شيء، ثم فتح ملف روايته الجديدة، كل هذا في أقل من ثانية، رمقث نجلا الشاشة فوجدتها مفتوحة على الرواية، أطرقت رأسها، وقالت له:

- أعتذر لك يا عمر، لقد فكرت في كلامك ووجدت أنك على حق، وأنا المخطئة.

نهض مبتسمًا لها وضمها إلى صدره:

- شكرًا على تفهمك يا نجلا، فوالله لم أقصد أن أبعدك عن أصدقائك، ولكني لا أرتاح لتلك المرأة الملعونة، هذا كل ما في الأمر.

- وأنا أثق في رأيك ورؤيتك يا حبيبي!

شعر أن لديها شيئًا آخر تريد أن تقوله، فهز لها رأسه مُبتسمًا، ففطنت أنه شعر بذلك:

- نعم لديّ طلب وأرجوك أن توافق، سوف أذهب صباح الغد إلى والدي، لأنني أفتقده جدًا و...

قاطعها بلطف وهو يمسك يدها ويقبلها: - ذهابك إلى والدك لا يحتاج إلى تبرير أو سبب، اذهبي.

- سأعود قبل أن يعود سما وإياد من رحلة العين السخنة.

- لا مانع يا نجلا، أهم شيء ألا تتأخري عن الساعة العاشرة مساء، قبل أن أعود من اتحاد الكتاب.

صباح اليوم التالي

استيقظ عمر مُتحسسًا بيده فلم يجد نجلا بجواره، سمع حينها

صوت انهمار الماء في الحمام، أمسك هاتفه والتمعت عيناه حين وجد ردًا على رسالة قد أرسلها لإحداهن في الليل، نهض ودلف غرفة أولاده فلم يجدهما، فأيقن أنهما ذهبا إلى رحلة العين السخنة، دخل المطبخ وغسل وجهه قبل أن يُعد لنفسه كوب قهوة احتساها مع سيجارة، ثم ارتدى ملابسه، كان ذلك حين خرجت نجلا من الحمام مرتدية بشكيرًا تلفه على جسدها. سألته أين سيذهب، فأخبرها أنه سيذهب لإنهاء بعض الأوراق المهمة في النقابة العامة لاتحاد الكتاب، شعرت أنه يكذب عليها، وأنه سيذهب إلى خلود، لكنه أقسم لها أنه لن يفعل ذلك، فاطمئن قلبها، ودخلت غرفة النوم لترتدي ملابسها وتذهب إلى والدها، لثم شفتيها، ثم أخذ مفاتيحه ونزل قبلها قاصدًا مقهى بجوار البيت، جلس فيه قرابة نصف ساعة ليتأكد تمامًا أنها قد غادرت الشقة، رن هاتفه حينها فأجاب:

- اشتقت إليكِ بشكل لا تتخيلينه يا حسناء.

- وأنا أيضًا يا عمر، هل نجلا غادرت المنزل أم ما زالت هناك؟

رمق ساعته ثم أجابها: من المؤكد أنها رحلت، قابليني تحت العمارة بعد ربع ساعة.

نهض بعدما ارتشف ما تبقى في فنجانه، وذهب لينتظرها تحت العمارة، فوصلت بعد عشر دقائق بالفعل، وصعدا معًا، وما إن دخلا وأغلق الباب، حتى ارتمت في حضنه باشتياقٍ قائلة:

- لا تتخيل كم كنت مشتاقة إليك يا عمر، لم أرك منذ شهرين، قالتها بغضبٍ مُصطنع وهي تضربه على صدره لائمة، فضمها مرة أخرى إلى صدره معتذرًا لها، شعر في تلك اللحظة بنفس ما شعر به في أثناء

الندوة، وأن هناك خيالات تمر من أمامه، وأن الصورة أمام عينيه شبيهة بما يراه الإنسان خلف ألسنة النار اللاهبة، في الوقت نفسه شعر بنغزةٍ قوية في قلبه، وضع يده على صدره وجلس على الأريكة مطرقًا رأسه، سارحًا فيما يشعر به، سألته حسناء بقلق:

- ما بك يا عمر؟ هل أخذت قرصين من الفياجرا دفعة واحدة، وأثر ذلك على قلبك؟ قالت ساخرة، فنظر إليها قائلًا:

- من الذي خدعك وأخبرك أنني أتناول تلك الأشياء؟! الفياجرا يأخذها الرجال الذين خرجوا من الخدمة، أما أنا فما زلت في ريعان شبابي وعنفواني وفحولتي رغم الأربعين عامًا!

هو يعرف جيدًا في قرارة نفسه أنه يكذب عليها، لكنه لم يكذب بشكلٍ كامل، فهو لم يتناول قرصين مثلما قالت، بل قرص واحد فقط! نهض وحملها ثم دخل بها إلى غرفة مكتبه، فرد الكنبة لتصبح سريرًا، اقتربت منه حسناء وأخذت تقبله، بينما انتزع ملابسها قطعة تلو الأخرى باشتياقٍ بالغ، ضربته مرة أخرى على صدره لكن هذه المرة بقوة:

- ما هذا الذي أخبرتني به نجلا أمس يا عمر؟ لقد مر وقت طويل، ومازالت هذه الحرباءة التي تُدعى خلود على ذمتك، وقد وعدتني أنك سوف تطلقها سريعًا.

- يا حسناء، لقد أخبرتك آخر مرة أنني أعيش معها شفقة على حالها بعدما حدث لابنتها، الموضوع إنساني ليس إلا، ثم إنني مندهش بصراحة، لماذا تريدينني أن أطلقها؟ هل سنتزوج بعدها مثلًا؟

- الأمر ليس كذلك، ولكن لا أطيق اقترابك من نجلا، كيف سأطيق اقترابك من امرأة أخرى غيرها؟

- ومن قال لكِ إنني أقترب من نجلا أو أفعل معها شيئًا.

- هي، هي التي أخبرتني أنك تفعل ذلك معها كل ليلة تقريبًا. قالتها مبتعدة عنه، وقد بدا على وجهها العبوس، فأمسكها من رسغها وجذبها إليه:

- هل سنقضي الوقت القليل الذي نملكه في العتاب والكلام الذي لا طائل منه؟ لقد قلت لكِ إنني أفتقدك جدًا، ومهما فعلتُ ذلك مع ألف امرأة، لا أشعر بأي متعة إلا معك.

حاولت النهوض مرة أخرى بغنج، لكنه أمسكها من يديها وأحكم سيطرته عليها.

-٥-

في اليوم التالي

جزء من خبر فى جريدة الثقافة المصرية بعنوان "فضيحة الكاتب اللص"

... وبعد أن راجعنا رواية الكاتب عمر مدكور مع رواية الكاتب الراحل فتحي دربالة، وجدنا أنها بالفعل مسروقة منه، وكل ما فعله عمر هو أنه أعاد صياغة أسماء الأبطال وبعض المشاهد لتتناسب مع روايته، والتى كانت أول رواية نُشرت له.

والجدير بالذكر أنه بعد قليل من البحث، قد اكتشفنا أيضًا أن تلك الواقعة ليست السرقة الوحيدة له، بل أيضًا في روايته الثانية، قد سرق حبكتها من رواية للكاتب نفسه، بل كل رواياته أخذت من روايات الكاتب فتحي دربالة، والذي نشر رواياته تلك في حقبة الستينيات، لكنها للأسف لم تحظ بأي انتشار، الأمر الذي استغله الكاتب السارق عمر مدكور، وسطا على روايات الكاتب الذي رحل عن عالمنا في التسعينيات...

في اليوم نفسه... مجلة اقرأ الثقافية

... وقد ناشد عشرات الكتاب بمحاكمة الكاتب عمر مدكور "مع اعتذارنا على كلمة كاتب"، إضافة إلى محاكمة القائمين على الجوائز الأدبية التي مُنِحت له، والتي يجب أن تسحب منه، بل وأيضًا...

منشور على منصة فيس بوك

مكنتش أتصور أبدًا أن عمر مدكور يطلع حرامي :D لأ ولحد دلوقت مسكوا أربع روايات سارقهم ولسة ياما في الجراب يا حاوي...

#الكاتب_الحرامي

أحد التعليقات على المنشور السابق

لأ وأنا كنت بقول عليه أفضل كاتب قرأت له، أقسم بالله ندمانة على الفلوس اللي اشتريت بيها رواياته

منشور آخر على منصة X

بيقولوا إن عمر مدكور حرامي الروايات دلوقت هربان ومش عارف يروح فين

#الكاتب_اللص #الكاتب_الحرامي #سارق_الروايات

هذا، إضافة إلى عشرات الفيديوهات على منصة اليوتيوب، لـ"بوكتيوبرز" ونقاد كثيرين، قد تناولوا الموضوع الأكثر اشتعالًا، حديث الساعة، وهو اكتشاف سرقات عمر مدكور، الذي يجلس الآن في مكتبه بعد أن أغلقه على نفسه ليتابع كل ما يُنشر ضده، وقد رن هاتفه أكثر من مائة مرة، مكالمات من كل معارفه، ومن دار النشر، ومن خلود التي تتابع هي الأخرى بقلقٍ بالغ، كل ما يُنشر ضده، كان يُثقِلها الخوف الشديد عليه، فهي تعرف جيدًا أنه لن يستطيع تحمُّل ذلك، حاولت الاتصال به عدة مرات، لكنه لم يرد على مكالماتها ولا على أيّ مكالمات بشكلٍ عام، يجلس مطرقًا رأسه يفكر في تلك المصيبة التي حلّت به، يفكر في كيفية الخروج منها، يفكر في الرد المناسب على كل تلك الاتهامات.

بدأت رسائل الشتائم والاستهجان تنهال عليه سواء على واتساب أو الفيسبوك، وما زال هاتفه يرن، حتى لمح اسم الناقدة الأدبية نهال عزام، رد عليها بصوتٍ مرتعش:

- نعم يا نهال؟

- ما هذه المصيبة التي حلّت علينا يا عمر؟ تصرّف... افعل شيئًا.. لقد استدعوني في اتحاد الكتاب ليحققوا معي... تصرّف أرجوك.

- كيف أتصرّف؟! أقسم بالله أنني لم أسرق من أي أحد.. أعرف أن لا أحد سيصدقني... ولكن لا أعرف ماذا أفعل.

- زوجي يجلس في مكتبه الآن، يكتب مقالًا طويلًا عنك، سوف يهاجمك فيه.

- والعمل إذن؟ ما هو أنسب شيء يمكنني فعله الآن؟ أنا لم أسرق أي...

قاطعته بحدة: - أنا لا أصدقك ... لو كان الأمر متعلقًا برواية أو روايتين، كنت سأقول إن هناك توارد أفكار وخواطر، لكن ست روايات يا عمر... مأخوذ حبكتهم من حبكات هذا الكاتب... كيف أصدقك؟ أنسب شيء هو أن تخرج للناس، وتعتذر على الملأ عما فعلته، وقل إنك على استعداد أن تتقبل أيّ عقاب.

- اعتذاري معناه أنني أعترف بما فعلت.

- ليس أمامك سوى الاعتراف، أي شيء آخر سيكون عبثًا.

- لقد انتهيت يا نهال... لقد انتهيت وانتهى مستقبلي.

شعر حينها بنغزةٍ قويةٍ في قلبه، أغلق المكالمة وفتح النافذة استجداء لأي نسمة هواء تلطف من اختناقه، رن هاتفه وكان المتصل خلود، أجابها بكلمتين:

- خلود، لن أستطيع التحدث معك الآن.

- لا تقلق يا حبيبي، فلو كان العالم كله ضدك، سأكون أنا الوحيدة التي معك وفي صفك.

- شكرًا ... اتركيني الآن... اتركيني من فضلك، أريد التفكير على مهل.

أغلق الهاتف بيدٍ مرتعشة ووضعه على مكتبه، في الوقت نفسه الذي طرقت فيه نجلا باب مكتبه، شعر حينها أنه لم يستطع التنفس، وبدأ العالم من حوله يتحول إلى لونٍ قاتم، فتح الباب فوجد نجلا واقفة وبجوارها ابنته سما التي تبكي، بدأت صورتهما تتلاشى أمام عينيه، وسقط على الأرض غائبًا عن الوعى، فصرخت ابنته حينها، وانحنت مُمسكة برأسه التي اصطدمت بقوة على الأرض حين سقط، حاولت بمساعدة أمها أن تحملاه وتضعاه على السرير، قبل أن تمسك نجلا بهاتفها لتتصل بدكتور ماجد العقاد، والذي حضر على الفور وكشف عليه، فوجد أن دقات قلبه ضعيفة، كتب أسماء بعض الحقن والأدوية فى روشتة وأعطاها لابنه إياد الذى ذهب بسرعة ليحضرها، ولم تمر أكثر من عشر دقائق حتى أعطاه ماجد حقنة بدأ بعدها نبضه ينتظم نوعًا ما، لكنه ما زال غائبًا عن الوعي، خرج من الغرفة فوجد زوجته وابنته تقفان في الخارج، وقد بدا على وجوههما القلق، سألته نجلا عن حالته، فأجابها:

- لقد علمت بما حدث له، أعرف أن الأمر جلل، ولكن حاولوا أن تبعدوه عن متابعة أيّ مستجدات في هذا الشأن، على الأقل اليومين القادمين، أيضًا التغذية مهمة جدًا يا نجلا، يجب أن يأكل جيدًا، ولكن ابتعدى عن أيّ غذاء به كوليسترول؛ لأن قلبه مُجهَد.

بعدما رحل دكتور ماجد دخلت نجلا المطبخ، وهي تبكي، لتعد له وجبة غداء، ولم تمر أكثر من ساعة حتى أصبحت جاهزة، دخلت سما غرفة والدها فوجدته مُتعرقًا ويغطّ في نوم عميق، يتمتم بشفتين مرتعشتين بعض الكلمات: "لا تحاسبوني" "اتركوني" "لم أسرق أحدًا... صدقوني".

بكت بحرقة لرؤيته هكذا، التقطت منديلًا وأخذت تمسح العرق المتفصد على جبهته ورقبته، في الوقت نفسه الذي دخلت فيه نجلا بصينية بها دجاجة مسلوقة مع مرقة وشوربة خضار، فتح عينيه حينها، فبكت هي الأخرى حين رأته هكذا، وقد كان أمس بحالٍ مُختلف تمامًا عن الحال التي عليها الآن، قبلته في جبهته:

- لا تعط الحزن فرصة لينال منك يا حبيبي، كل شيء سوف يصير على ما يرام، الموضوع كله مُشتعل الآن، لكنه سيخبو ويخفت في غضون يومين ليس أكثر، لا تدع الحزن ينال منك.

جلست ابنته بجواره لترفع رأسه من الأسفل كي تطعمه نجلا في فمه، هز عمر رأسه وأغلق شفتيه رافضًا الأكل، فقالت له نجلا:

- لا يا عمر، ليس من الحكمة أن تمتنع عن الأكل.

- اتركوني، لا أريد أن آكل. قال بصوتٍ متهدج، فألحت عليه: - هذه

ليست إلا مرقًا يا عمر، أرجوك اشرب ولو ملعقتين مع قطعة لحم، كي تتقوّت وتجتاز تلك المرحلة الخطرة.

أغمض عينيه مُستسلمًا لهما، وضعت نجلا المرق في فمه فابتلعه على مضض، لم يتناول سوى أربع ملاعق وبالكاد ازدرد قطعة صغيرة من الدجاج، ثم أغلق فمه رافضًا رفضًا قاطعًا أن يتناول أي شيء آخر، ثم أغلقت عليه الغرفة بعد أن قبلت يده، وخرجت لتغلق هاتفه الذي لم يتوقف عن الرن منذ الصباح.

في المساء

دخلت نجلا غرفته لتوقظه، ففتح عينيه حوالي دقيقتين من محاولتها إيقاظه، وضعت الترمومتر تحت إبطه فوجدت درجة حرارته ارتفعت وقد تعدت الأربعين درجة، وبدأ يدخل في نوبة هذيان، أعطته قليلًا من الحساء، ثم أغلقت عليه الغرفة وخرجت، في الوقت نفسه الذي زادت فيه الأخبار عنه وعن سرقاته الأدبية، وبدأ النقاد والمتصيدون في إلقاء الضوء على نقاط التشابه بين روايات عمر مدكور وفتحي دربالة، بل ووصل الأمر إلى أن بعض القراء قلبوا الدنيا عاليها أسفلها حتى حصلوا على نسخ من روايات الكاتب فتحي دربالة، ولندرة تلك الروايات؛ لأنها لم تأخذ حقها الكامل في حقبة الستينيات، سحبوها ضوئيًا وأصبحت متاحة على الإنترنت بشكلٍ مجاني، كي يستطيع أي أحد - وبمجهودٍ بسيطٍ - أن يدرك مدى التشابه الذي وصل إلى حد التطابق بين الروايات.

في اليوم التالي

دخلت نجلا غرفته فوجدته مُستيقظًا يرتعش ويهذي بكلماتٍ غير

مفهومة، دفعت قدميه وأزاحتها جانبًا بقوة كي تفسح لنفسها مكانًا تجلس فيه على حافة السرير لتصبح قبالته مباشرة، شخصت عينيها على ملامح وجهه لأكثر من دقيقة قبل أن تقول له بوجهٍ يحمل ملامح الانتقام:

- معظم الوقت كنت تُهمّشني يا عمر، لم تترك شيئًا يجعلني مسخة أمام الناس إلا وفعلته، ألغيت شخصيتي تمامًا، تزوجت عليّ دون حتى أن تترك لي الخيار لأن أرفض، أو حتى لحفظ ماء وجه تلك الزوجة المكلومة، لا أنكر أنك أعطيتني خمسة أيام في الأسبوع، لكني لا أراك فيهم سوى خمس دقائق.

فتح عمر عينيه ثم سرعان ما سبلهما، ولم تمر ثوان حتى فتحهما من جديد، لم يكن في كامل استيعابه وهي تتكلم، وهي تعرف أن معظم ما ستتفوه به لن يدركه باستيعاب كامل، لكنها رغم ذلك وجدت أنها يجب أن تقوله كي تشفي غليلها الكامن بداخل صدرها، فأردفت:

- حتى عندما ماتت والدتك، فضّلتها عليّ وقضيت معها أكثر من أسبوع، بعد ذلك ذهبت معها إلى حفل توقيعك، اصطحبتها معك ولم تصطحبني أنا! ليس هذا وحسب، بل حينما عدت إلى هنا، تشاجرت معي! أطلقت ضحكة ساخرة، ثم استكملت كلامها مبتسمة:

- يا لك من رجلٍ فاجرا!

التقطت منديلًا وجففت عرقه المتصبب على رقبته وجبهته، ثم استكملت مُبتسمة بالنبرة الهادئة نفسها، وكأنها تتحدث معه في شيء عادي:

- لم تترك أي صديقة إلا وخنتني معها، حتى حسناء، أقرب صديقة لي، طالما رجوتك ألا تخونني معها، وألا تجعلني نموذج سخرية في نظرها، لكن بلا جدوى، حتى هي أيضًا رجوتها ألا تستميل لك ولا تضعف أمامك، والقذرة أقسمت لي أن هذا لم ولن يحدث إطلاقًا، لكنها كلبة مثلك تمامًا، والكلب دائمًا ما يبحث عن كلبة مثله، يفعل معها ما يحلو له على قارعة الطريق، لم تترك أي فرصة تجعلني فيها امرأة مُهمّشة، مُهشّمة، دون أن تستغلها.

نهضت باكية ووقفت أمامه شاخصة كتمثال رخامي، مُردفة بسهمٍ آخر على مسامعه:

- لقد مرّت عليّ ليال كثيرة كنت أبكي فيها، في الوقت نفسه الذي كنت فيه مع خلود أو أي امرأة أخرى، تسهر وتسكر وتفعل كل ما يحلو لك! لقد حوّلتني من امرأة رومانسية، وزوجة مُسالمة إلى امرأة قاتلة، تقتل حبيبها، أو الذي كان حبيبها، بفنٍ وإتقان.

نظرتْ إلى عينيه الزائغتين، والتي بدأت تنظر إلى جهة ما دون أن تتحرك، وقد امتقع وجهه أكثر وأكثر وتحوّلت شفتاه إلى اللون الأزرق، فاستكملت بعينين مغرورقتين:

- كنت أتمنى ألا ترى غيري يا عمر، كنت أتمنى ألا تفعل معي ما فعلته، كنت أتمنى ألا تُجبرني على أن أكون سببًا في هدمك وموتك، أعرفك جيدًا لأنني أحببتك، إن حلمك الذي طالما بنيته طوال حياتك، هو أن تجعل اسمك يعيش خالدًا لامعًا براقًا بعدما تموت، لذلك كنت حريصة على أن أجعل اسم عمر مدكور قذرًا قبل أن تقابل الله. استمتع يا عمر بالجحيم في الآخرة، وهنيئًا لاسمك المتسخ

الفلوّث في الدنيا.

حاول أن يلتقط أنفاسه لكنه فشل، ووجد صعوبة كبيرة في إبقاء عينيه مفتوحتين، أردفت حينها نجلا وهي تميل برأسها، وتبتسم ابتسامة منكسرة:

- لقد استعنت بالطريقة الغامضة المبتكرة التي ذكرتها في إحدى رواياتك، والتي تقتل ببطء دون معرفة السبب، فيسهل إقناع أي شخص أنك متّ بسكتة قلبية، اذهب يا عمر... اذهب غير مأسوف عليك.

في تلك اللحظة

في تلك اللحظة بالتحديد، قد بدأ العد التنازلي، ولم يتبق أمامه سوى ثانية واحدة فقط قبل أن يغمض عينيه ويتوقف النبض في عروقه، شعر حينئذٍ باليقظة التامة في تلك الثانية، بالنسبة لأي شخص عاديّ هى ثانية فقط ليس إلا، لكنها بالنسبة إليه كانت مُدتها طويلة، طويلة جدًا لدرجة أنه شعر أنها قابلة للتجزئة لمائة جزء، رأى حياته كلها تمر أمام ناظريه بالتصوير البطيء في تلك الثانية، أو بالأحرى الأحداث المُهمة فقط والجديرة باستدعاء الذاكرة لها، ابتسم حينها متأسيًا عشرات المرات، بينما بكى بحرقة مئات، بل آلاف المرات، وما زالت الثانية تمر عليه، تحدث إلى نفسه حينها:

"ما هذا الذي يحدث لي؟! أنا الكاتب عمر عبد الحي مدكور، هذه النهاية ليست مناسبة لي، ولم أتمناها في أحلك كوابيسي، ولم أتوقعها في أسوأ سيناريو، لقد كنت حريصًا طوال الوقت أن أنهي حياتي بطريقة تليق بي، على الأقل من وجهة نظري..."

ابتسم ابتسامة مُنكسرة وهزَّ رأسه في أسى دون أن يحركها، مُستطردًا بعض الحوارات المُتفرِّقة التي تدور بداخله، وما زال داخل الثانية نفسها، لم تمر بأكملها عليه:

"كيف علِمتْ أنني خُنتها مع حسناء؟!" ... "كنت أريد أن تنتهي حياتي بشكلٍ مُشرِّف" ... "كنت أنوي أيضًا ترك فيديو لقرائي ومتابعيني، يُنشر لهم في صفحاتي بعد وفاتي، يشاهدونه فيبكون.. يشاركونه في صفحاتهم وينتشر، ويحصد ملايين المشاهدات؛ لأصبح تريند لفترةٍ ليست قليلة.. كان يجب أن يحدث هذا" ... "ما هو مصير الفيديوهات التي على حاسوبي؟!!" ... "الموت ليس صعبًا مثلما صدعوا رؤوسنا" ... "ما الخطأ الذي ارتكبته في حياتي؟ ما الجرم الذي اقترفته حينما كنت في الدنيا؟!" .... "هل سيُخَلَّد اسمي بعدما أموت؟ بالطبع لا... لن يُخَلَّد للأسف" ... "ما الذي فعلتُه لكِ يا نجلا كي تفعلي ذلك معي؟ لا أنكر أنني أسأتُ إليكِ لكنني أحببتك، ولم أستأهل منك ذلك" ... "لم أكن سوى ورقة واحدة في تاريخ الأدب والثقافة، بل سطر، أو بالأحرى جملة قصيرة سوف تكون نسيًا منسيًّا" ..."ماذا سيكون رد فعل خلود حينما تعرف أنني فارقت الحياة؟!"...

رأى حينها كتبه ورواياته مكدسة في أكوامٍ أمام المكتبات، يتهافت عليها قراؤه من كل حدب وصوب، يحملون مشاعل، ويحرقونها وهم يضحكون. في الوقت نفسه الذي لمح فيه حصانًا يقف أعلى ربوة يصهل بصوتٍ عالٍ، تحت أقدامه أنهار من الدماء التي تسيل من الآماق. وعلى مقربة منه، كان رجلٌ واقفًا أمام مشنقة، يبتسم

للجلاد، ويقول له: "اعمل شغلك"، مرّ بجانبه كلبٌ ضال ينبح بقوة، بينما اقتربت منه قطة تصدر مواءً مخيفًا. كان ذلك على بُعد أمتار من رجل يرتدي عمامة وقفطانًا، ينبش في حفرة خلف جدار مائل. حينها، اقتربت خلود، ترتدي فستانًا ساحرًا، وفي يدها فرشاة رسم، ومدت له يدها الأخرى... فابتسم.

وانتهت الثانية!

أسبل عينيه بهدوءٍ ليغرق في بحر الخواء، اقتربت منه ووضعت أذنها على صدره، فلم تسمع أي نبض، ظلت تبكي وتئن بجواره لمدة تقارب خمس عشرة دقيقة، قبل أن تتنهد تنهيدة طويلة، وتنهض لتتصل بالدكتور ماجد، لتخبره وهي تبكي أن زوجها به خطب ما، وطلبت منه الحضور، فحضر على الفور، وبعد الكشف عليه، أخبرها متأسيًا أنه مات، تظاهرت بالحزن، وانحنت بجذعها على جسده تهزه، وتصرخ بأعلى صوتها، في اللحظة نفسها التي دخل فيها سما وإياد المنزل، فور علمهما بما حدث لوالدهما، انفجرا في البكاء بحرقة، ولم تمضِ نصف ساعة حتى انتشر الخبر في كل وسائل التواصل الاجتماعي. بعض القراء ترحموا عليه وشعروا ببعض الأسى، بينما شعر آخرون بالشفقة على ما مر به في أيامه الأخيرة، لكن الأغلبية شمتوا به، رافضين حتى الترحم عليه أو ذكره بكلمة طيبة، وبين هؤلاء وأولئك، اشتعلت النقاشات الحادة، واندلعت مشاجرات واتهامات متبادلة.

قرأت دينا، ابنة خلود، الخبر على فيس بوك، شعرت بأسى بالغ، كانت أمها حينئذٍ تغط في نومٍ عميق؛ لأنها كانت طوال الليل ساهرة

تفكر في طريقة لخروج عمر من هذا المأزق، وقضت الليل كله في إجراء عدة اتصالات ببعض أعضاء اتحاد الكتاب والصحفيين كي يساندوه حتى لو كان المقابل مئات الآلاف، دخلت دينا غرفة والدتها، وهى تفكر كيف ستخبرها بهذا الأمر الجلل، اقتربت منها فوجدت عينيها رغم أنهما مغمضتين لكنها لمحت فيهما آثار دموع منذ ليلة الأمس، وضعت يدها برفقٍ على كتفها فانتفضت فجأة مفزوعة، تقابلت عيناها بعيني ابنتها التي لم تقل أي كلمة، بكت فقط، اعتدلت خلود في جلستها ذاهلة العينين تسألها لماذا تبكي، فأخبرتها دينا أن عمر قد مات، لم تصدر خلود أي كلمة آنئذٍ، تيبس الدم داخل عروقها، ثم غابت عن الوعي، اتصلت دينا على الفور بطوارئ المستشفى التي تعمل فيها أمها، فأرسلوا إليها سيارة كانت تقف تحت بيتهما بعد ربع ساعة فقط، أخذها المسعفون إلى المستشفى، وهناك تم تشخيص حالتها بأنها أصيبت بجلطة في القلب، تم عمل اللازم، ثم أودعوها في غرفة العناية المركزة.

في منزل عمر مدكور

جاء طبيب الصحة في حضور دكتور ماجد، كشف عليه، ثم غطى وجهه قبل أن يكتب لهم تصريح الدفن، في الوقت نفسه الذي حضر فيه والد نجلا الذي بدأ يتابع إجراءات الدفن، وإقامة سرادق العزاء وما إلى ذلك، في حين دخلت سما بعدما غادر الطبيب، وجلست بجوار جثمان والدها تنتحب، مُتذكرة مواقف كثيرة مرت بينهما.

كان ذلك حين دخل إياد غرفة مكتب والده، وأخذ يجول بناظريه بعينين لامعتين، والذي طالما كان يريد تفحصه واكتشاف ما بداخله،

لكن والده كان يمنعه من ذلك، وكان يمنع أيّ شخص من دخوله والمكوث فيه طويلًا، فتح اللاب توب الخاص به لكنه اكتشف أنه مَحمي بكلمة سر، شعر حينها أن الوقت ليس مناسبًا لمحاولة فتحه، أو لفعل أي شيء سوى الحزن والبكاء، فخرج ناويًا في قرارة نفسه أن يعود إليه في الوقت المناسب، والذي لن يتأخر كثيرًا.

أما نجلا، التي تنفست الصعداء بعد رحيل طبيب الصحة، فحافظت طوال الوقت على أن تبدو كأنها الزوجة المقهورة من الحزن على وفاة زوجها، كي لا يشك أحد في موته، واستطاعت أن تمثل الدور بحرفية ممثلة ماهرة مُتمرسة، لدرجة أن كل من حولها كانوا يهدؤونها مُشفقين عليها، كان ذلك حين حضرت حسناء لتواسيها، فقابلتها نجلا بوجهٍ غير الذي اعتادت عليه منها من قبل، ولم تمد لها يدها لتصافحها، سألتها حسناء باستغراب عن سبب تلك المعاملة، فاقتربت منها نجلا قائلة بصوتٍ خافت:

- حافظي على كرامتك من أن تُبعثر أمام الناس، وغادري الآن دون أن تتفوهي بأي كلمة، وابقي في بيتك حتى أتفرغ لكِ، اذهبي الآن.

شعرت حسناء بقشعريرة سرت في كامل جسدها، حاولت أن تتكلم لتفهم منها ماذا حدث أو ما سبب ما تقوله، لكن نجلا وضعت إصبعها على شفتيها قائلة لها بالنبرة نفسها:

- هل تريدين اختبار صبري أيتها العاهرة؟ حسنًا، أمامك دقيقة واحدة فقط كي تختفي من أمامي، بعد ذلك لا تلوميني على ما سأفعله. قالتها ثم وَلّت وجهها إلى الناحية الأخرى، لم تمر أكثر من ثانيتين حتى نهضت حسناء وغادرت دون أن تتفوه بكلمة.

اقترح والد نجلا أن تكون الصلاة عليه في المسجد المجاور بعد صلاة العصر، على أن يكون الدفن بعدها مباشرة، وهذا ما تم بالفعل. لم يصلِّ عليه إلا القليل، حتى السيارة التي حملت نعشه متجهة إلى مقابر إحدى الجمعيات الخيريّة، ذهبت في هدوء بالغ، ولم تسر وراءها أيّ سيارات أخرى، عكس ما كان يتوقعه عمر مدكور الذي كان يتخيل يوم وفاته أنه سوف يكون يومًا مهيبًا، غير عادي، ووقت دفنه سيتزاحم القراء والصحفيون والكتاب والأدباء، لكن ما حدث له قبل وفاته كان السبب الرئيس؛ لأن تكون لحظة دفنه لا يحضرها سوى أسرته الصغيرة فقط، إضافة إلى والد نجلا ودكتور ماجد. حينما أنزلوا نعشه أمام القبر أقبل عليهم شيخ يسكن المقابر، ليقرأ ما تيسر له من آيات القرآن الكريم في أثناء الدفن، لكن نجلا أشارت له بعدم موافقتها قبل أن تعطيه "بقشيشًا" ليرحل، اقتربت منها سما - التي امتقع وجهها، وذبلت عيناها من كثرة البكاء - وقالت لها بصوتٍ خافت:

- كان أبي قد أبلغني ذات مرة أنه قد اشترى قبرًا جديدًا في مدينة السادس من أكتوبر يا أمي، لماذا لم ندفنه هناك؟

أجابتها بنبرة جافة: - لقد كان يكذب عليكِ، لم يشترِ شيئًا، ولم يترك لنا شيئًا، لذلك قررنا دفنه هنا في مقابر الوفاء والأمل.

حضر الثرَبي حاملًا معه مفتاح القبر قائلًا لهم بصوتٍ محشرج:

- من فضلكم ابتعدوا قليلًا من المقبرة حينما أفتحها؛ لأن بداخلها جثمان قد أودعناه بالأمس، ولن تتحمّلوا الرائحة حينما نفتحها.

فعلوا ما طلبه منهم، وبالفعل، ما إن أخذ تصريح الدفن من دكتور

ماجد وفتح القبر حتى هبّت رائحة كريهة، وقف الثرَبي في الأسفل لعدة ثوان، ثم نظر إليهم مندهشًا:

- من الذي سيناولني جثمان المرحوم؟

قال له ماجد، والذي كان مُنهارًا من البكاء:

- سوف أحمله أنا وأناولك إياه.

حمل ماجد جثمان عمر من ناحية قدميه، ثم رمق إياد الذي كان واقفًا بتعبيراتٍ متجمدة دون أن يصدر منه أيّ رد فعل واضح.

- ما بك يا إياد؟! هل ستظل واقفًا متسمّرًا هكذا؟ ساعدني في حمل جثمان والدك.

فأقبل عليه إياد مرتبكًا، وحمل جثمان والده من ناحية رأسه، ثم ناولاه للتربي، بينما انهارت سما في البكاء، ولم تحتمل رؤية والدها هكذا، وهو يرقد في مثواه الأخير، أما نجلا فقد تظاهرت بالحزن، فاقترب منها والدها واحتضنها، كان ذلك في الوقت نفسه الذي التقط فيه الثرَبي جثمان عمر مدكور منهما، ووضعه بجوار آخر جثمان رقد في القبر نفسه، ثم عدل من وضعيته ليصبح راقدًا على جانبه الأيمن قبل أن يفك الشريطة المربوطة أعلى كفنه من ناحية رأسه، وخرج ليغلق القبر مرة أخرى.

-٦-

صباح اليوم التالي...

استيقظ إياد على صوت بكاء أخته سما، التي لم تنم منذ أمس سوى دقائق معدودة. كلما نامت، تستيقظ مفزوعة على كوابيس مخيفة، فنهرها أخوها:

- لم أستطع النوم بسبب بكائك، اخرجي من الغرفة وابكي كما تشائين.

- أنا مستغربة جدًا من رد فعلك، لماذا لم تبكِ ولم أرك متأثرًا قط؟! ألم يكن هذا الذي مات والدك مثلما هو والدي؟! سألته وهي تكفكف مجرى لا ينقطع من الدموع، فأجابها متهكمًا:

- ومن قال لكِ إنني لست حزينًا؟ بالطبع أنا حزين، ونعم أعرف أنه والدي، من هذا الذي يفقد والده ولا يشعر بالحزن عليه؟ لقد فقدت كلبي العام الماضي وحزنت عليه، فكيف لا أحزن على والدي؟

نهضت منفعلة: - كيف تجرؤ على تشبيه فقدانك لكلبك بفقدانك لبابا؟ هل جننت؟!

- أنا لم أقل شيئًا، أنا فقط أصف لكِ ما يدور في خاطري، ولا تنسي أن والدك هذا الذى تدافعين عنه مات تاركًا لنا إرثًا من العار والسمعة السيئة، بعد أن عرف العالم كله أن رواياته مسروقة. هل تعلمين أنني أحمل همّ اليوم الذي سأذهب فيه إلى الجامعة؟ حينما أتقدم لخطبة فتاة وأهلها يعلمون أنني ابن سارق الروايات، هل تظنين أنهم سيوافقون عليّ؟!

- مهما بدر منه هو في الآخر والدنا...

- وأنتِ في النهاية ابنة اللص، سارق الروايات. عمومًا أنا لن أدخل معكِ في نقاشات - ألقى عليها الوسادة - بل سأترك لكِ الغرفة بالكامل، وأنام في غرفة أخرى.

قالها ودخل غرفة مكتب والده، وأغلق على نفسه من الداخل، أخذ نفسًا عميقًا وجال بعينين ملتمعتين في أنحاء الغرفة التي كانت أحد جدرانها عبارة عن أرفف لمكتبة كبيرة، تحتوي على كتبٍ قيّمة ونادرة، وفي الواجهة كان مكتبه وفوقه اللاب توب، جلس إياد على الكرسي، وظل مُشخصًا نظره عليه، يفكر كيف سيفتحه رغمًا عن كلمة السر، غير أنه حاول أكثر من مرة لكنه فشل، ظل يفكر في حل لتلك المعضلة، حتى اهتدى بتفكيره أن يغيّر نسخة الويندوز بأكملها، ومن ثم يستطيع فتح الجهاز بسهولة، وبالفعل غيّر النسخة، وكان الجهاز أمامه مفتوحًا بعد ساعةٍ تقريبًا، شعر حينها بفرحةٍ عارمة، وبدأ يفحص الجهاز ملفًا ملفًا، من حيث مساحته وما يحتويه.

"من المؤكد أن هناك أشياء كثيرة كان يخبئها المرحوم" هكذا قال في قرارة نفسه.

وجد ملف يُسمى "أعمالي الأدبية" أطلق حينها ضحكة ساخرة بجانب فمه وفتحه، لم يجد بداخله سوى المسودات النهائية لرواياته، خرج منه واستكمل فحص باقي الملفات، فلفت انتباهه وجود مساحة كبيرة مخفية في القرص الصلب، ووجد أن هناك ملفات مخفية، ضبط الحاسوب على إظهار تلك الملفات المخفية، ثم دخل المطبخ ليعد كوب قهوة كي يبحث في اللاب توب بتمعن

وتركيز عال. فسمع باب الشقة يُفتح، ووالدته تدخل.

- أين كنتِ يا أمي؟!

- كنت في النقابة العامة لاتحاد الكتاب، أسألهم عن معاش والدك، فأخبروني أنه ليس له معاش، وأنهم شطبوه من اتحاد الكتاب في اليوم نفسه الذي مات فيه.

- شطبوه؟! لماذا؟! سألها مستغربًا.

- وهل هذا سؤال يحتاج إلى إجابة؟

- عندكِ حق؛ فالإجابة معروفة، سامحه الله على ما فعله في حقنا.

كان ذلك حين خرجت سما من غرفتها، فاستطرد إياد: - حسنًا، لا بأس. عمومًا لا تقلقي يا أمي؛ فأنا الآن كبرت وسوف أتصرف.

ردت عليه نجلا بحسم وهي ترفع سبابتها: - أنا المسئولة الآن عنكما، ولا أحتاج إلى أي شيء سوى أن تتخرجا وتعملا في وظائف مرموقة، أولًا: كي تمحيا تلك الصورة التي سوف تلازمكما بسبب والدكما لفترة ليس قليلة، ثانيًا: كي تعوضاني عن الأيام السوداء التي عشتها معه، وقد تحمّلت تلك الأيام بسببكما، فلا تجعلا أحدًا يشمت بي أو بنا على وجه العموم.

هزت لها سما رأسها بالموافقة، وهي تزم شفتيها، في حين بدأت القهوة في الغليان، فأطفأ إياد الموقد، ثم صبها وهو يقول لأمه: - لا تقلقي يا أمي.

أخذ فنجان القهوة واتجه نحو غرفة مكتب والده، سألته أمه ماذا

يفعل بالداخل، فأجابها محاولًا إخفاء أي ارتباك قد يبدو على وجهه:

- أعيد ترتيب غرفة المكتب لتكون الغرفة الخاصة بي فيما بعد؛ لأنه لم يعد من اللائق أن أظل طوال العمر في الغرفة نفسها مع سما، فهي فتاة، ولديها خصوصية يجب احترامها، وأنا أيضًا أصبحت شابًا ولديّ خصوصيتي.

أومأت أمه برأسها ودخلت غرفتها، بينما أغلق على نفسه من الداخل مرة أخرى ليستكمل استكشاف دهاليز اللاب توب، وفحص كل الملفات المخفيّة، وكان عددها مائة وثلاثة وخمسين ملفًا، أخذ يفتحهم بالترتيب، حتى وصل إلى الملف الذي يحتوي على الفيديوهات التي كانت بين والده والسيدات اللائي كن معه، تسارعت دقات قلبه حينها حتى كاد يخرج من بين ضلوعه، لاحظ أن كل فيديو مُسمى باسم السيدة التي معه، وهناك سيدات لهن أكثر من فيديو، فتح بعض الفيديوهات، فلاحظ أن هناك سيدات يعرف أسماءهن، منهن مثلًا الناقدة نهال عزام، والمذيعة إسراء شبل، والتي حين شاهد الفيديو الخاص بها نهض فاغرًا فاه وصاح: "يا لحظك يا أبي... ما كل هذا الجمال!... إسراء شبل!"، شاهد أيضًا فيديو للكاتبة بسمة ناجي التي أدارت إحدى ندواته من قبل. وضع تلك الفيديوهات في ملف خاص، ثم نقله إلى فلاش ميموري، بعد ذلك التقط ورقة كتب فيها: "التواصل أولًا مع السيدات اللائي تعرّفت عليهن".

- "هذا الملف فقط تقدر قيمته بمليون جنيه على الأقل" قالها في قرارة نفسه، ثم وضع باقي الفيديوهات في ملف آخر، ناويًا في

قرارة نفسه أن يتفرغ لها فيما بعد.

من بين ملفات الـ WORD الكثيرة لفت انتباهه ملف صيغته EXCEL ، لم يتعجل لفتحه قبل أن يفحص كل ملفات الـ WORD أولًا، وكان عددهم ثلاثمائة ملف، قضى حوالي ساعة ونصف في فحصهم فلم يجد فيهم شيئًا ذا قيمة تُذكَر، مقارنة بالخير الذي وجده من قبل، فوضعهم في ملف وكتب عليه: "سأعيد فحص تلك الملفات مرة أخرى على مهل" ثم فتح ملف الـ EXCEL ، وما إن فتحه حتى قفز مبتهجًا حتى كاد يصطدم بسقف الغرفة، فقد كان هذا الملف يحتوى على كلمات السر وتفاصيل دخول حسابات والده على منصات التواصل الاجتماعي، أهم تلك الحسابات كان حساب اليوتيوب، والذي كان يدر عليه شهريًا حوالي خمسمائة دولار من الفيديوهات المباشرة التي كان يبثها، علاوة على حساب الفيسبوك، والذي فتحه وولج مباشرة الرسائل الخاصة، والتي اكتشف فيها كنزًا آخر لا يقل قيمته عن قيمة الفيديوهات.

وكلما يدخل على محادثة بينه وبين امرأة من معجبات والده يكتشف أسرارًا وصورًا ومواعدات وما إلى ذلك. مرت عليه ساعتان تقريبًا ولم ينته من كل المحادثات، بدأ حينها يربط بين أسماء السيدات في المحادثات والأسماء المعنون بها الفيديوهات، واستطاع الربط بينهما، فالتقط حينها الورقة، وكتب فيها أسماء السيدات التي سوف يتواصل معهن لابتزازهن بتلك المحادثات والفيديوهات، والتي لاحظ من بينها بضعة فيديوهات ليست معنونة بأسماء، فضحك ساخرًا: - أشعر بك يا أبي، بالتأكيد حينما نقلت تلك الفيديوهات على الحاسوب لم يكن لديك وقت لتسميتها بأسماء

عاهراتك، لكني سأعرفهن لا تقلق.

فتح عدة فيديوهات، لم يتعرف على أي سيدة منهن، حتى جحظت عينيه حينما شاهد حلم حياته، المرأة التي طالما داعبت أحلامه، والتي طالما تمنى أن يضع يده عليها فقط.

ألا وهي...

حسناء

-٧-

لم تحتمل سما الجلوس في البيت، فارتدت ملابسها وذهبت إلى الكلية، رغم أنها لم تكن لديها أية محاضرات في ذلك اليوم، لكنها شعرت أنها لو جلست دقيقة واحدة بين جدران غرفتها سوف تصاب بالاكتئاب، قابلت هناك صديقتها المقربة، والتي شعرت أنها ليست على ما يرام، فأخذتها في حضنها وربتت على كتفها، لم تستطع سما مقاومة دموعها التي انهمرت فجأة كشلال:

- يا ليتني مت قبل أن أرى هذا اليوم، أنتِ لا تعرفين كم كنت أحبه، أنا الوحيدة التي كان يسمح لها دخول غرفته، لم أشعر بأي حنان يضاهي الحنان الذي كان يغرقني فيه، لا أستطيع الحياة بدونه وأفكر جديًا في الانتحار.

- ما هذا الذي تقولينه، هل جننتِ؟! لن أقول لك أن الذي ينتحر يموت كافرًا أو شيئًا من هذا القبيل، لأنني لست مُتدينة أصلًا، ولكن اسألي نفسك، لو كان والدك معنا الآن، وسمع منك هذا الهراء، هل تعتقدين أنه كان سيبتهج بكلامك هذا؟!

- هو ليس معنا الآن، وهذا سبب رغبتي في الانتحار، على الأقل حينما أموت سوف أقابله هناك.

- هناك؟! أين؟! سألتها صديقتها بنبرة ساخرة.

فأجابتها سما وهي تبكي: - في العالم الآخر.

- عالم آخر؟! قالتها مُتهكمة وهي تطلق ضحكة باستهزاء ثم استطردت: - ليس هناك عالم آخر يا سما، ما إن يموت الإنسان حتى

يُدفَن ويتحلل وينتهي الأمر عند هذه النقطة.

نهضت سما غاضبة: - ما هذا الكلام الذي تقولينه، هل جننتِ.

نهضت صديقتها هي الأخرى محاولة إصلاح ما قالته، لكنها زادت الطين بلة: - آسفة يا سما، لا أقصد بكلامي هذا أن أجرحك أو أحبط تفكيرك بأنك ستقابلينه مرة أخرى، لكن هذه قناعاتي، وأنا متأكدة أنها صحيحة، فالروح حينما تخرج من الجسد ينتهي كل شيء و...

بدأ كلام صديقتها يخفت ويخبو شيئًا فشيئًا حينما رأت والدها أمامها عاقدًا يديه، يقف مُبتسمًا على بعد أمتار منها، مُرتديًا بدلة بيضاء، وقد بدا وسيمًا أكثر من أي وقتٍ مضى، صاحت سما حينها وهي تمد له يدها: - أبي.. حبيبي..

ثم أقبلت عليه لَهفَى، حتى أصبحت أمامه مباشرة: - هل سمعت ما قالته تلك المخبولة؟ من فضلك رد عليها وأخبرها أنها خاطئة..

كان هذا على مرأى ومسمع صديقتها التي رأتها، وهي تتحدث إلى اللاشيء، فأشفقت عليها مما هي فيه.

- سما، يجب عليكِ العودة إلى بيتك، أنتِ لست بخير.

- أنا بخير لا تقلقي عليّ. قالتها وقد بدا على وجهها الإعياء، لمحت صديقتها العرق يقطر على جبينها، وليست قادرة على الوقوف.

- حسنًا، دعيني أوصلك بسيارتي إلى بيتك، لن أستطيع تركك هكذا.

بعد عدة محاولات لرفض سما، رضخت في النهاية لكلام صديقتها

التي أصرت أن توصلها بنفسها، وفي الطريق بدأت حالتها تسوء أكثر، فأعطتها عبوة عصير كي تمدها بقليلٍ من الطاقة حتى تصل إلى البيت، وساندتها حتى صعدت ورنت جرس الباب، وما إن فتحت نجلا حتى صرخت حينما رأت ابنتها هكذا. فقالت لها صديقتها:

- لا تقلقي عليها يا طنط نجلا، هي بخير، لكنها تشعر ببعض الإعياء، حاولت إقناعها ألا تخرج من البيت هذه الأيام لكنها لم تقتنع بكلامي.

أمسكت نجلا بيدها ورافقتها حتى غرفتها ومدّت جسدها على السرير، ثم شكرت صديقتها التي عرضت عليها أن تبقى معها إلى المساء، لكن نجلا شكرتها مرة أخرى وأخبرتها أنها سوف تستدعي طبيبًا، وتظل بجوارها.

***

في الوقت نفسه

كان د. ماجد العقاد في غرفته مُمسِكًا بتقرير آخر تلقيح صناعي أجراه هو وزوجته عزة، والذي كانت نتيجته الفشل للمرة الثالثة، وبينما كانت زوجته تجلس بجواره مطرقة وتبكي، أخذها في حضنه محاولًا تهدئتها:

- لماذا تبكي يا حبيبتي؟ قلت لكِ مائة مرة أن موضوع الإنجاب هذا لا يهمني كثيرًا، وكل محاولات التلقيح الصناعي تلك وافقتك عليها فقط لأنني أحبك، ولكني لا أريد أولادًا، أريدك أنتِ فقط، ومكتفٍ بك في هذه الدنيا.

- أعرف أنك تحبني يا ماجد، ولكني أشعر بالعجز لأنني لا أستطيع

إنجاب أطفال لك، أنا أيضًا أحبك وأريد أن أسعدك.

- وجودك بجواري هو الذي يسعدني، فقط وجودك.

- ولكني أراك دائمًا عبوس الوجه، وتحمل همًا كبيرًا على كاهلك بسبب هذا الموضوع.

- ليس بسبب موضوع الإنجاب أقسم لكِ يا عزة، بل بسبب الميراث الذي سلبه مني أخي، أشعر بالعجز كلما أتذكر أن لي حقوقًا، ولا أستطيع الحصول عليها. أنا متأكد أن السبائك معه، وحجة البيت أيضًا، لقد رأيتها في خزينة والدي قبل وفاته بسبعة أو ثمانية أشهر. كانوا عشرين سبيكة، كل سبيكة تزن نصف كيلو، نصيبي منهم لا يقل عن سبع سبائك، ثمنهم في هذه الأيام ملايين، أستطيع أن أغير حياتي كلها من خلالهم، من هذا الذي يرضى بأن أظل طوال عمري طبيبًا في مستشفى، ولا أمتلك سوى عيادة بائسة!

- رغم أنك واحد من أمهر أطباء القلب في مصر، لا أعلم كيف يفعل أخوك هذا!

- الجشِع الطمّاع، لقد أخبرني أن والده باعهم، يُكذّب عيني الكلب.

قطع حوارهما هاتفه الذي رن، فوجد أن المتصل نجلا، شعر بالقلق حينها وأجابها مرتابًا فقالت له، وقد بدا على صوتها الانهيار:

- أعتذر لك يا دكتور ماجد ولكني..

قاطعها: - ما بك يا نجلا أخبريني؟

- سما ابنتي في حالة سيئة، ولا أعرف ماذا بها.

- حسنًا، اهدئي، سأحضر حالًا.

قالها وارتدى ملابسه في عجالة، وكان هناك بعد نصف ساعة، كشف عليها فوجد أنها تحتاج إلى طبيب مخ وأعصاب، فأمسك هاتفه قائلًا لنجلا:

- لا تقلقي عليها، هي فقط تعاني انهيارًا عصبيًا طفيفًا، سأتصل بصديق لي يعتبر من أمهر الأطباء في هذا التخصص.

لم تمر أكثر من نصف ساعة أخرى حتى حضر صديقه، وفحص سما قبل أن يكتب لها بعض الأدوية، ثم أعطاها حقنة مهدئة، وأغمضت عينيها مُستسلمة لمفعول الحقنة، وبعدما انصرف الطبيب واطمئن ماجد عليها، استأذنها:

- سأذهب أنا الآن يا نجلا، وسوف أتصل بكِ للاطمئنان عل...

قاطعته: كيف ستذهب هكذا يا ماجد دون أن أقدم لك شيئًا، تفضل اجلس، سأعد لك القهوة في دقائق.

لفت انتباهه نطقها باسمه دون ألقاب، فقال لها وهو يزدرد ريقه: - لا شكرًا - نظر في ساعته - لدي موعد مهم.

- لن أؤخرك، تفضل اجلس.

دخلت المطبخ لتعد له القهوة، ثم عادت إليه وقدمتها له، كان ذلك في الوقت نفسه الذي خرج فيه إياد من غرفة والده، مُرتديًا ملابسه، فوجد والدته جالسة مع دكتور ماجد، صافحه في عجالة، ثم طلب من والدته هاتفها ليجري مكالمة مهمة لزميله؛ لأن رصيده نفد، فأعطته الهاتف ثم استكملت كلامها بشكلٍ رسميّ:

- لا أعرف كيف أشكرك يا دكتور ماجد، أعتذر لك لأنني...

قاطعها: - لا تقولي أي شيء أرجوكِ، فليس بيننا أي شكر أو اعتذار أو أي شيء من هذا القبيل، أنت لا تعلمين كيف كان عمر بالنسبة لي، رحمة الله عليه.

- هاتف زميلي مغلق. قال إياد متأففًا ثم أعاد إلى والدته هاتفها وأخبرها أنه سوف يذهب لصديقه، فاستأذنهما وخرج، بينما استطردت نجلا التي ناولت ماجد فنجان القهوة، مُتعمِّدة مُلامسة أناملها بإصبعه: - وهو أيضًا كان يُحبك جدًا.

سرت قشعريرة في بدنه حينها وحاول تمالك نفسه، فأردفت نجلا كلامها:

- ومن الذي لا يستطيع أن يراك ولا يحبك، فأنت رجل نادر، وأعرف ذلك منذ أن كنا جيرانًا قبلما نتزوج و...

قاطعها: - لا يجب أن نتحدث عن أي شيء مضى يا نجلا...

ساد الصمت بينهما لثوانٍ ثم شكرها مرتبكًا، تلاقت حينها عيناه بعينيها فزاد ارتباكه وتوتره أكثر، ارتشف رشفتين مُتتاليتين من فنجان القهوة قبل أن ينهض مستأذنًا:

- إن احتجتِ أي شيء لا تترددي في الاتصال بي. قالها وقد تقطر العرق على ظهره ورحل.

-٨-

حينما أمسك إياد بهاتف والدته لم يكن بداعي الاتصال بزميله، بل لأخذ رقم هاتف حسناء الذي حفظه عن ظهر قلب، ثم نزل واتصل بها، لم يكن رقمه مُسجلًا لديها، لكنها علمت عن طريق برنامج "تروكولر" أنه إياد عمر، لم تجب عليه في المرة الأولى، لكنه أعاد الاتصال مرة أخرى، ظنت حينها أن المتصل نجلا، فأجابت كي تعرف ما سبب انقلابها عليها أمس:

- أهلًا نجلا...

- أنا إياد... كيف حالك؟

ذُهشت حسناء حينها: - ما بك يا إياد؟ هل والدتك بخير؟

- نعم، بخير.

- وما سبب اتصالك إذًا؟

- سأخبرك بكل شيء، هل أستطيع مقابلتك الآن؟

سألته مستغربة ما السبب، فأخبرها أن الأمر مهم جدًا وسريٌ ولا يحتمل التأجيل، شعرت حينها بارتباك، ودار في عقلها عدة سيناريوهات، ليس من بينها أي سيناريو يبعث في روحها الطمأنينة.

- حسنًا، سأقابلك غدًا في وسط البلد و...

قاطعها بلهجةٍ آمرة: لا، سأقابلك الآن، في بيتك.

شعرت حينها بغصةٍ في حلقها وسألته: - ما الأمر يا إياد، يُستحسن

أن تخبرني بشكلٍ مباشر.

- سأخبرك بكل شيء، هل معك أحد في بيتك الآن؟ أنا أعلم أن زوجك مسافر.

- نعم، وسوف يحضر مساء اليوم.

- إذن سآتي إليكِ الآن.

قالها ثم أغلق المكالمة دون حتى أن يسمع ردها، وكان أمام باب شقتها يرن الجرس بعد ربع ساعة، فتحت له ودخل دون استئذان كأنه بيته، سألته ما سبب طريقة كلامه الغريبة تلك، لم يتفوّه بأي كلمة، مُكتفيًا بفتح هاتفه وعرض الفيديو عليها، شعرت حينما شاهدته بأن الدنيا تلف بها، تسمّرَت مكانها وتيبّست عروقها، وكادت أن تسقط لولا أن أمسك بمرفقها وساندها حتى جلست على أقرب كرسي، وما زالت شاخصة بصرها إلى لا شيء، لا تدري ماذا تقول، فأى كلمة قد تتفوّه بها سوف تكون حماقة لن تغيّر فى الأمر شيئًا، بينما جلس أمامها واثقًا في نفسه، يتفرس وجهها مُستمتعًا برؤيتها هكذا على هذه الحال، مانحًا لها كل الوقت الذي تريده حتى تخرج من صدمتها بسلام، فظلت هكذا لحوالي دقيقتين قبل أن تلتفت له قائلة الكلمة الوحيدة المناسبة في مثل هذا الموقف:

- طلباتك، ماذا تريد؟

لمح حينها علبة سيجار كوبي فاخرة على المنضدة بجوارها ولاعة ذهبية، فتح العلبة والتقط منها سيجارًا وأشعله بالولاعة الذهبية، ظل يسعل حينها فأطفأه وهو يسبّه، ثم قال لها بتبجح:

- أتدرين يا حسناء كم تمنيت أن تأتي هذه اللحظة التي أكون فيها أنا وأنتِ بمفردنا؟ وكلما أتخيل ذلك أعي أن هذا لم ولن يحدث، ولكني أشكر الله أن هذا الفيديو وقع في يدي، وليس في يد أي شخص آخر، لأنه لو حصل عليه أحد غيري بالتأكيد سيكون في يد زوجك بعدها بدقائق.

سكت قليلًا يتفرس وجهها أكثر، ثم أردف وهو يغمز لها: - ولكني لن أفعل ذلك، فأنتِ حبيبتي، وتعلمين جيدًا أنني أريدك.

أدركت جيدًا إلى ماذا يرمي، سكتت لحوالي نصف دقيقة مُحاولة استيعاب الأمر، في البداية، أي أول عشر ثوانٍ، لم تستطع استساغة فكرة أن تكون مع شاب كان صبيًا منذ أيام، كانت تحمله بالأمس حينما كان رضيعًا، لكنها تعلم جيدًا أنها لا تملك أي خيار آخر، ولن تستطيع التقاط السكين الذي بجوارها وتغرزه في رقبته؛ لأنها أضعف من أن تفعل ذلك، إضافة إلى أنها ليست مستعدة لدخول السجن ولا لحبل المشنقة، وبرغم ذلك لن تسلم من الفضيحة، حينها لن تجني شيئًا سوى حبل المشنقة والفضيحة، وطالما لا تملك رفاهية الامتناع أو حتى المقاومة، وطالما أن هذا سينجيها من الفضيحة، فالأفضل أن تستمع لنداء العقل، وتستمتع بالفكرة، قائلة لنفسها ألا مانع من أن تجرب برضاها عنفوان شهوة جامحة لشاب صغير، واستطاعت إقناع نفسها بذلك، فهزت رأسها موافقة، نهض حينها متهللًا كطفلٍ صغير حصل على شيء ثمين للتوّ، وتلك كانت المرة الأولى التي يسبر فيها أغوار جسد المرأة في الحقيقة، وليس في الأفلام التي يشاهدها في المواقع الإباحية!

***

كانت خلود مسجاة على سريرها في المستشفى كورقة شجر يابسة في ذروة فصل الخريف، حينما استفاقت وعادت إلى وعيها، قضت خمس الثواني الأولى تحاول استيعاب أين هي، وتدعو الله في قرارة نفسها ألا يكون كل ما رأته في غيبوبتها حقيقيًا، وأن ما أخبرتها به ابنتها لم يكن سوى جزء من كابوس، لكنها سرعان ما أيقنت أنها في مستشفى، وأن كل شيء حقيقي، وأن عمر مات، حبيبها، الرجل الذي أحال حياتها من سوادٍ إلى ألوان، وفقدان ابنتها الذى أجهز على جزء كبير منها، وعاشت بعده تدعو الله ألا تراه مرة أخرى في أي عزيز، ها هي الآن تعيشه وتجربه مرة أخرى. كانت ابنتها دينا جالسة بجوارها، وما إن لمحتها تفتح عينيها حتى انتفضت من مكانها مُتهللة، حاولت خلود أن تنهض في المرة الأولى لكنها أخفقت، فحاولت مرة أخرى بانفعال، فهرعت إليها ابنتها محاولة تهدئتها قائلة بصوتٍ مبحوح:

- هوني عليكِ يا أمي، لقد كنتِ في حالة سيئة أمس، مهما وصفتُ لكِ لن أستطيع وصف سوء حالتك، ولولا ألطاف الله ما كان الأطباء يستطيعون القضاء على الجلطة التي كادت أن تودي بحياتك.

- حياتي؟! أين تلك حياتي بعده وبعد أختك؟ أين هي حياتي؟

نهضت لتستند على مرفقها، وهي ترمق الأنابيب التي تخترق جسدها، فنزعتها، ووقفت مُترنحة على قدميها وهي تسأل ابنتها بلسانٍ ثقيلٍ: - أين دفنوه؟ أريد أن أذهب إلى قبره الآن.

شعرت ابنتها بالأسى، ورنت جرس استدعاء الأطباء، فيما رمقت

خلود هاتفها على المنضدة بجوارها، فالتقطته وبحثت في جوجل (د. ماجد العقاد + طبيب قلب)، فظهرت تفاصيل التواصل مع عيادته، واتصلت على الفور، ردت عليها السكرتيرة، فطلبت منها خلود رقم هاتفه، ترددت السكرتيرة في البداية في إعطائها رقمه، لكن خلود أخبرتها أن هناك حالة طارئة تستدعي وجوده، فأعطتها رقمه على الفور.

كان ذلك حين دخل الطبيب المتابع لحالتها، فوجدها في حالة هيستيرية، أشار حينها إلى الممرضة أن تحضر له حقنة مهدئة، فرفعت خلود سبابتها المرتعشة تحذره من أن يقترب منها، حاولت دينا تهدئتها، لكن بلا جدوى. أحضرت الممرضة حقنة مهدئة وأعطتها للطبيب الذي اقترب منها في ترقُّب، وما إن لمس يديها حتى جن جنونها وابتعدت خطوتين للوراء، وصرخت فيه ألا يقترب منها، رفع الطبيب يديه مستسلمًا، وأخذ يحثها أن تهدأ وتستلقي على السرير مرة أخرى كي لا تسوء حالتها، لكن خلود برقت عيناها ونظرت له من أسفل إلى أعلى، وقد عقد ما بين حاجبيها:

- لا تلمسني، ابتعد عني، لا تحاول اعتراضي، سأخرج من هنا الآن.

زمَّ الطبيب شفتيه قائلًا لها: - أرجوكِ، لا تفعلي ذلك، أنتِ طبيبة وتعلمين جيدًا خطورة ما تفعلين، سوف تعود إليكِ الجلطة مرة أخرى.

- قلتُ لك دعني وشأني، لا أريد أن يتحدث إليّ أحد، لو منعتموني من الرحيل سوف أنتحر، أقسم أنني سأفعل ذلك.

- حسنًا حسنًا، كما يتراءى لكِ. قالها الطبيب مستسلمًا، ونظر

لـ"دينا" شارعًا ما بين ذراعيه:

- فلتكوني شاهدة أننا حاولنا معها، ولا أخفيكِ سرًّا، أنا خائف من أن تنفذ وعيدها وتنتحر، سأكتب لكِ بعض الأدوية التي ستساعدها، وبالنسبة للجلطة فقد أذبناها وزال أثرها الحمد لله.

لم تأبه خلود لكل ذلك، والتقطت هاتفها مرة أخرى لتتصل برقم ماجد، وسألته عن المكان الذي دُفن فيه عمر، فأخبرها أنه دفن في مقابر الوفاء والأمل، مقبرة رقم ١٧.

أغلقت المكالمة، وطلبت من دينا إحضار ملابسها التى كانت ترتديها، حاولت ابنتها تهدئتها:

- سأعطيكِ ملابسك يا أمي، ولكن من فضلك اهدئي قليلًا و...

كان ذلك حين جالت خلود بعينيها في أرجاء الغرفة، فوجدت ملابسها معلقة على شماعة بجوار الباب، رمقت الطبيب الواقف مستسلمًا بنظرة صارمة كي يخرج لتبدل ملابسها، شعر حينها أنه غير قادر على فعل شيء أمام إصرارها، فقال لها: حسنًا، كما تشائين - قالها وهو يعطي دينا روشتة الأدوية، ثم أردف كلامه لخلود: - سوف نتركك تغادرين، لكني سأحتاج منكِ أن...

قاطعته: أن أوقع على تعهد أنني خرجت تحت مسئوليتي الكاملة، أعرف.

قالتها وأشارت إليه أن يخرج، وما إن خرج حتى ارتدت ملابسها في عجالة، ثم التقطت علبة عصير شربت منها القليل، وأعطت دينا بطاقتها البنكية لتذهب إلى الخزينة، وتدفع الفاتورة المستحقة

عليها، ثم تذهب إلى البيت. بينما هي انطلقت نحو مقابر الوفاء والأمل، قاصدة المقبرة رقم ١٧، والتي اكتشفت أنها مقبرة جماعية تتبع جمعية خيرية، جثت على ركبتيها باكية، قائلة بصوتٍ مبحوح:

- كيف يدفنونك في مكانٍ كهذا يا عمر؟ كيف يفعلون معك ذلك يا حبيبي؟ يدفنونك في مقابر الصدقة؟ هل هذه هي نهاية الحال مع الكاتب العظيم عمر مدكور؟ وقفت منتصبة وأخذت تصرخ:

- أنتم لا تعلمون من هو عمر مدكور يا كلاب، لن أترك الذي فعل ذلك.

انهارت في البكاء، وظلت جالسة بجوار القبر تنتحب بالساعات حتى بدأ الليل يسدل أستاره، غادرت حينها وظلت تسير على غير هدى في الشارع، في الوقت نفسه الذي كانت فيه دينا مذعورة من القلق عليها، ولا تستطيع الوصول إليها؛ لأنها تركت لها هاتفها ورحلت بدونه، حتى حلّت الساعة العاشرة ولم تأتِ بعد، فقررت الاتصال بآخر رقم اتصلت به والدتها، ألا وهو رقم دكتور ماجد، وما إن أمسكت هاتفها حتى رنّ جرس الباب، هُرعت لتفتح لها فوجدتها مُتهدلة، مُترنحة، أسندتها حتى دخلت وأجلستها على سريرها، وظلت تربت على كتفها، وضمتها إلى صدرها حتى استنامت، وما زال نشيج بكائها يكاد يشق صدرها، وضعت رأسها على الوسادة، وعدّلت من وضعيتها قبل أن تأخذ الروشتة، وتنزل بها إلى الصيدلية لتشتري الدواء الذي كتبه لها طبيب المستشفى.

***

لم يكن لدى إياد أي وقت يضيعه، وقد جن جنونه جراء تفحصه

لحاسوب والده، وكلما يبحث أكثر، يجد ما يجعله فاقدًا لصوابه أكثر وأكثر؛ فقد وجد على سبيل المثال، في إحدى رسائل والده، محادثة كانت بينه وبين رجل أعمال ثري ثراء فاحش، ومعروف في الوسط الثقافي بأنه كاتب وأديب، وقد اشترى روايتين من والده وكتبها باسمه، مقابل ثلاثمائة ألف جنيه للرواية الواحدة، ذهب إليه إياد على الفور، مهددًا إياه بأن يفضحه إن لم يعطِه خمسمائة ألف جنيه عدًا ونقدًا، فلم يجد رجل الأعمال هذا إلا أن يعطيه ما يريد اتقاء لفضحه.

في اليوم نفسه ذهب إلى المذيعة التي تُدعى إسراء شبل، وهددها أيضًا بالفيديوهات التي معه، حاولت إرهابه بأنها ستبلغ عنه مباحث الإنترنت، لكنه قابل إرهابها له بلا مبالاة، وأخبرها أنه حتى لو تم القبض عليه ستنتشر فضيحتها على مواقع الإنترنت؛ لأنه رفع الفيديوهات على موقع خاص، به عداد تنازليّ سوف يصل إلى الصفر بعد خمس ساعات، بعدها سوف تنتشر الفيديوهات تلقائيًا، ولن يستطيع أحد غيره إيقاف هذا العداد التنازلي وحذف الموقع بالكامل. فرضخت له في النهاية خوفًا من الفضيحة التي من المؤكد ستنهي مستقبلها، وقد أدرك إياد هذا جيدًا؛ لذا طلب منها عشرة آلاف دولار، فوافقت على الفور.

وما إن تركها حتى ذهب مباشرة إلى الناقدة نهال عزام، طالبًا منها مائة وخمسين ألف جنيه، فانهارت أمامه وتوسلت له أن يرحمها، لكن بلا جدوى، وأقصى ما فعله معها هو أنه وافق على تخفيض المبلغ إلى مائة ألف فقط، وعاد إلى بيته في ذلك اليوم ومعه أكثر من مليوني جنيه خبأهم في مكانٍ آمن، وفتح حاسوب والده مرة أخرى،

بحثًا عن ضحية جديدة!

***

في عيادته متواضعة المستوى كان ماجد جالسًا بعدما غادر آخر مريض، دخلت عليه مساعدته لتخبره أنه لم يعد هناك مرضى آخرون، خلع نظارته من فوق عينيه ومسحها بمنديله قائلًا لها:

- اذهبي أنتِ، سوف أمكث هنا حتى موعد "نوباتشيتي" في المستشفى.

ما إن غادرت السكرتيرة حتى مدّ جسده على الأريكة، سارحًا في سقف غرفته، يفكر فيما سيفعله مع أخيه الذي أكل حقه من ميراث والده، ظل هكذا حتى شعر بالنعاس قد بدأ يقتحم عينيه، وما لبث أن أغمضها حتى سمع طرق الباب، نهض متأففًا ليفتحه، فوجد أمامه نجلا، اندهش حينها وسألها بنبرة قلقة إن كانت هناك أية مشكلة، فضحكت ودخلت دون استئذان:

- أعرف أنني أصبحت مصدر مشكلات لك في الآونة الأخيرة يا ماجد، كلما أتصل بك تجدني أخبرك بمشكلة جديدة، ولكن ماذا أفعل؟ كلما تقابلني أي مشكلة لا أجد غيرك يأتي على بالي.

ترك الباب مواربًا ودخل وراءها قائلًا: - لم آخذ الموضوع على هذا المحمل يا مدام نجلا، بالعكس، أنا سعيد أنك تستنجدين بي حينما تقابلك أي مشكلة، فأنتِ أرملة صديق عمري.

تعمّد ذكر عمر كي يحمي نفسه من أي فتنة من المحتمل أن يقع فيها، مثلما كان على وشك الوقوع في المرة الماضية حينما كان في

منزلها، هي أيضًا شعرت بهذا، رغم ذلك تظاهرت أنها لم تسمع ما قاله وتنحنحت قائلة:

- وجدتُ نفسي قريبة من عيادتك، وحينما مررت من هنا لاحظت أن الأنوار مضاءة، فقلت في قرارة نفسي أنك بالتأكيد لم تتناول غداءك إلى الآن، فاشتريت لك شاورما وعصيرًا وبعض الأشياء الأخرى. قالتها وهي تضع الأكياس على المنضدة، ففغر فاه حينها وشكرها بحرارة: - كيف عرفتِ أنني جائع؟

- بل شعرت - اقتربث منه وهي تعطيه ساندويتش الشاورما - منذ آخر مرة رأيتك فيها شعرت أنك جائع. قالتها، وهي تُقرّب "الساندوتش" من فمه. أحس حينها أنها لا تقصد "الطعام" حين نطقت كلمة جائع، بل تقصد شيئًا آخر، هذا ما استنبطه من طريقتها، وجد صعوبة في التقاط أنفاسه حين دنت منه أكثر وأكثر وشعر حينها بحرارة أنفاسها التي ألهبت صدره، وأشعلت نار الرغبة بداخله، نظر وراء كتفها فلمح عمر خارج مكتبه، واقفًا بجوار الباب الرئيس، أغمض عينيه مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم، ثم ابتعد عنها خطوة إلى الخلف، نظرت وراءها وسألته باندهاش إلى ماذا كان ينظر، فقال لها وهو يرتدي نظارته التي وضعها على المنضدة:

- لا شيء، لا شيء يا نجلا - حاول تغيير الموضوع مستطردًا - وكيف حال سما الآن؟

اقتربت منه: - هي الآن بخير نوعًا ما، المهم أن درجة حرارتها انخفضت، بينما درجة حرارتي أنا التي ما زالت مرتفعة، بل مُلتهبة.

بالكاد ازدرد لعابه، وابتعد عنها مُتظاهرًا أنه يوصل الهاتف

بالشاحن، رغم شعورها ببعض الحرج لكنها رأت أنها يجب أن تزيد من ضغطها قليلًا، التقطت علبة العصير، ثم اقتربت منه فابتعد، اقتربت مرة أخرى فابتعد خطوتين للخلف حتى التصق بالجدار وراءه، أغمض عينيه، وفكر لوهلة أن يستسلم لتأثيرها، لكنه رأى حينها صديقه عمر في ظلمة جفونه، فتح عينيه فجأة، ثم دفعها عنه قائلًا لها، والارتباك مرسوم على وجهه:

- ليس من الحكمة أن نفعل ذلك يا نجلا - ازدرد لعابه ثم أردف - عمر كان صديقي، بل صديق عمري، لا يصح أن أفعل ذلك مع أرملته، من فضلك ارحلي.

تغيرت ملامح وجهها، وقالت له بنبرةٍ حادة: - ولو فعلت معك عاهرته الأخرى خلود هذا لكنت وافقت، أليس كذلك؟!

- كنت سأرفض أيضًا، فالأمر يتعلق بي وبصديق طفولتي، وليس بأي شخص آخر. أرجوكِ، يجب أن نوقف هذا الآن.

- كيف نسيت ما كان بيننا قبلما أتزوج عمر؟

- لم يكن بيننا سوى حب بريء، ولكن النصيب قال كلمته، وبمجرد أن أصبحتِ زوجته تحولتِ في غضون ثوانٍ إلى أخت، وليس أي شيء آخر.

علقت عينيها عليه لثوانٍ، ثم التقطت حقيبة يدها قائلة: - سأعود إليك لاحقًا، لن أدعك يا ماجد.

-٩-

أغلق إياد الحاسوب بعد أن نقل عدة ملفات إلى "فلاش ميموري" وملفات أخرى في هاتفه، ثم كتب عدة عناوين في ورقة دسها في جيبه داعيًا أن يوفّق في مشاوير اليوم، ويعود مُحققًا مبالغ كبيرة ليضيفها إلى ما جمعه في الآونة الأخيرة، جاءت حسناء في مخيلته حينئذٍ. اتصل بها فأجابته بنبرة جافة:

- ماذا تريد؟

- ما هذه اللهجة التي تتحدثين بها يا حبيبتي؟ هل هذه لهجة مناسبة تتحدثين بها مع حبيبك؟

أجابته باندهاش: - ما هذا الذي تقوله يا إياد؟ ألا تراعي فارق السن؟

- لا تصدعيني بكلامٍ لا طائل منه... المهم... أنا أريدك... الآن.

- زوجي في الحمام الآن، وسوف يذهب إلى شركته بعد ساعة.

- جيد... سأكون أمامك بعد إحدى وستين دقيقة.

لعنت اليوم الذي عرفت فيه عمر، ووافقت على أن يصور ما فعلاه في فيديو. في الحقيقة، هي لا تملك رفاهية الموافقة أو الرفض؛ فهي أمام شاب صغير طائش، أهوج، لديه طاقة، ما إن وجد أن قدميه بدأتا تحملاه حتى قرر أن يحرث الكون ذهابًا وإيابًا دون أدنى اعتبار لأي شيء... لم تكد تمر ساعة حتى كان أمام باب شقتها. فتحت له بوجهٍ محتقن، فأمسك يدها وضمها إليه بقوة وهو يسألها

عن سبب عبوسها، فأجابته، مقطبة جبينها:

- إلى متى ستذيقني مرار الأيام يا إياد؟ لقد فعلنا ذلك مرة، أعتقد أن ذلك يكفي. لن أكون جارية لك ولأهلك طوال العمر، كن لطيفًا ولا تكن عبئًا على كاهلي، أرجوك ما تفعله معي يمثل ضغطًا رهيبًا على أعصابي.

- مهلًا مهلًا يا حسناء، أنتِ حبيبتي، ولا يرضيني أن أراكِ هكذا.

- لا تقل "حبيبتي" أرجوك؛ فالوضع غريب جدًا عليّ، ولا أستطيع استيعابه أو استساغته.

- لا يهم - حاول أن يقبلها من شفتيها فابتعدت عنه، فقال لها كأنما تذكر شيئًا: - آآآه، لقد تبادر إلى ذهني سؤال أريد إجابته: لو كنتِ الآن حبلى، هل سيكون الجنين من أبي، رحمه الله، أم مني، أم من زوجك شوقي غربال؟ أم من رجل آخر؟

- ألم يخبرك أحد من قبل أنك سخيف؟ حاول أن تكون لطيفًا معي ولا تكن هكذا، على الأقل لكي أتحمل هذا الوضع القذر الذي لا أحسد عليه، أرجوك، حاول أن تنهي هذا الأمر سريعًا؛ لأن زوجي قد يعود في أي وقت.

***

ما إن تفتح خلود عينيها لتستفيق، حتى تغمضهما مرة أخرى حين تستوعب أنها ما زالت في الكابوس نفسه، تتمنى أن يكون هذا الشهيق الذي ولج صدرها آخر شهيق لها، ثم سرعان ما تتذكر أن لديها في هذه الحياة ما يستحق البقاء من أجله، دينا، التي شعرت

في اليومين الأخيرين بأنها ليست ذات قيمة بالنسبة لأمها، وهذا ما قرأته خلود في عينيها حينما استفاقت تلك المرة، وجدتها بجوارها، فأشارت لها أن تقترب منها، فاقتربت وحضنتها:

- ألف سلامة عليكِ يا أمي.

ردت عليها خلود بلسانٍ ثقيل: أعتذر لكِ يا حبيبتي عما بدر مني تجاهك، أنتِ ابنتي وحبيبتي وكل شيء بالنسبة لي الآن و...

قاطعتها دينا: - لا تُثقلي على نفسكِ يا أمي، ولا تتكلمي الآن، أنا أعلم جيدًا ما مررتِ به وما تأثيره عليكِ، وأنا أُقدّر تمامًا أي تصرف لا إرادي منكِ.

حاولت خلود أن ترد عليها، لكن المهدئات غلبتها، وأغمضت عينيها مرة أخرى، فعادت دينا لتجلس في مكانها كما كانت، لتستكمل الكتاب الذي كانت تقرأه. كان ذلك حين رنّ هاتف خلود، وقد أظهر برنامج تروكولر الرقم باسم "إياد عمر".

- ثُرى ماذا يريد هذا الأبله؟! حدثت دينا نفسها، وترددت هل ترد عليه أم لا؛ فالمنطق يقول ألا تجيبه، لكن الفضول غالبًا ما يكون مُغايرًا للمنطق وهازمًا له، فأجابت بنبرةٍ جافة:

- نعم؟!

- كيف حالكِ يا خلود؟! سأل إياد بنبرة سمجة، فردت عليه دينا بتقزز:

- ماذا تريد أيها الأبله؟ أنا لست خلود... أنا دينا، ابنتها.

- لا يهم من أنتِ، أعطني والدتكِ ولا تطيلي معي في الكلام.

- هل تعرف أصلًا مع من تتكلم؟

- لا يهم أيضًا، أعطني والدتك قلت لكِ.

أغلقت دينا المكالمة، وأخذت تفكر فيما يريده هذا الأحمق، وما هذه الطريقة التي يتحدث بها، وماذا يريد أساسًا، وهل يعرف عن العلاقة بين والده وأمها أم لا؟! قطع تفكيرها رنين الهاتف مرة أخرى، وكان هو المتصل. سألته بنبرةٍ جافة عما يريد، فأصر على التحدث إلى والدتها، أخبرته أنها مريضة وغائبة عن الوعي، لم يشعر بأي شفقة تجاه ما سمع، وطلب منها أن تقابله الآن في أي مكان لأمر مهم. سألته عن هذا الأمر المهم، لكنه أصر على ألا يتفوه بأي كلمة إلا عندما يقابلها، وقال لها بلهجة آمرة أن تقابله بعد نصف ساعة في ميدان عباس العقاد بمدينة نصر، أمام محطة البنزين، فوافقت، وكانت هناك بسيارتها في الموعد والمكان المحددين، وجدته واقفًا ينظر في ساعته، نادته فاقترب منها، وهو يتفحصها ثم سألها:

- دينا؟!

لم تجبه، بل أشارت له أن يركب، وبعدما جلس بجوارها، سألته ماذا يريد؟ فأخبرها أنه سيتحدث بعدما يجلسان في أي مكان، رفضت حينها وأخبرته أنها لا يجب أن تغيب عن والدتها وقتًا طويلًا لأنها مريضة وتحتاج إلى رعاية، وطلبت منه أن يدخل في الموضوع مباشرة، أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال لها:

- كان من الأفضل أن أتحدث مع أمك مباشرة، ولكن تستطيعين

القول إنني لا أكترث كثيرًا بمشاعرك حينما تشاهدين مقطع الفيديو هذا.

قالها وهو يعطيها هاتفه، فأخذت منه الهاتف وشاهدت المقطع، شعرت حينها بنغزة قوية في قلبها، ولم يكن من السهل عليها رؤية مقطع كهذا، رغم أن الذي مع والدتها ليس رجلًا غريبًا، بل زوجها، فتحت زجاج السيارة ووضعت يدها على صدرها، ثم رفعت رأسها للأعلى، وأشارت له أنها تريد بعض الماء، شعر إياد بأنها لا تستطيع التقاط أنفاسها، فأخذ منها هاتفه، وخرج من السيارة ليشتري لها زجاجة مياه من محل في الجوار، ثم عاد إليها بسرعة وأعطاها زجاجة المياه، ففتحتها دينا وارتشفت قليلًا من الماء حتى بدا عليها أنها استعادت وعيها، لم يمهلها إياد وسألها عن رأيها فيما شاهدته على هاتفه، ازدردت ريقها وأخذت نفسًا عميقًا ثم أجابته بنبرةٍ واثقة:

- حسنًا، هذا فيديو يظهر فيه والدك وهو يمارس علاقة مع أمي، رأيته، ما المطلوب الآن؟!

- لن أطلب مبلغًا كبيرًا، كنت أنوي أن أطلب منك مليون جنيه، ولكن بعدما رأيتكِ، سوف أخفض المبلغ إلى خمسمائة ألف جنيه فقط، إضافة إلى جسدك، أرأيتِ كم أنا مباشر وصريح؟

- ووقح أيضًا، ووضيع، وتمتلك بجاحة لا يمتلكها أقذر خنزير على كوكب الأرض.

رد عليها ببرود: - سأعتبرها مجاملة لطيفة، شكرًا.

- مممممم خمسمائة ألف جنيه وجسدي، مقابل ماذا؟

- مقابل حذف هذا الفيديو، وكأنه لم يكن.

أطرقت برأسها لبرهة، وهي تبتسم ابتسامة ساخرة، وتهز رأسها بأسى.

- فيمَ تفكرين؟ سألها إياد.

- لا تقلقي بشأن المكان، سوف أحجز غرفتين في أي فندق بالغردقة مثلًا، ونقضي فيه أجمل يومين و... قاطعته:

- اسمع أيها الأحمق، أولًا تأدب وأنت تتحدث معي، فأنا دينا قطب، وإن لم تكن تعرفني، فأنا أعرفك جيدًا. اندهش مما قالته، لكنها لم تُعطه الفرصة ليتفاجأ وأردفت:

- نعم، أعرفك، لا تندهش، فأنا في كلية الألسن بجامعة عين شمس، وأراك كميزًا تتسكع في طرقات كلية التجارة مثل أي طالب فاشل، سيكون لديك وقت كافٍ لتسأل عني، لا تقلق، المهم الآن أريدك أن تعرف أن التي تبتزها بهذا الفيديو هي زوجة أبيك، هذا أولًا.

جحظت عيناه حينها وحاول أن يقاطعها، لكنها لم تعطه فرصة واستطردت: - لا تقاطعني، دعني أكمل كلامي، السيدة التي في هذا المقطع كما أخبرتك هي زوجة والدك، خلود. الدكتورة خلود شلبي - قالتها بزهوٍ وافتخار ثم استطردت - وبخصوص ابتزازك الرخيص هذا، لقد سجلت كل ما دار بيننا الآن في هاتفي الذي في جيبي، هذا التسجيل كفيل أن ينهي مستقبلك حينما أتقدم به إلى مباحث الإنترنت، في الوقت نفسه لست خائفة من أن تنشر المقطع حتى لو على نتفلكس..

شعر أن لسانه قد انعقد داخل فمه، ولم يستطع التحدث ببنت شفة، وهذا ما شعرت به دينا التي استكملت كلامها بنبرةٍ واثقة: - استطعت في الدقيقة التي اشتريت فيها زجاجة المياه أن أستجمع شتاتي وتفكيري، وأخرج هاتفي من جيبي لأسجل لك، أعلم أنه أسلوب رخيص، لكنه لا يتناسب إلا مع شخص أرخص، مثلك...

بدا متسمرًا لا يعرف ماذا يقول، فابتسمت دينا مردفة بثقة: - أعلم أنك الآن غير قادر على الكلام، وربما تفكر في أن تأخذ مني هاتفي بالقوة مثلًا، هذا حقك بالتأكيد، ولكنك لن تستطيع فعل ذلك، لأن خلفي سيارة شرطة، وأستطيع أن أصرخ صرخة صغيرة، ويتم القبض عليك، وتكون قد عجّلت بدخولك السجن.

لم تصدر منه أي حركة، وقد شعر بأن العرق يقطر على جبهته وظهره، فيما أكملت دينا:

- اسمع ما سأقوله لك جيدًا أيها الأبله... والدك أخذ من أمي قبل موته حوالي أربعين ألف دولار، لست متأكدة من أنه قد أعادهم إليها أم لا، ولكن في الحالتين سوف تردهم لي، غدًا، قبل الساعة الثانية عشرة ظهرًا، من أين ستحضرهم ليست مشكلتي، المهم أن يكون المبلغ معي قبل الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وإلا سأذهب إلى شرطة مباحث الإنترنت وأعطيهم المقطع الذي أسجله الآن، ويثبت ابتزازك لي، بعدما أحذف ما يثبت ابتزازي لك بالطبع، سأبلغ عنك وأخبرهم أنك تبتزني بفيديوهات بين والدك وزوجته بعقدٍ رسميٍ موثق، بعدها بساعة ستكون في السجن، هل كلامي مفهوم؟

أطرق رأسه وقد شعر أن الدنيا تلف به، فكررت دينا سؤالها بنبرة

أحدّ وأعلى: - هل كلامي مفهوم؟!

فانتفض إياد من مكانه، ثم حاول أن يبتلع لعابه فلم يستطع، وقال لها بنبرة خافتة: - مفهوم، مفهوم.

في الوقت نفسه

بينما كان ضابط المباحث، اللواء زياد ضرغام، جالسًا في مكتبه، تلقى إشارة من غرفة العمليات بوجود بلاغ عن جريمة قتل في العقار رقم ٢٠ أ، عمارات العبور، الطابق الثامن، امرأة مقتولة في شقتها بجرحٍ قطعي في رقبتها، من الأذن إلى الأذن.

انتقل فورًا إلى مسرح الجريمة، حيث كان فريق الطب الشرعي قد وصل قبله، وانتشر خلال ثوانٍ في جميع أرجاء الشقة، جلس الزوج على أحد الكراسي في غرفة المعيشة، يبدو منهارًا بالبكاء.

اقترب منه اللواء زياد ضرغام، وصافحه معرّفًا بنفسه:

- اللواء زياد ضرغام.

- أهلا بحضرتك، أنا رجل الأعمال شوقي غربال.

- نعم أعرفك، فأنت أشهر من النار على العلم، أنت الذي اتصلت وأبلغت عن الجريمة، أليس كذلك؟

أجرى زياد تحقيقات موسعة حول تلك الجريمة، وقد أخذ أقوال الزوج، وحارس العقار وبعض من الجيران، ثم طلب تفريغ كاميرا المراقبة المثبتة في مدخل العمارة، علاوة على فحص هاتفها، وإرسال الجثة إلى المشرحة، وقد لاحظ زياد ضرغام حينما فحص

هاتفها بأن آخر رقم قد اتصل بها لشاب يُدعى إياد، وهو الشاب نفسه الذي وجده في كاميرات المراقبة يدخل العمارة، أصدر قرارًا بضبطه وإحضاره، وقد قبضوا عليه من أمام منزله.

***

في الوقت نفسه.. نادي الصيد

بناءً على نصيحة الدكتور ماجد بأن تخرج وتختلط بالناس وتجلس في أماكن عامة لتخرج من حالتها تلك، جلست سما في الباحة الخارجية للمطعم المُطلّة على حمام السباحة، وهي تمسك باللوحة التي ترسمها لوالدها، وقد أوشكت على الانتهاء منها، كانت ترسم موقفًا شاهدته في طفولتها، ظل محفورًا في ذاكرتها، ولم تستطع الأيام أو الزمن محوه.

كانت في الثامنة من عمرها حين استيقظت في الثالثة والنصف فجرًا لتشرب، وسمعت صوت دقات أصابع والدها على الآلة الكاتبة، لم تشرب حينها، بل دخلت إلى غرفته، وجدته جالسًا في مكتبه المظلم تمامًا، إلا من ضوء مصباح خافت، هُرعت إليه، فنهض وحملها وضمها إلى صدره، شعرت حينها بأنها غارقة في بحرٍ من الحنان والأمان، سألته عما يفعل، فأجابها بابتسامة ونبرة هادئة أنه يكتب رواية جديدة. لم تنسَ تلك اللحظة أبدًا، كل كلمة دارت بينهما محفورة في ذاكرتها: ابتسامته، نبرة صوته، هدوءه ورزانته. لم تكن تفهم معظم ما قاله لها حينها، لكنها احتفظت به في خزانة ذاكرتها حتى كبرت وأدركت معناه.

من بين الجمل التي تبتسم كلما تذكرتها، حين قال لها:

- أنا الآن أصنع الماضي، يا حبيبتي، أو ما سيكون ماضيًا بالنسبة لكِ يومًا ما، سيكون ذكرى، وأنا حريص جدًا على أن أصنع لكِ ذكريات تجعلك تبتسمين حين تتذكرينها وأنتِ في العشرينيات من عمرك، والأربعينيات، بل وحتى الخمسينيات.

كان يخبرها بذلك وهو يبتسم. ظنت في تلك اللحظة أنها ستتذكر كلماته وهو بجانبها، لم تكن تعلم أنها ستسترجع كل هذه الذكريات وحيدة، دونه. فجأة، انهمرت الدموع من عينيها وبدأت تُقبّل اللوحة التي كانت ترسمها، حتى اختلطت دموعها بالألوان، فبهتت واختلطت معًا، عندها سمعت صوتًا يأتي من خلفها، صوتًا تعرفه جيدًا، صوتًا كان يتردد في مخيلتها للتوّ:

- كيف ستكملين اللوحة بعد أن سقطت عليها دموعك؟

استدارت ونظرت خلفها، فوجدت والدها، ازدادت دموعها انهمارًا، ثم رفعت رأسها إلى السماء قائلة:

- يا ليت تخيلاتي تتحول إلى حقيقة ولو لدقيقةٍ واحدة يا الله، لم أشبع منه قط، فأنا مشتاقة إليه، يا ربّي.

- أنا لست خيالًا أو تخيلات، يا حبيبتي، بل أنا حقيقة، ولتتأكدي من ذلك، أعطني يدك.

نهضت سما حينها، وأخذت تتفحصه بعينين نصف مغمضتين، وهي تمد يدها نحوه، أمسك يدها وقبّلها مبتسمًا.

شعرت بخدرٍ يسري في جسدها بأكمله، وبرقت عيناها من هول المفاجأة، لم تعد تشعر بأطرافها، وكادت أن تسقط لولا أنه أمسك

بها، فاستعادت توازنها قبل أن يضمها إلى صدره لثوانٍ، ثم نظر إلى عينيها، ارتسمت على وجهها تعابير مُتناقضة، كانت خائفة أن تكون تخيلاتها قد وصلت إلى مستوى غير واقعي، لكنه طمأنها قائلًا:

- أنا لستُ خيالًا، يا حبيبتي.

بدأت تتأكد من حقيقته، فانهارت بالبكاء أكثر، وهمّت أن تصرخ، لكنه منعها بوضع كفه على فمها:

- لا، لا تصرخي، اهدئي...

قالها وضمها إليه، ثم أخذ يربت على ظهرها بلطف ليخفف من ارتجاف جسدها:

- اهدئي، يا حبيبتي، وحاولي استيعاب الموقف، أنا لم أمت، بل أنا حي كما ترين، خذي وقتكِ للاستيعاب ولفهم ما يحدث، خذي وقتك تمامًا!

القسم الثاني
(في أثناء ...)

-١-

كانت تلك اللحظة هي الأكثر رعبًا في حياتي، ولن أعيش مثلها أبدًا ما حييت؛ اللحظة التي استفقت فيها وفتحت عينيّ على ظلامٍ دامس، ظلامٌ يحيط بي من كل جانب، ويغلّف كل ما حولي، ظننتُ لوهلةٍ أنني فقدت بصري، لكن هذا لم يكن ما لفت انتباهي أو أقلقني. ما أقلقني حقًا هو الدود الذي اتخذ من جسدي ممشى، وبدأ يزحف نحو شفتي، مستعدًا لدخول فمي.

وما أثار فزعي أكثر كانت تلك الرائحة الكريهة التي لا تُحتمل، وقد شعرت بالغثيان يداهمني، إضافة إلى البرد الذي أخذ يحزّ جسدي، بصقتُ الدود الذي دخل فمي، ومددت يدي بجواري باحثًا عن هاتفي على الكومود المجاور لسريري، لكني أدركت أنني لستُ على سريري! ولم يكن بجواري كومود! بل أدركت فجأة أن ما حولي ليس سوى جثث وعظام نخرة لأموات يرقدون في مثواهم الأخير في سكون مرعب.

انتفضتُ من مكاني مرعوبًا كالملدوغ من أفعى، فتعثرت بين الهياكل العظمية وجثث الموتى الذين وُضعوا هنا مؤخرًا، نهضتُ مرة أخرى، لكني تعثرت مُجددًا، أخذ قلبي يدق بقوة، حتى كاد يشق صدري ويخرج منه.

صرختُ، صرختُ بكل ما أوتيتُ من قوة، فلم أجد إلا صدى صوتي يجيبني، الرائحة كانت لا تُحتمل، وشعرت بالدود يسري على جسدي بعد أن غطاه بالكامل، وقد بدأ بالفعل يأكل أجزاء من جلدي، تساءلتُ في قرارة نفسي: "هل أنا ميتٌ بالفعل وهذا هو عذاب القبر؟" تذكرتُ

آنئذٍ القليل مما حدث أمس، ولكن لم يشغلني كثيرًا، كل ما شغل تفكيري في تلك اللحظة هو أن أخرج من هنا، استمررتُ في الصراخ فلم يرد عليّ أحد، انحنيتُ على الأرض أبحث عن أي شيء أطرق به على الجدران من حولي، فلم أجد سوى عظمة فخذ، كانت لرجلٍ عاش يومًا ما حياة كاملة. لم يتسنَّ لي الاعتذار له حينها، وأخذت أطرق بالعظمة على اللاشيء، لاحظتُ حينها أن الجدران من حولي مصمتة، صماء، ولن يُجدي الطرق عليها.

أدركتُ آنذاك أنه ليس أمامي سوى الصراخ حتى يظهر لي مُغيث، شعرتُ أن الوقت يضيق، وربما أسقط في أي لحظة لأكون من بين هؤلاء الأموات بحق، وربما يسمعني أحدهم في الأعلى، لكنه قد يخاف أن يقترب أو يقدم لي يد العون؛ لأنه بالتأكيد سيعتبرني عفريتًا أو روحًا تُعذَّب داخل القبر! لكني، في كل الأحوال، لا أملك رفاهية الاختيار، وليس أمامي سوى الصراخ:

"انجدووووني... انجدووووني... أنا حيّ لم أمت... ساعدوني... أغيثووووني"

لم أعرف كم من الوقت مرّ وأنا أصرخ هكذا، تشققت حنجرتي، وتقطعت حبالي الصوتيّة، بل تمزقت، لم أكترث لذلك، صارت دقات قلبي أقوى، ولم أعرها اهتمامًا، كل ما كان يهمني حينها هو أن يغيثني أحد، أو أن أستيقظ لأكتشف أن كل هذا ليس إلا حلمًا، فأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأكمل نومي هانئًا. لكن للأسف، لم يكن حلمًا، بل كان واقعًا، أسوأ مكان يمكن أن يوجد فيه إنسان، وهو حيّ! رغم أنني أعلم جيدًا أن الأمر - حتمًا - سينتهي بي إلى هنا،

لكن على الأقل، كنت أتمنى أن يحدث ذلك وأنا ميّت... وليس حيًا!

"انجدووووني... أغيثووووني"

سكتُ لهنيهة لألتقط أنفاسي اللاهثة، ثم سرعان ما استأنفتُ الصراخ مرة أخرى، حتى سمعتُ أذان الفجر، أدركتُ حينها أن هناك مسجدًا في الجوار، ولكن ما الفائدة طالما لن يمر أحد من هنا؟! حين قال المؤذن "أشهد أن لا إله إلا الله" بكيتُ، بكيتُ بحرقة، والعظام النخرة تحيط بي من كل جانب. القبر كان ممتلئًا بالجثامين، والرائحة نفاذة، تخترق شعيرات أنفي، وتصعد إلى خلايا مخي، وتنساب في أوردتي، لا يمكن تحملها، علاوة على الدود الذي كان حريصًا على المشاركة في تلك الليلة، تقيأتُ حينها، وشعرتُ كأنني تقيأت قلبي وأمعائي وكل أعضائي الداخلية. بعدما انتهى المؤذن، عاودتُ الصراخ من جديد.

"ساعدووووني... أنا حيّ... أنا حيّ... انجدوني"

سمعتُ حينها سعال شخص في الأعلى، فصرختُ بقوةٍ أكبر علّه يسمعني، علّه يدركني. لكنه، فيما يبدو، ابتعد مرتعدًا ومذعورًا، عاودتُ الصراخ، وظللتُ هكذا لوقتٍ لا أعرف مدته بالضبط، شعرتُ أن وقت استيقاظ الأموات من حولي قد حان، وكأنهم سيستقبلونني في حفلة، أو ربما سيتشاجرون معي، إضافة إلى ذلك، سمعتُ أصواتًا بجواري، أو ربما هذا ما خُيّلَ إليّ... الله أعلم.

"أغيثووووني يا أهل الله... أنا حيّ... انجدوني!"

حتى سمعتُ صوتًا في الأعلى يقول: "من ينادي في الأسفل؟ هل

أنت أنس أم جن؟"

فأجبته بصوتٍ مرتجف: "أنا إنسان... أنا لست ميتًا... أنا حيّ... انجدني، أرجوك!"

رد قائلًا: "لا حول ولا قوة إلا بالله... انتظر ثواني"

شعرتُ حينها بفرحةٍ عارمة، لدرجة أنني بكيت، ودعوت الله ألا يتأخر في إخراجي من هذا القبر بأسرع وقت. مرّت حوالي عشر دقائق ولم يأتِ أحد، فبكيت مرة أخرى، ولكن هذه المرة من الحزن. استأنفتُ الصراخ، وبعد مرور دقيقتين سمعت صوت امرأة، ممتزجًا بصوت رجل، كان صوت الرجل مشابهًا لصوت من تحدث إليّ منذ قليل، سمعتُ أيضًا صوت أدوات حديدية تصطك ببعضها البعض، فاستنبطتُ أنه صوت جاكوش. قال لي الرجل في الأعلى: "اصبر... لا تقلق.. لا حول ولا قوة إلا بالله"

- حسنًا... لن أقلق... قلت له بصوتٍ مرتجف، لكني بكيت بداخلي مرة أخرى... بل ألف مرة!

ظل يطرق بالأجنة والجاكوش حتى أسقط طبقة الجص الخارجية فيما يبدو، ثم فتح النافذة الحديدية، فاندفعت نسمة ليل باردة إلى وجهي. حينها لمحت الرجل الذي فتح لي المقبرة، وبجواره زوجته التي تضرب أخماسًا بأسداسٍ وهي تحوقل هي الأخرى، لم يغب عن ذهني أنني كنت شبه عارٍ، لا يسترني سوى الكفن الذي انزلق عن جسدي، فانحنيت وأعدت رفعه لأستر نفسي. مدّ لي الرجل يده ليساعدني على الخروج، لكني لم أتمهل، بل تشبثت بعتبة النافذة ودفعت نفسي إلى أعلى بكل ما أملك من قوة. أُصيبت

ركبتاي وساقي اليسرى، وانثعب الدم منها، لكني لم أشعر، تمزق جلد أصابعي، ولم أستشعر الألم، خرجت من فتحة القبر كالملسوع، وجثوت على الأرض باكيًا صارخًا نائحًا. صاحت المرأة وما زالت تضرب كفًا بكف: "لا إله إلا الله... يُحيي العظام وهي رميم".

شعرتُ حينها بقيمة الهواء البارد الذي ولج صدري ورئتي، وما زلت أبكي بحرقة، مدّ الرجل يده مجددًا، فأمسكت بها وساعدني على النهوض، ثم اصطحبني إلى غرفته المجاورة للقبر. عرفت حينها أنه "التربي". ما إن جلست على الكنبة حتى اندفعت للخارج مرة أخرى، وتقيأت أمام عتبة الباب، ثم عدت إلى الغرفة، فأعطاني بعض الماء، وعندها أدركت كم كنت ظمآنًا. شربت كأنني لم أشرب طوال حياتي، ظل يسألني أسئلة كثيرة لم أتذكر منها شيئًا، ولم أسمع منها شيئًا على الإطلاق، كل ما كنت أريده في تلك اللحظة هو أن أخرج من هذا المكان الموحش بأسرع وقت، ولم أشعر بنفسي إلا حين انتفضت فجأة وخرجت مبتعدًا عن الرجل وزوجته وأولاده الذين بدأوا يلتفون حولي ويتباركون بي.

-٢-

حين خرجت، وجدتُ ملابس منشورة على حبلٍ موصولٍ بين قائمين خشبيين، ملابس يُحركها الهواء يمينًا ويسارًا، وكأنه يحاول لفت انتباهي أو إخباري بضرورة التقاط أي قطعة منها لأستر بها جسدي؛ لأنه من غير المعقول أن أسير في الشارع بين الناس مرتديًا كفنًا أبيض! التقطتُ جلبابًا مهترئًا رماديّ اللون، وهربت من كل هذا راكضًا، مُبتعدًا. فكرة الركض وحدها كانت كفيلة بإزالة خوفي، هرولتُ، أطلقت ساقي للريح، وابتعدت أكثر فأكثر حتى تجاوزت المقابر وأشرفت على الأسفلت، والسيارات، والحيوانات الضالة، لم يكن لدي أي مانع أن أنام بجوارها؛ فالنوم على قارعة الطريق أو في أحضان كلب ضال بجانب جدار متهالك من بول المارة، مقارنة بما كنت فيه، يُعتبر جنة غنّاء، حينها فقط أدركتُ قيمة أشياء كثيرة، ناسيًا تمامًا كل المصائب التي مررت بها في الأيام الماضية.

حينما تسلّل هواء الفجر البارد إلى صدري، شعرتُ ببعض التحسّن، وهدأتْ روحي تدريجيًا، بدأت دقات قلبي تخفت رويدًا رويدًا، نظرتُ حولي فلم أجد سوى الخلاء، الخواء، الفراغ، شعرتُ حينها أن الكون كله خالٍ إلا مني، انتهزتُ الفرصة ووقفت، ثم شرعت ذراعي عن آخرهما، رافعًا وجهي نحو السماء، ثم أطلقتُ صرخةً مُدوية تفجرت من أعماقي لتزلزل الكون بأسره وتهزه، صرخة شقّت سكون الفضاء من حولي ومزّقته، صرخة خرجت من صدري مُحمّلة بكل ما في داخلي من حزنٍ وقهرٍ وأسى.

واصلتُ السير حتى وصلتُ إلى مشارف منطقة شعبية، وقد بدأ

الجوع يلح عليّ إلحاحًا، لكني لم أكن أملك جنيهًا واحدًا. تساءلت: هل إذا طلبتُ من أحدهم لقمةً تسد رمقي سيوافق أم سيرفض وينهرني؟ لقد رأيت في حياتي كثيرًا من المتسولين يفعلون الشيء نفسه، بعضهم يرزقه الله بأصحاب القلوب الرحيمة، وبعضهم يتعرض للإهانة التي لا تُحتمل. حدثت نفسي حينها بأن هؤلاء المتسولين لا يملكون خيارًا آخر، أما أنا فلدي خيارات عديدة، أهمها أن لدي رصيدًا في البنك، ويمكنني سحب مبلغ بسيط مؤقتًا لشراء طعام وملابس غير هذا الجلباب الرماديّ الباهت المُهلهل الذي لا أرتدي تحته شيئًا!

واصلتُ السير لفترة طويلة حتى أكلت الأرض من أقدامي، إلى أن وصلتُ إلى حيّ الأسمرات، وهناك وجدت ماكينة صراف آلي تابعة للبنك الذي أودع فيه أموالي، كانت الساعة حينئذٍ السادسة صباحًا، وقفتُ أمام الماكينة واخترتُ خيار السحب بدون البطاقة البنكيّة، أدخلتُ رقم الحساب وسحبتُ مبلغ ألف وخمسمائة جنيه، بعدما اطمأننتُ أن رصيدي كما هو لم ينقص، وما إن ابتعدت بضعة أمتار عن الماكينة، حتى فوجئتُ برجلٍ قد نبع من العدم، شاهرًا سلاحًا أبيض، كان يراقبني من بعيد حتى سحبت المبلغ، اقترب مني مهددًا، موجهًا سلاحه نحوي: "هذا المال يلزمني".

لم أكن أرغب منذ أكثر من عشرة أعوام في إظهار الوجه الآخر لعمر مدكور، وكنت حريصًا دائمًا على ألا يظهر مني سوى الكاتب الروائيّ الحساس، لكن في موقفٍ كهذا، لا أعلم ما الذي ينويه هذا البلطجيّ الذي باغتني على حين غرة؛ فباغتُّه بحركةٍ سريعة، وفي أقل من نصف ثانية أصبح مقيدًا أمامي وسلاحه في يدي وقد وضعته على رقبته، همست في أذنه:

- اسمع، لقد عدتُ من الموت منذ قليل، لذلك سأتركك، ولن أجعلك تذوقه رأفةً بك.

لم أكد أفلته من قبضتي حتى ركض هاربًا مُبتعدًا، وضعتُ المطواة داخل جيب جلبابي، وأكملتُ مسيري على غير هدى نحو اللاشيء، وكانت الشمس قد بدأت تلوح في الأفق مُعلنةً بداية يوم جديد، وبدأت الشوارع تلفظ الناس رويدًا رويدًا، حتى قادتني قدماي إلى سوقٍ على مشارف حي الأسمرات، وهناك لمحتُ مقهى تجلس بجواره سيدة خلف موقد، تقلي طعمية وباذنجان وبطاطس، شعرتُ ببهجةٍ لا أعرف سرها عندما هاجمت أنفي رائحة طعامها الشهيّة، جلستُ في المقهى وطلبتُ منها خمسة أرغفة، أكلتُها بنهمٍ كمن حيل بينه وبين الطعام دهورًا، أقسم أنني لم آكل بشراهة هكذا من قبل، شربتُ بعدها كوبًا من الشاي ثم كوبًا كبيرًا من القهوة، رغم رداءة البُن، الذي بدا لي مخلوطًا بفول سوداني محروق وبازلاء ونوى بلح! لكني شعرت حينها أنه قد أُعِدَّ خصيصًا لي وجاءني من ساوباولو بالبرازيل!

اكتشفتُ منظورًا جديدًا للحياة، زاوية أخرى لم أعهدها من قبل، جلستُ ساردًا في اللاشيء، مُتعمدًا تجاهل آلاف الأشياء التي كان من المفترض أن تستدعيها ذاكرتي وتُراجعها بتمعن، آلاف الأسئلة التي كانت تداهمني كسهامٍ لا أستطيع اتقاءها فتثقب عقلي بلا هوادة، لكني أدركت أن وقت التفكير في تلك الأمور لم يأتِ بعد. الآن هو وقت التأمل في فكرة عودتي من الموت، هو وقت التفكير في اللحظات التي قضيتُها راقدًا بين الأموات والهياكل العظمية،

هو وقت التفكير في الدود الذي كان ينتظر تحلُّل جثماني، الآن هو وقت التفكير في هذه الدنيا التي بدت لي في تلك اللحظة ثمينة جدًا بقدر ما هي رخيصة جدًا في الوقت ذاته، هذه هي الأمور التي يجب أن تأخذ حقها ووقتها الشرعيّ في التأمل والتفكير الآن، أما باقي الأشياء...

فلكل حادثٍ حديث

لاحظ القهوجي شرودي، كان شابًا سمح الوجه، يبدو في العشرين من عمره. اقترب مني وسألني بترقب إن كان بي شيء. ابتسمت له وأخبرته أنني بخير، وأن كل ما أحتاجه هو غرفة لمدة يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، وضعت يدي في سيالة جلبابي وأخرجت له نقودًا، لكنه أمسك يدي بلطفٍ وأعادها إلى مكانها، حالفًا بكل الأديان أنه لن يأخذ شيئًا، وعرض عليّ أن أقيم في غرفته المجاورة للمقهى، وأن آخذ راحتي، إذ إنه سيسافر إلى قريته مساء اليوم، ولن يعود إلا بعد أسبوع.

أصررتُ أن يأخذ مقابلًا، لكنه كان أكثر إصرارًا على الرفض، نظرتُ إليه باندهاشٍ بالغ، وقد لفتتني طيبة قلبه وهو يتحدث معي بشفقة، تساءلت في قرارة نفسي: هل هذا إنسان مثلي ومثلنا؟ أم ملاك من السماء أنزله الله على هيئة بشر ليبلغني رسالة ما؟ غير أنني توصلت لاكتشاف مهم في تلك اللحظة؛ أن هذا القهوجي هو الإنسان، أما أنا فلست إنسانًا، بالنظر إلى ما فعلته طوال حياتي، أدركت أنني لست إنسانًا، بل حيوانًا تسوقه شهواته ونزواته.

بعد خمس دقائق، أعطاني الشاب مفتاح غرفته:

- هذا مفتاح الغرفة - قالها وهو يشير إليها - إن أردت الدخول في أي وقت لتستريح.

لم تمضِ نصف ساعة حتى أنهيت جلستي ودخلت الغرفة، دلفت إلى الحمام الذي لم تتجاوز مساحته مترين طولًا ومترًا ونصف عرضًا. التقطت الخرطوم، وأنزلت الماء البارد على جسدي، ثم تناولت صابونة مغتصبة منذ زمن بعيد، رغّيت جسدي بالكامل، ثم أنزلت الماء على جسدي مجددًا، وجدت بشكيرًا باليًا معلقًا على مسمار مثبت في الحائط، جففت به جسدي وارتديت الجلباب مرة أخرى، مررت بجوار مرآة مكسورة معلقة باستحياء على الجدار، ولم أكد أتجاوزها حتى لفت انتباهي أنني لمحت فيها شخصًا آخر غيري، عدت إليها مجددًا ونظرت إلى انعكاس صورتي فيها، بكيت حينها، بكيت عندما لاحظت التجاعيد التي ظهرت فجأة على وجهي، وقد زادت بشكلٍ لافت، إضافة إلى الشيب الذي غزا معظم شعر رأسي، أدركت آنئذٍ أن الصدمة التي أصابتني عندما استفقت داخل القبر كانت السبب في ذلك بلا شك.

تركت المرآة وما لمحته فيها، ومددت جسدي على السرير الذي أصدر صريرًا لم أنزعج منه، عقدت يدي تحت رأسي مُتأملًا سقف الغرفة المتآكل، أفكر في الموت وماهيّته، اكتشفت أشياء كثيرة ليس هذا وقت وصفها، لكني فكرت أن أفرد لها رواية كاملة فيما بعد.

ظللت هكذا ساعة أو بضع ساعة، مُستسلمًا لأفكاري وأسئلتي وهواجسي التي رُشقت سهامها في روحي من كل صوب، لم يزر النوم عيني مُطلقًا، بيد أنه كان خائفًا مني! ومن هيئتي الجديدة

المختلفة تمامًا عما كنت عليه منذ أيام، حتى حلّ الليل عليّ وأنا على الحال نفسها، أفكر فيما كنت فيه، حتى قطع تفكيري القهوجي الذي دخل الغرفة، وأشار لي بيده ألا أتحرك وأظل على وضعي:

- سآخذ فقط حقيبتي تلك، وأسافر كما أخبرتك، اعتبر القصر قصرك. قالها بنبرةٍ ساخرة، دون أن يعرف أنني بالفعل اعتبر غرفته تلك قصرًا منيفًا، دسست يدي في سيالة جلبابي وأخرجت ألف جنيه وأعطيتها له، جحظت عينيه قائلا لي: - أقسم بالله لن آخذ أي...

قاطعته بأن وضعت يدي على فمه: - أقسم لك أنا، لو لم تأخذ هذا المبلغ سوف أغادر قصرك هذا. كنت قد قررت أن أترك هذا المبلغ قبلما أرحل، ولكني خشيت ألا تراه أو يضيع.

وضعت الألف جنيه في جيبه، فوافق مُضطرًا ثم رحل، تاركًا جدران غرفته لتحتضن جموح أفكاري التي هاجمتني مرة أخرى، فمددت جسدي مستسلمًا لها. كم من الوقت بقيت على هذا الحال؟! لا أدري حقًا، فقد كنت غارقًا في صمتي وشرودي وتفكيري، غافلًا تمامًا عن مرور الوقت، كل ما أردته هو أن أترك لنفسي وقتًا كافيًا للتفكير فيما مررت به وما خرجت منه، وما حدث لي بعد أن أسبلت عينيّ واعتقدوا أنني قد متُّ، كيف أصدروا تصريحًا بدفني؟ أم فعلوا ذلك دون تصريح؟ هل تعمّدوا دفني حيًا؟ أم ظنوا أنني ميت بالفعل؟ هل توقف قلبي، ثم عاد لينبض من جديد؟ ولماذا دُفِنتُ في تلك المقابر رغم أنني اشتريت قبرًا خاصًا منذ ثلاثة أعوام؟

آلاف الأسئلة كانت تهاجمني كنصالٍ باترة، فتركتها ودفعتها عني لأذهب بعقلي إلى اللحظة التي استفقتُ فيها داخل القبر، ربما بقيت

في تلك الغرفة على هذا الحال يومًا أو أكثر، حتى سمعت صوت الأذان من الخارج، قمتُ لأتوضأ وذهبت للصلاة في مسجدٍ قريب، كنت أسير في الشارع ساهمًا، صَموتًا، شاردًا، وبعد الصلاة لمحت رجلًا جالسًا في الشارع يبيع ملابس داخليّة، فاشتريت منه. ثم مررت ببقالة فاشتريت خبزًا، جبنة بيضاء، مياه غازيّة وسجائر ثم عدت إلى الغرفة، وبعدما أكلت وشربت ودخنت سيجارتين، وقفت أمام المرآة متمنيًا أن يعود شعري كما كان، أسود لا تغزوه سوى بعض الشعيرات البيضاء عند فوديّ رأسي، لكني وجدت الحال كما هو، والتجاعيد قد رسمت على ملامح وجهي أعمارًا فوق عمري.

جلستُ على طرف السرير أتذكر ما حدث في الليلة التي سبقت ليلة موتي، والليلة نفسها التي مت فيها، حينها بدأت أتذكر بوضوحٍ تام ما حدث، وما سمعته من نجلا حينما كنت في سكراتِ الموت، غير أن شخصًا آخر انبثق مني في تلك اللحظة، ليقول لي: "ما هذه الخرافات يا عمر، كيف تقول نجلا زوجتك هذا الكلام؟ أنت بالتأكيد جُننت، أو ما حدث لك في القبر جعلك تُجن وتفقد عقلك، هذه المرأة الضعيفة الشريفة العفيفة التي طالما عاشت تحت قدميك، وتحمّلت خياناتك وظلت بالحال نفسه مطيعة لك، كيف لها أن تفعل ذلك؟ كيف لها أن تقتلك؟ كيف لها أن..."

قاطعته بأن نهضت فجأة ورميته بأقذع الألفاظ: "اسكت أيها الأبله... هل تريد أن توهمني بأنني مجنون؟ والله ليس هناك مجنون غيرك، أنا متأكد أنني سمعت كل ما قالته لي، مثلما أنا متأكد من أنني أتحدث معك الآن..."

اختفى من أمامي فمددت بجسدي على السرير مجددًا، متسائلًا: إلى متى سوف أظل هنا، أريد أن أخرج للعالم وأعلن عن عودتي من الموت، أود أن أرى ماذا فعل الناس بعدما علموا بموتي، أود أن أشاهد ردود أفعال كل من علموا بموتي، أود أن أرى ابني إياد وابنتي سما، وخلود زوجتي... حبيبتي.

انهمرت حينها فجأة في البكاء، حينما تذكرتهم، وقررت أن أذهب إليهم، لكني تفاجأت بالشخص نفسه يخرج مني مرة أخرى، ويظهر من العدم ليسألني: "وماذا عن فضيحتك التي علم بها كل الناس؟ وماذا ستقول لهم فيما يتعلق بسرقاتك الأدبية؟ ما هو شعور زوجتك الثانية خلود تجاه ما فعلت؟ وماذا سيكون رد فعل زوجتك الأولى نجلا حينما تراك عائدًا من الموت؟ هل ستقتلك مرة أخرى؟"

نهضت، وأشرت إليه مندهشًا مما قال: "ها أنت تعترف الآن بأنك تصدق أنها حاولت قتلي، ما الذي غير رأيك فجأة هكذا؟"

شعر حينها بالإحراج، واختفى مرة أخرى فجأة مثلما ظهر، صرخت كي يعود إليّ ثانية، لكنه لم يعد، جلست على الأرض أنتحب كالثكلى لحوالي خمس عشرة دقيقة حتى رقّ قلبه لحالي وعاد لي، وقال بضع كلمات:

"اذهب إلى صديق عمرك... ماجد"

برقت عيني حينما تذكرته، بالفعل هذا هو الشخص المناسب لأن يكون أول من يعلم بما حدث.

شعرت أن الملل قد بدأ يأكلني، فنهضت مقررًا المغادرة، بعد أن

ألقيت نظرة أخيرة على الغرفة، وقد افتر ثغري عن ابتسامة وادعة، ثم توجهت إلى ماكينة الصراف الآلي لأسحب مبلغًا آخر من المال، واشتريت طقمًا واحدًا بشكل مؤقت، لم أترك الجلباب هناك، ولم ألقه في أقرب صندوق قمامة، بل وضعته في كيس وذهبت به إلى الثربي وأعطيته له مع ظرفٍ يحتوي على عشرة آلاف جنيه قائلًا له والابتسامة مُرتسمة على محياي: - هذا مبلغ بسيط مقابل ما فعلته معي أيها الرجل الطيب، وفي حقيقة الأمر أنني لو أعطيتك كل مال الدنيا فلن يساوي إنقاذك حياتي.

رد عليّ بنبرة هادئة: - أنا لم أفعل شيئًا يا أستاذ عمر، رغم أن حالتك نادرة، إلا أنها حدثت منذ ثلاثة وثلاثين عامًا، حينما كان والدي هنا، وهو أيضًا فعل نفس ما فعلته معك.

- بارك الله فيكما، المهم، هذا مبلغ بسيط، ولو احتجت أي شيء أخبرني.

في البداية وجدته عفيف النفس ورفض أخذه مني، لكنه بعد إلحاحي أخذه على مضض، طلبت منه ألا يخبر أحدًا بما حدث، فهز لي رأسه موافقًا، قبّلت رأسه واستأذنته كي أرحل، وما إن نهضت حتى قال لي كأنما تذكر شيئًا:

- آه... تذكرت شيئًا مهمًا، لقد حضرت إلى هنا سيدة وظلت تبكي وهي تردد اسمك، جلست فترة طويلة.

طلبث منه أن يصفها لي لكنه لم يستطع تذكرها، فصاحت طفلته حينها: - كانت قصيرة الطول، وشعرها أسود فاحمًا وطويلًا، وعيناها سوداوين و...

قاطعتها مُبتسمًا: - نعم، عرفت من هي، شكرًا لكِ يا حبيبتي.

دق قلبي حينها، وابتسمت ابتسامة خفيفة بجانب فمي، خلود، حبيبة القلب التي - للأسف - تعرفت إليها متأخرًا، يا ليتني عرفتها مثلًا أيام الجامعة، قبل أن تتزوج من رجل آخر، وقبل أن أتزوج تلك السيدة التي اكتشفت أنني لا أعرف عنها أي شيء، رغم زواجنا الذي تخطى ثمانية عشر عامًا.

لم أبخل على ابنة التربي بألف جنيه نظير ذاكرتها الحديدية، أعطيتهم لها قبل أن أستأذن وأرحل، قاصدًا عيادة ماجد، مُتمنيًا أن أجده في عيادته، وما إن وصلت إلى هناك ودخلت، وجدته بالفعل، لكني وجدت معه نجلا، فخرجت بسرعة داعيًا الله ألا يكون قد لمحني، وإن كنت أشك. المهم هو أنني خرجت بسرعة وظللت واقفًا في الشارع مُتواريًا خلف سيارة لحوالي عشرين دقيقة، إلى أن رأيت نجلا تخرج من العمارة، وما إن ابتعدت تمامًا حتى صعدت إلى العيادة مرة أخرى، فوجدت ماجد جالسًا على مكتبه ممسكًا بساندويتش شاورما، وما إن رآني شاخصًا أمامه، حتى تسمّر مكانه وظل ينظر لي، ابتسمتُ له، اقترب مني بتؤدة، قاطبًا حاجبيه مُحاولًا استيعاب ما يراه.

- هل ستظل هكذا لوقت طويل يا ماجد؟

ما إن تكلمت حتى انتفض واقترب أكثر، مدّ يده نحوي ليلمسني، ليتأكد إن كنت حقيقيًا أم تهيؤات، فضحكت قائلًا له: - أنا حقيقي، حيّ لم أمت يا ماجد.

- كيف؟ كنت سأصدق ذلك لولا أني كنت موجودًا يوم دفنك! هل الذي دفناه كان شخص غيرك؟

- لا، كنت أنا، ولكني لم أمت.

أقبل عليّ وعانقني بقوة وهو يبكي، ويحمد الله على رؤيته لي مرة أخرى، سألني حينها:

- هل كنت هنا منذ نصف ساعة، واختفيت بسرعة؟

- نعم، لم أرد أن تراني نجلا.

- الحمد لله، كنت أظن أنني أصبت بالجنون...

- لماذا كانت نجلا هنا؟

- لا شيء، كنت قد طلبت منها أن تعطيني نتائج التحاليل والتقارير الخاصة بابنتك سما. بالمناسبة، سما حالتها صعبة، هل عرفت أنك حيّ أم لا؟

- لا، أنت أول شخص يعرف ذلك، بعد التربيّ. قلتها مبتسمًا.

- أعتقد أنك ستخبرني بما حدث لك بالتفصيل، أليس كذلك؟

هززتُ رأسي أن نعم، وحكيت له كل ما حدث لي بالتفصيل، نهض بعدها معتذرًا، وأقسم لي أنه كشف عليّ ووجد قلبي متوقفًا، فأمسكت يده، وطلبت منه أن يجلس مرة أخرى:

- أعرف يا ماجد كل ذلك، لا تقسم لي بشيء، المهم هو أنني...

قاطعني ماجد: - لا، هناك أمر ما يجب التوقف عنده، لقد تذكرت

شيئًا مهمًا، حينما كنت في ندوتك وأخبرتني خلود بأنك تصاب بنوبات متفرقة، وقتها طلبت منك أن تأتِ لي لأفحصك، يجب أن تخضع لإجراء فحوصات دقيقة يا عمر، أنت لست على ما يرام، ويجب أن أعرف سر تلك الغيبوبة التي داهمتك.

- هل تعرف أن قلبي لو كانت حالته سيئة قبل ما حدث لي، فمن المؤكد أن حالته قد زادت سوءًا؟

- بالطبع، لا أعرف كيف تحمّل الهلع الذي شعرت به حينما استفقت داخل القبر وسط الأموات.

- والدود الذي كان واقفًا على شفتي والرائحة التي لا تُحتمل.

- وهيئتك التي جعلتك تكبر فجأة كرجل خمسينيّ، وشعرك الذي شابَ وتحول معظمه فجأة إلى الأبيض.

نهض مرة أخرى فجأة واستطرد: - تعال معي الآن، سوف نذهب إلى مختبرٍ قريب من هنا يملكه صديق لي، سأفحصك هناك بدقة، وأجري لك بعد الأشعة والتحاليل.

أمسكت برسغه مرة أخرى: - لا تتعجل، سوف أفعل كل هذا، ولكن أولًا أريد منك أن تتصل بسما ابنتي، وتنصحها بأن تخرج لتجلس في أيّ مكانٍ عام، وليكن نادي الصيد، أريد أن أقابلها بمفردها قبل أن أذهب إلى خلود.

أمسك هاتفه مبتهجًا، وقد فتح مجهر الصوت، ردت عليه سما، سرت قشعريرة في جسدي حينما سمعت صوتها، أخبرها بما طلبته منه، في البداية كانت رافضة للفكرة؛ لأن أي تصرف فيه ترويح عن

النفس سيكون خيانة لحزنها عليّ، لكنه ألح عليها: - صدقيني يا سما يا حبيبتي، ما ستفعلينه سيفرح والدك جدًا.

لكزته في ذراعه وبرقت له عيني، فأصلح ما قاله: - أقصد يعني أنه لو كان حيًا الآن، لكان طلب منك أن تأخذي بنصيحتي.

المهم استطاع في النهاية أن يقنعها بالذهاب صباح اليوم التالي إلى نادي الصيد، فذهبت إلى هناك في الموعد نفسه، بعدما قضيث تلك الليلة في عيادته، نائمًا على الأريكة الجلدية التي في مكتبه. حينما وصلت إلى النادي دخلت بتذكرة اشتريتها، لأنني ليس معي كارنيه العضوية، وقد حرصت على أن أتخفى قدر الإمكان، وقد ساعدني على ذلك شعري الأبيض - والذي ربما أصبغه قريبًا - وتجاعيد وجهي، حرصت أيضًا أن أجلس في الجهة المقابلة لحمام السباحة، كي أملي عيني منها أولًا، وأراقبها وهي ترسم، متأكدًا أنها ترسمني، ولم يخب ظني، حينما اقتربت منها وكنت خلفها تمامًا، رأيت ما كانت ترسمه، وكانت تبكي حينها، لم أستطع التحكم في نفسي قائلًا لها:

- كيف ستكملين اللوحة بعد أن سقطت عليها دموعك؟

-٣-

كانت وجهتي التالية، بالطبع، إلى من خُلق قلبي لينبض من أجلها، خلود، التي خلّدت حبها داخلي بعدما عشّقته. طوال الطريق، كنت أفكر في شكل اللقاء بيننا، كيف سيكون. طرقت الباب، ففتحت لي دينا، ابنتها، وضعت يديها على فمها من هول الصدمة، فاحتضنتها وأخبرتها أنني سأروي لها كل شيء بعد قليل، سألتها بلهفةٍ: - أين خلود؟ فتحولت ملامحها إلى العبوس، وهي تخبرني أنها في غرفة النوم.

رغم أنني توقعت الحالة التي ستكون عليها، إلا أن ما رأيته لم يكن يمثّل واحدًا بالمائة مما توقعت، وجدتها نائمة على جانبها الأيسر بلا حول، كغصنٍ مكسور من شجرة عصفت بها ريح عاتية، متكورة على نفسها كجنين، وفي رسغها "كانيولا" مغروسة في عرقٍ مُجدب يفتقر إلى الدم. كانت قد خسرت الكثير من وزنها، شحب لونها وغاض رونق وجهها، كأن نور الحياة قد سلّ منه، فأدركت حينها كم عانت وتألّمت في الأيام الماضية.

كنت خائفًا عليها من صدمة رؤيتي، خشيث ألا يتحمل قلبها المفاجأة، فكرث في ألا أوقظها، لكني أفتقد صوتها وعينيها وكل ما فيها، وضعت يدى على كتفها بحنوٍّ ورفق، ففتحت عينيها الشاردتين الزائغتين دون أن تلتفت لي، ابتسمث حينها وقلت لها بنبرة هادئة: - لقد افتقدتك طول الأيام السابقة يا حبيبتي.

التفتت إليّ بسرعة كيمامةٍ وادعة، وظلت تنظر إليّ محاولة استيعاب ما تراه، حاولث النهوض لكنها تعثرت، ثم حاولت مرة أخرى

بلهفة، أمسكتُ بمرفقها مُبتسمًا، مساعدًا إياها على النهوض، بينما كانت عيناها معلقتين بي، تتفحصني، وكأنها في داخلها تدعو أن أكون حقيقة، شعرتُ بنبض قلبها يتسارع، وبدأتْ شفتيها ترتعشان قبل أن تبكي فجأة، وسرعان ما تحول بكاؤها إلى نحيبٍ مزّق قلبي وأحاله إلى أشلاء.

جلست بجوارها على طرف السرير، وضمتها إلى صدري، بكت أكثر واشتد نحيبها، لم أفعل شيئًا حينها سوى أنني دسست رأسها في صدري، وربتُ على ظهرها، ممسدًا شعرها بلطف، شعرتُ بنبضات قلبها تزداد قوة بينما استمرتْ في البكاء، ظلت هكذا لحوالي عشر دقائق قبل أن تهدأ قليلًا وتسألني:

- كيف هذا؟ وماذا حدث؟ هل هذه كانت حيلة أو فكرة ما؟

- لا يا خلود، أجبتها مبتسمًا، فأنا بالفعل دفنت، ومكثت ليلة كاملة أو أكثر قليلًا داخل القبر.

تدخلت دينا: - مهما وصفنا لك كيف كانت حالتها لن نستطيع أن نصف كيف كانت.

- أعرف يا دينا، أعرف يا حبيبتي.

حكيت لهما كل شيء، وشعرتُ بالأسى حين أخبرتني دينا ما دار بينها وبين إياد ابني، ووعدتها أنني سأتخذ إجراءً حازمًا معه، رغم أنني قلقتُ جدًا من أن يكون قد فعل ذلك مع أخريات، كان ذلك حين جاء ماجد مُصطحبًا معه سما، والتي تعرّفت على دينا وحدث بينهما تآلف سريعًا، وما زلت جالسًا على طرف السرير وبجواري خلود التي

بدأ الشحوب يغادر وجهها، وبين الفينة والأخرى تلمسني لتتأكد أنني حقيقي، ثم تعاود فتقرص نفسها لتتأكد أنها ليست نائمة وتحلم، لتتأكد أنني بالفعل أجلس بجوارها، فأضحك وأضمها أكثر إلى صدري، وأمسد شعرها الناعم شديد السواد.

لم تشعر سما بأيّ حنق تجاهها، وتفهمت الوضع بسرعةٍ شديدة، وقالت لي إنها طالما تراني سعيدًا؛ فلا مشكلة لديها في أي شيء، وبالفعل كنت أسعد شخص في الكون في هذه اللحظة، حتى كادت الفرحة توقف قلبي، حتى إنني وضعتُ يدي على صدري كي أهدئ من نبضه قليلًا، حينها قال ماجد بنبرةٍ جادة:

- لا يجب أن تهمل الفحوصات التي أخبرتك بها أمس يا عمر، إهمالك هذا سوف يضرك. قالها والتفت إلى خلود قائلًا لها: - ما رأيك في كلامي يا دكتورة خلود، هل يصح إهماله هذا؟

ردت عليه بعد أن اعتدلت في نومتها: - نعم يا دكتور أتفق معك، ووجهت كلامها لي: - ما حدث لك آخر مرة بسبب أن قلبك توقف لفترة طويلة ودخلت في غيبوبة طويلة يا عمر.

قاطعها ماجد: - ولذلك شخّصته على أنه توفي يا خلود، ومن بعدي طبيب الصحة شخّصه بالتشخيص نفسه.

عقّبت خلود: - هذا إضافة إلى الصدمة التي تلقاها قلبه حينما استفاق من غيبوبته داخل القبر.

نهض ماجد، وطلب مني بلهجة حاسمة أن أذهب معه الآن، وليس بعد قليل، لإجراء الفحوصات، حاولت أن أؤجل الموضوع لكن ما

شجعني أن خلود نهضت من مكانها، وأخبرتني أنها ستأتي معنا. وبالفعل تركنا سما ودينا مع بعضهما البعض، وذهبنا إلى مختبر ومعمل تحاليل وأشعة يملكه أحد أصدقاء ماجد، أجريت حينها أشعة كثيرة وبعضًا من التحاليل، وانتظرنا وقتًا طويلًا لم أتذكر كم كان بالضبط، حتى خرجت كل التقارير ونتائج الأشعة والتحاليل.

وكانت النتيجة أنني...

لديّ اعتلال وبعض المشكلات في عضلة القلب

ويجب أن أجرى عملية حالًا!

***

مساء اليوم التالي...

في أحد أكبر المستشفيات الخاصة في مصر

كنت مصرًا على دفع تكاليف العملية بالكامل لماجد، رغم رفضه المتكرر، لكني أقسمت له أنني لن أخضع لأي عملية جراحية، ولن أدخل المستشفى من الأساس إن لم يوافق، فاضطر إلى الموافقة على مضض.

بدأ ماجد في تجهيزي للعملية الجراحية، وأخبرني أنها عملية بسيطة وليست خطيرة، بالتأكيد ليطمئنني، لكني كنت أعلم جيدًا أن الأمر أكثر تعقيدًا مما قال؛ فقد أجريت بحثًا على الإنترنت وعرفت أن العملية تتضمن إيقاف عضلة القلب تمامًا لفترةٍ من الوقت، في تلك الأثناء سيوصل الجسم بجهاز يقوم بوظائف القلب والرئة، ثم يقوم ماجد بتحويل مسار الشريان التاجي وإنشاء ممر جديد لتدفق

الدم حول الجزء المسدود، إضافة إلى استبدال صمامات القلب التالفة.

أخبرت ماجد أنني على دراية بتفاصيل ما سيجري، فما كان منه إلا أن زَمّ شفتيه وقال:

- اسمع يا عمر، طبيب القلب هو أكثر من يفهم الحياة ومعناها.

التفت إلى خلود مفسرًا ما يقصده: - لا أعني أننا نزكي أنفسنا على أطباء التخصصات الأخرى، لكنني أتكلم عن نقطة محددة.

هزت رأسها متفهمة، فأكمل كلامه موجهًا إليّ: - كل ما ذكرته لي عن العملية صحيح، سأنتزع منك الحياة حرفيًا، ثم أعيدها إليك مجددًا، لكن لا تقلق، لقد أجريت هذه العملية مرات عديدة من قبل، ومن حسن حظك أن من سيجريها لك هو دكتور ماجد.

قالها بفخرٍ واعتزاز، وللحق، هو محق؛ فهو من أفضل جراحي القلب في مصر، ويكفي أنه تخرج تحت يد الدكتور مجدي يعقوب، وهذا ما جعلني أشعر ببعض الاطمئنان.

في تلك اللحظة، طرقت سما باب الغرفة ودخلت، وما إن رأتني مستلقيًا على السرير، مرتديًا الرداء الأزرق الخاص بالعمليات، حتى اغرورقت عيناها بالدموع. حاولت أن أطمئنها، رغم أنني لم أكن مطمئنًا بنفسي:

- لا تخافي يا حبيبتي، سأجري العملية فجر الغد، وفي اليوم التالي سأخرج.

انحنت بجذعها نحوي وقبّلت رأسي، سألتها إن كان قد شعر أحد

أنني ما زلت حيًا، فهزت رأسها نافية، وقد أخفت عني خبر القبض على إياد؛ كي لا يؤثر ذلك في حالتي النفسيّة. طلب ماجد من خلود وسما أن يغادرا الآن، ليبدأ في تحضيري للعملية الجراحية، وأخذ قسط كافٍ من النوم قبلها. قالت خلود إنها ستحضر في الفجر وقت إجراء العملية، وأكدت سما أنها ستكون حاضرة أيضًا، فطلبت من سما ألا تأتي؛ لأن الوقت سيكون مبكرًا جدًا، ولئلا ترتاب أمها في أي شيء بسبب خروجها في وقتٍ كهذا، فأومأت لي بالموافقة، ثم غادروا جميعًا، لأبقى وحيدًا في تلك الغرفة التي يعمها الصمت في كل الأرجاء، صمتٌ مطبقٌ لا يكسره سوى صوت أجهزة المؤشرات الحيوية، وصافرة تدق برتابة كان وقعها على نفسي صعبًا للغاية. لماذا؟ لا أعلم، ولكنها أثارت بداخلي التفكير فيما مضى، وما هو آتٍ. سألتُ نفسي: ماذا لو كان هذا اليوم هو الأخير لي؟ وفي فجر هذا اليوم سوف توضع نقطة النهاية في آخر فقرة من فقرات حياتي التي امتلأت بكثيرٍ من الفواصل، وبضع فصلات منقوطة!

أطلقتُ ضحكة ساخرة بجانب فمي على ما عشته في الفترة الأخيرة، واستغربتُ تلك الحياة غريبة الأطوار، فقد ارتفعت أسهمي إلى أعلى معدل منذ أسبوع واحد فقط، وكنتُ الكاتب الأشهر في مصر، وأحد أشهر الكتاب في العالم العربي، وفجأة هبط السهم حتى وصل إلى الأرض، بل إلى تحت الأرض حين دفنتُ حيًا. بعد أن أصبحت - ظلمًا - الكاتب السارق، دون أن أدافع عن نفسي، ولا ألوم أحدًا؛ فلو كنتُ مكانهم، بالتأكيد لن أصدق أي دفاع لكاتبٍ معظم رواياته تتشابه حبكاتها مع حبكات كاتب مغمور في الستينيات. كيف؟! لا أعلم، كل ما أعلمه حينها أنني ربما أعيش الآن الساعات

الأخيرة في حياتي، وسأموت قبل أن أقول للعالم كل ما أريد قوله، قبل أن أترك مذكراتي لتُنشر بعد وفاتي ليقرأها كل قرائي، رغم أنني أعلم أنها لن تنفد منها الطبعة الأولى حتى، بسبب سمعتي التي أصبحت في الحضيض.

لمحتُ دفترًا وقلمًا بجواري على الكومود، فالتقطتهما لأكتب أي شيء، لا أعلم من سيقرأه، لكني كتبتُ لأخرج ما بداخلي وأرتاح، فيهدأ قلبي المُجهَد، كتبتُ كثيرًا في تلك الليلة، حوالي عشرين ورقة، ولم أتوقف عن الكتابة إلا عندما دخلت عليّ تلك الممرضة، فأعطتني حقنة وبعض الأقراص، ثم أخذت عينة من الدم وتركتني. كانت الساعة حينها الثانية بعد منتصف الليل، حاولتُ بعدها أن أستأنف الكتابة، لكن النعاس بدأ يُهاجمني، أعتقد بسبب تلك الحقنة، فوضعتُ الأوراق في الدرج بجانبي، متسائلًا في قرارة نفسي: "هل سأتصفح تلك الأوراق مرة أخرى بعدما أتماثل للشفاء ويعود قلبي سليمًا؟! هل سأقرأ قريبًا ما كتبته تلك الليلة وأضحك؟!"

اعتدلتُ في نومتي بعد ذلك، ونظرت إلى السقف حتى غلبني النوم.

***

الساعة ٠٤:١٧ فجرًا

أوقظتني الممرضة من أحلامٍ متضاربة كثيرة، بل كوابيس، كنت أرغب في أن أحكيها، لكن الوقت ليس ملائمًا الآن لأي حديث. شعرتُ، حينما أوقظتني، وكأن عشماوي يوقظني لتنفيذ حكم الإعدام شنقًا، ونسبة النجاة منه نصف بالمائة، لو انقطع الحبل بعدما

يتدلى جسدي منه وسقطت على الأرض دون أن أموت، أما النسبة الأخرى، فهي تسعة وتسعون ونصف بالمائة، حين يتدلى جسدي من حبلٍ قويّ يصارع الجاذبية!

من القاتل؟ حبل المشنقة أم الجاذبية؟!

لا أعرف من هو أول من تبادر إلى ذهنه هذا السؤال العميق الذي أردتُ أن أتأمل عمقه، وتساءلتُ في قرارة نفسي إن كان ربما وزن الإنسان له دخل في ذلك! لكن ماجد انتزعني من كل ذلك حينما دخل عليّ مبتسمًا:

- كيف حالك يا بطل، هل أنت مستعد؟

لم أجبه، أدرك حينها أنني خائف، فحاول أن يطمئنني:

- يا عمر لا تخف، من حقك أن تخف بالفعل لو كنا في عام ١٩٨٤ مثلًا، حينها كنت سأتفهم خوفك، ولكننا الآن عام ٢٠٢٥، أهم شيء أطلبه منك الآن هو أن تهدأ.

- أنا هادئ بالفعل، وحتى لو حدث أسوأ سيناريو ومت، لن أنزعج؛ فالموت راحة، وأنا أكثر شخص يعرف ذلك.

قلت له وأنا أعرف أنني أكذب! ربت على كتفي وهز لفريق التمريض رأسه فأخرجوني على السرير المتحرك من غرفتي متجهًا إلى غرفة العمليات، وجدت خلود تنتظرني في الردهة الخارجية، وما إن أمسكت يدي حتى سرت طمأنينة بداخلي، وظلت معي حتى وصلت إلى غرفة الإعدام، أقصد العمليات.

أعطاني طبيب التخدير الحقنة، وغبت عن الوعي...

منذ تلك اللحظة، وحتى اللحظة التي بدأ فيها ماجد العمل على قلبي، لا أعرف ماذا حدث لي، فقد غبت عن الوعي تمامًا، لكني فجأة بدأت أستعيد وعيي تدريجيًا، وكأن الإضاءة من حولي كانت مطفأة وبدأت تعود رويدًا رويدًا. لم أكن على السرير حينها، بل كنت مُحلقًا في الأعلى، بالقرب من سقف الغرفة. رأيت كل شيء بعيني؛ ماجد والممرضات والمساعدين حول السرير؛ حيث كان جسدي الغائب عن الوعي يرقد وسطهم، وما كنت في تلك اللحظة إلا روحًا شفافة وغير مرئية، رأيت كل ما في الغرفة، ورأيت نفسي - أقصد جسدي - ممددًا على السرير، مستسلمًا لهم جميعًا، مسلوب الإرادة تحت تأثير المخدر الكليّ، لا أملك من أمري شيئًا.

رأيت ماجد، وقد انتهى من فتح صدري، شقه من المنتصف، بجرح طوله يقارب عشر بوصات، ثم رفع الغشاء الدهني فوق عضلة القلب، بعد ذلك أحدث شقًا في عظمة القص في صدري حتى وصل إلى القلب، الذي سيوقفه تمامًا ليبدأ العمل عليه، بعد أن تم توصيل جسدي بجهاز تحويل مجرى القلب والرئة، الذي يقوم بنقل الدم بعيدًا عن القلب، ليتيح لماجد العمل عليه، رأيت كل هذه التفاصيل بوضوحٍ شديدٍ وأنا مُحلّق فوقهم دون أن يراني أحد، تأكدت من ذلك حين رفع أحدهم رأسه إلى أعلى ليحرك رأسه يمينًا ويسارًا ولم يُبدِ أي دهشة، سمعت ماجد يسأل أحدهم بنبرةٍ جادة:

- هل انتهيت من توصيل الجسد بجهاز تحويل مجرى القلب والرئة؟ أومأ المساعد برأسه بالإيجاب، فاستطرد ماجد: - الآن سنوقف عضلة القلب... بسم الله.

حين أوقف عضلة قلبي، رأيت مستوى جديدًا أمامي، مكانًا آخر انتقلت إليه لا إراديًا، كنت أرغب في البقاء مُحلِّقًا فوقهم لأرى ما يفعلون، لكن المكان الذي انتقلت إليه انتزعني من تلك الرغبة، كان هذا المكان عبارة عن ردهة طويلة أو ممر ممتد. الضوء هناك كان خافتًا ومريحًا للبصر، تلك الإضاءة الصفراء التي أحبها وأستخدمها في أثناء الكتابة. مددتُ بصري لأرى نهاية هذا الممر، فرأيت على امتداد بصري نورًا ساطعًا قويًا. كان عرض الممر نحو ثلاثة أمتار، وطوله يقارب مائتي متر، بدأت أسير متجهًا نحو هذا النور الذي رأيته في نهايته.

لفت انتباهي شيء غريب على الجدار الأيمن؛ أبواب مضاءة بلا مقابض، أو هكذا خُيِّلَ إليّ، لكن عندما اقتربت اكتشفت أنها ليست أبوابًا، بل إطارات مضيئة باللون الفيروزي، مستطيلة أفقيًا، وبجوار كل إطار قلم ذهبيٌ معلق بسلسلة ذهبية. لم أكترث كثيرًا بذلك، وأكملت طريقي نحو نهاية الممر، متجهًا نحو الضوء الساطع، لكني لم أستطع منع نفسي من إلقاء نظرات مجددًا على تلك الإطارات المضيئة التي بلغ عددها حوالي عشرين إطارًا، تفصل بينها مسافة نحو ثلاثة أمتار، واصلت المشي حتى وصلت إلى الإطار الأخير.

عندها، ظهر أمامي فجأة كائن نورانيٌ، لم يكن غريب الشكل لدرجة أن أنفر منه، بل كان على هيئة رجل عادي، لكنه يشع نورًا من جسده الذي لا يستره سوى قطعة قماش بيضاء. اندهشت وسألته: "كيف ظهرت من العدم؟" فنظر إليّ بعينين ذاهلتين دون أن يجيب، ثم أمسك بالقلم الذهبي المعلق بجوار الإطار المضيء ووقف يفكر. أعدت عليه السؤال، ظنًا مني أنه لم يسمعني جيدًا، فالتفت إليّ مرة

أخرى وقال:

- ليس لديّ الوقت لأشرح لك شيئًا، كل ما أستطيع قوله هو ألا تحكي عن أي شيء مما رأيته هنا عندما تعود إليهم.

- "إليهم"؟!! ماذا تقصد بـ "إليهم"؟! وأين نحن الآن؟

- لا، لا... لن نجلس ونتسامر هنا، ليس لديّ وقت لك. قالها ثم كتب شيئًا داخل الإطار المضيء. أعتقد أنه كان يكتب أرقامًا، وبعد أن انتهى من الكتابة، بدا عليه الألم للحظات، ثم اختفى فجأة كما ظهر، لم أندهش كثيرًا، فقد شعرت أنني ربما داخل حلم، ولطالما رأيت في أحلامي ما هو أكثر غرابة من ذلك، لكني عدت وتساءلت: هل من الممكن أن يكون الحلم ثلاثي الأبعاد؟! لا، بل ثماني الأبعاد!

على أي حال، أكملت المسير نحو الضوء الساطع بعدما اختفى الرجل، اقتربت من هذا النور الذي كان يزداد سطوعه كلما اقتربت منه، حتى وصلت إلى نهاية الممر، اشرأبثّ ومددت جذعي للأمام، محاولًا اكتشاف ما وراء هذا الضوء الساطع، لكني شعرت فجأة بشيء أشبه بالجاذبية يجذبني إلى الخلف. تقهقرت خطوتين، فصدمت بشخصٍ ما، استدرتُ لأرى من هو، واندهشت عندما رأيته، كان رجلًا هرِمًا مُمسكًا بصولجانٍ ذهبيّ، يبدو وكأنه هارب من روايات الخيال العلمي، يرتدي رداءً أبيض، له ذقن وشعر طويلان أبيضان، لم أجد ما أقوله له سوى أن أسأله بسذاجة طفل صغير: - هل أنت ملاك؟!

ابتسم ابتسامة ودودة دون أن يجيبني، فكررت عليه سؤالي بشكلٍ آخر: - من أنت؟

سكت قليلًا مُتأملًا تعابير وجهي ثم قال لي: - لا تحاول النظر إلى ما بعد تلك الردهة؛ لأن وقتك لم يحن بعد.

حاولت أن أستفسر منه عن كلامه، لكنه لم يجبني، بل كرر الجملة نفسها، وكان مُصرًا عليها. حاولت تغيير الموضوع بسؤاله عن الأُطُر المضيئة على الجدار، لكنه لم يجبني أيضًا، وكرر مبتسمًا: - وقتك لم يحن بعد.

ألححت عليه ليخبرني أي شيء، وطالما لم يحن وقتي لاجتياز تلك الردهة؛ فعلى الأقل يشرح لي ما هي تلك الأُطُر. أجابني حينها باقتضاب: - بعد ما حدث لك في القبر، أصبحت روحك سامية، ولمعرفة المزيد عليك أن تسأل من هم مثلك.

قال ذلك واختفى، عدت إلى تلك الأُطُر المضيئة مرة أخرى وحاولت تفحصها، فكرت في أن أطرق عليها، لكني خشيت أن يكون ذلك مُهلكًا لي، فكرت في أن أمسك القلم المعلّق بجوارها، وفجأة ظهر لي شخص آخر، يشبه الذي رأيته من قبل، وقد بدا عليه الدهشة والانبهار. سألته: أين كان، وما هذا المكان، فقال لي في عجالة:

- ليس لدي الوقت لأشرح لك، كل ما أستطيع قوله هو أن أرواحنا شفافة، سامية، وأنت كذلك مثلي طالما تقف هنا الآن، ليس كل الأشخاص مثلنا؛ لذلك استمتع بكونك صاحب الروح السامية.

كان صبري قد بدأ ينفد فقلت له: - حسنًا، سأستمتع، ولكن أخبرني، أين نحن الآن؟

أجابني: - نحن في البرزخ!

من قراءاتي الكثيرة، أعلم أن البرزخ هو المنطقة الفاصلة بين الحياة والموت، ما يعني أنني عالق في هذا المكان، بدا هذا التفسير منطقيًا نوعًا ما، ورغم أنني قرأت كثيرًا عن البرزخ، لم أقرأ وصفًا واحدًا لهذا الذي أراه وأعيشه الآن، وجدتُ الرجل يمسك القلم ويكتب على الجدار، داخل الإطار، فاغتنمت الفرصة وسألته بفضول عما يكتبه، فنظر إليّ بعينين لامعتين، قائلًا بحماس:

- اكتب التاريخ الذي تريد الولوج إليه، وانتظر ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ، كما أخبرتك، أرواحنا سامية، وتستطيع الدخول إلى أي زمن من هنا، والامتزاج مع الجسد الذي سكنته روحك في تلك الفترة، الآن يجب أن أتركك، فلدي الكثير لأكتشفه، ولا وقت لدي لأضيعه.

قالها وكتب رقمًا ما، ثم أمسك رأسه بكلتا يديه وصرخ متألمًا، واختفى فجأة. وقفتُ أمام الإطار المجاور، وأمسكت القلم الذهبي بيدٍ مرتعشة، ثم كتبتُ داخل الإطار رقمًا عشوائيًا، وكان الرقم الذي خطر في ذهني حينها ١٥١٧. مرت ثانية... ثانيتان... ثلاث ثوانٍ...

قبل مرور الثانية الثالثة، شعرت بألمٍ شديد وهزة قوية انتابت جسدي، ثم قشعريرة، حلّ بعد ذلك ظلام دامس فجأة قبل أن يشع ضوء ساطع من حولي ويغمر جسدي بالكامل، بل يغمر كل شيء من حولي، شعرت بجاذبية تدفعني دفعًا نحو هذا الإطار.

ثم...

-٤-

أبريل ١٥١٧ م

...وفي يوم الأربعاء، الموافق للسابع من شهر ربيع الأول سنة ثلاثٍ وعشرين وتسعمائة من هجرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك يوافق الثالث من شهر أبريل لسنة سبع عشرة وخمسمائة وألف من السنين الميلادية، جرت الأمور كما هو المألوف في هذه البلاد، تحت سلطان الدولة العثمانية التي استقر لها الحكم في تلك الديار، بعد أن تسلم الضبع سليم الأول مقاليد مصر والشام، واستتب له الأمر بما شاء الله من أقدار، وكانت الأيام تمضي بطيئة في عيون الناس، وهم يشهدون تبدلات الزمن وتقلباته بين حكامٍ وأحداثٍ تكتبها الأقدار على صفحات التاريخ.

لا أدري كيف وقع لي ما وقع، إذ رأيتني وقد صرتُ رجلًا في الأربعين من السنين، وليس في ذلك عجب كبير، إلا أن العجب كل العجب أنني لم أكن أنا، عمر مدكور، بل وجدتني قد حللتُ في جسد رجل آخر أعرفه معرفة تامة، اسمه دمرداش بن غراب. وكيف لا أعلمه، وقد كان ذكره يمر في خاطري وكنت أعلم كل أمره، إلا أنه هو لا يدري عني شيئًا.

فأعيد القول، وأؤكد للسامعين، والقارئين، أنني، عمر مدكور، أكتب الآن فأؤكد لكم أنني في اللحظة الراهنة قادر على قراءة ما في صدر دمرداش بن غراب وما يدور في خلده، مُطلع عليه، أدرك مخاوفه، وأستطيع قراءة أفكاره كأنني هو نفسه، أسمع ما يسمعه وأرى ما يراه، وأحس بما يحس به دون أن أستطيع أن أغيّر من حاله شيئًا،

أنا عقله الباطن، والواعي أيضًا، وحقًا أقول: إن هذا الأمر مهيب وفي الوقت عينه مثير للعجب، وما أشد رهبة أن تَعلم أن روحك كانت، في يوم من الأيام، ساكنة في جسد هذا الرجل، وإني أعيشه الآن، أو لعله هو من يَعيشني، فلا فرق ظاهر بين الحالين!

لا لا لا، أود أن أستدرك وأقول: المعذرة على ما سلف من الكلام، فقد كان خللًا في العبارة، الحق أنني أنا من يعيش دمرداش، لكنه لا يعيشني، وما أوسع الفرق بين الحالين، فإني أدركه تمام الإدراك، بينما هو لا يشعر بي ولا يحس بوجودي.

عندئذٍ تذكرت، وظهر لي في ذهني واضحًا، أنني دمرداش بن غراب، خادم في قصر السلطان العثماني، وأنا "جاشنكير" أي المتذوّق لطعام السلطان قبل أن يصل إليه، فإن أصابني الموت فلا دية لي؛ إذ هذا هو عملي الذي أعطى عليه الأجر، وإن بقيت سالمًا، كان في ذلك إشارة على أن الطعام مأمون، فيرفعونه إلى السلطان سليم الأول، ليأكل منه وهو مطمئن البال، هادئ السريرة.

وفي تلك اللحظة، إذ كنتُ جالسًا في داري الكائنة بحي الغوري، أرى بعينيّ بوابة الفتوح أو باب زويلة من مكاني، أمامي رقٌّ من جلد الماعز، وقلم ودواة حبر، أخطُّ ما جرى من الحوادث والأحداث قبل أيام، تلك التي شهدتها بنفسي ورأيتها بعيني، لأرسلها إلى المؤرخ الفاضل، خالد الذكر سيدي محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الجركسي الناصري القاهري، وقد كنت أحد المقرّبين إليه، ممن يعاونونه على جمع أخبار القاهرة وما يجري بها من وقائع ، القاهرة التي كانت يومًا تنبض بالحياة، وصارت اليوم مسرحًا للفتن

والمصائب.

ومما هو معلوم للناس، أنني جاشنكير في خدمة ساقط المروءة، ضئيل النفس سليم الأول، غير أن قلة قليلة يعلمون أنني في الحقيقة أضمر عداوة شديدة لهؤلاء الغزاة الطغاة، الذين دنّسوا أرض مصر، وجاؤوا لنهب خيراتها، فعملت المستحيل حتى دخلتُ قصر هذا الأبتر المتغطرس، منتظرًا الساعة المناسبة كي أُنزل عليه الضربة القاضية، انتصارًا لسيدي وولي نعمتي، مولاي السلطان طومان باي، أعظم السلاطين المماليك الذين قدموا إلى المحروسة.

ولم يكن عملي في قصره إلا غطاءً أستر به تحركاتي؛ إذ جمعت الأخبار في الخفاء، أقتنصها من هنا وهناك، حتى إذا جاء أوانها ضمّها ابن إياس في كتابه "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، وهو الكتاب الذي سيؤرخ لأعظم المصائب التي حاقت بمصر في تلك الأيام العصيبة، إذ لم يكن هنالك موضع شبرٍ واحدٍ يشعر فيه المرء بالأمان.

آنذاك أدركتُ - أنا عمر مدكور - لماذا كانت تأتيني نوبات الغثيان، ويخفق قلبي بشدة كلما مررتُ من تلك الأماكن.

كانت الشمس في تلك اللحظة توشك على الغروب، وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، تاركة حمرتها كحمرة الوداع على خد الأفق، وبينما كنتُ أتهيأ لكتابة أمرٍ ما، إذ بي ألمح القمر في السماء من نافذتي، وقد بدا لي كأنه قرر النزول إلى الأرض، فالتفتُّ، وإذا بي أرى ست الحسن والجمال، كريمان، الكريمة ابنة الشيخ سراج الدين الصفدي شهبندر التجار، تلك التي تملك عينين قاتلتين، تُذيبان القلوب.

هرعتُ نحو النافذة، فألقت عليّ بنظرة واحدة جعلت قلبي يخفق

حتى كاد أن يخرج من بين ضلوعي، فتركت كل شيء بيدي، مُلبّيًا نداء القلب الملهوف، خرجت من داري، وسرت خلفها، وقلبِي مُلتاعٌ، حتى وصلت إلى حديقة ذات أشجار باسقة، وقفت هناك خلف إحدى الأشجار وكأنها في انتظارٍ لي، دنوتُ منها، وأغمضتُ عينيّ، أتنسم عطرها الفاتن الفوّاح، فتملكتني نشوة عارمة، كأنما ذابت كل خلية في كياني، وتمعنت في إذابتي حين رفعت عن وجهها "اليشمك"، فإذا بوجهها الصبوح، الذي لو تأملته خمسين عامًا، ما شعرت بملل أو ضجر قط.

كنت أراها بعينى دمرداش بن غراب الذى يعشقها؛ لأنها كريمان، أجمل فتاة في المحروسة، غير أن حبي لها كان أعمق؛ إذ كانت صورةً طبق الأصل من خلود، كانت لكريمان العينان الحالمتان نفسها، ولون الشعر وطوله نفسه، والشامة نفسها مرسومة بإتقان على خدها، إلا أن الفارق الوحيد أن شامة كريمان كانت في خدها الأيمن، وأما شامة خلود فكانت فى الخد الأيسر، ولعلها كانت أطول منها قامةً بقليل، إذ أحسست أن كريمان أطولُ قليلًا.

وفيما كان دمرداش غارقًا في تأمل وجه كريمان المليح، وقد احمرّت وجنتاها خجلًا، استرقتُ بنظري إلى المكان حولي، كان المكانُ الذي نقف فيه حينها سيُعرف لاحقًا ببيت السحيمي!

ابتدرتني كريمان وهي تحدّق في عيني: - ما بالك يا دمرداش؟ لماذا أراك ساهِمًا؟ ألحظ في عينيك حزنًا دفينًا، ولم يكن هذا اليوم فقط، بل منذ فترة وأنت كذلك.

فقلت، وقد اكتست ملامحي بالجدية: - لا شيء يا كريمان يُفرِح

القلب، السلطان طومان باي هارب، وابن عثمان الدنس يطارده هو وجرذانه، ومسألة زواجنا الذي تأخر أكثر من مرة، والخطر الذي يحيط بنا من كل صوب، لا أمان في المحروسة كلها، لا أمان.

فقالت كريمان بحنوٍّ وابتسامة ملؤها الأمل: - ارمِ حمولك على المولى يا دمرداش، غدًا سيعود السلطان طومان برجاله ويخلّصنا من هذا الغاصب، وسنتزوج وننجب أطفالًا ونعيش في فرحةٍ وحبور.

قالتها، وهي تدس يدها في نطاقها لتخرج رقًّا قبل أن تستطرد:

- خذ هذه الرسالة، اقرأها حين تعود إلى دارك، لقد سهرتُ الليلة الماضية لأكتبها لك، وفي ظهرها رسمت وجهك بجانب وجهي.

فقلت، وقد شعرت بالسعادة تغمرني: - ليس في الكون من هو أسعد مني الآن! كريمان، أجمل فتاة في المحروسة، وأمهر رسامة في الدولة المملوكية، تحبني، وتكتب لي رسالة، وترسمني!

أطرقت برأسها خجلًا، وبينما كنت أتأمل حسنها الزاهر المتوهج، رأيت دمعة تسقط من عينيها، فقالت بحزن: - ليتنا التقينا في زمانٍ غير هذا يا دمرداش.

فضحكت مُتهكمًا: - ليتنا، ليتنا يا كريمان.

قرأت في عينيها حزن العالم كله قبل أن تذرف دمعة سخينة سقطت على وجهها البهيّ، ثم ارتمت في صدري، فأخذتُ أربت على ظهرها لأهدئ من ارتجاف بدنها. وفي تلك اللحظة، سمعتُ وقع أقدام قريبة منا، قبّلتُ يدها وأشرت لها أن تعود إلى دارها، وقبل

أن ترحل، تلاقت عيني بعينيها الوادعتين، وقالت بصوتٍ مرتعش: - أحبك، أحبك يا دمرداش.

فابتسمتُ لها، محاولًا كبح دمعة تلح عليّ إلحاحًا أن تسقط، فقبّلتُ شفتيها، ورحلت، فمشيت وراءها حتى اطمأننتُ أنها اقتربت من دارها، ثم عدتُ إلى داري لأكمل ما كنت أفعله، لم يكن لدي وقت لأضيّعه، إذ أمامي ساعة لأفرغ من تدوين الجزء الذي يخصني، فأرسله إلى ابن إياس مع أحد الغلمان.

دخلت داري، وفردتُ اللوح، وأحضرت دواة الحبر لأبدأ في كتابة ما شهدته منذ أيام، من قتل ونهب الضبع الدنيء ابن عثمان، سليم الأول، لخيمة المولد التي كانت في القلعة:

"...وفى يوم الجمعة حادي عشر ربيع الأول كانت ليلة المولد النبوي، فلم يشعر به أحد من الناس، وبطل ما كان يُعمل في ليلة المولد من اجتماع القضاة الأربعة والأمراء بالحوش السلطاني.. وأشيع أن ابن عثمان لما طلع إلى القلعة وعرض الحواصل التي بها، فرأى خيمة المولد فأباعها للمغاربة بـ ٤٠٠ دينار، فقطعوها قطعًا وباعوها للناس ستائر وسفرًا، وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا، لم تر مثلها في الدنيا قط، قيل إن مصروفها على الأشرف قايتباي ثلاثون ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وكان بها تجمّل لما تنصب يوم المولد الشريف، وكانت كهيئة القاعة ولها أربعة لواوين، وفوقهم قبة بقمريات والكل من قماش، وكان فيها تقاصيص غريبة، وصنايع عجيبة، لم يُعمل الآن مثلها أبدًا، فكانت إذا نُصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة إنسان حتى

ينصبونها في الحوش السلطاني. وكانت من جملة شعائر المملكة فبيعت بأبخس الأثمان، ولم يعرف ابن عثمان قيمتها، وفقدتها الملوك من بعده، فحصل منه الضرر الشامل، وهذا من جملة مساوئه التي فعلها بمصر..."

وفي تلك اللحظة سمعت طرقًا عنيفًا على باب داري، فقمت إلى الباب، فلما فتحته إذا بي أجد غلامًا يلهث ولا يكاد يلتقط أنفاسه، أشرت له بالدخول، إلا أنه هزّ رأسه بالسلب، وقال لي: "انكشف أمرك لدى سليم الأول، وقد أرسل للتو ثلاثة من جنوده ليقبضوا عليك".

فوقع كلامه عليّ كالصاعقة، وما أتم الغلام حديثه حتى اكفهر وجهي حين رأيت الضباع يقتحمون الدار، وقد ألقوا القبض عليّ وأودعوني سجن باب زويلة. هناك في ضيق المحبس، حيث ضاق عليّ المكان وانقضّت عليّ الهموم كالنسر الجارح، رفعت رأسي إلى السماء من نافذة ذات قضبان حديدية غليظة، فإذا بالشمس تطلُّ عليّ، ثم مرت أمامها السحب مسرعة، كأنها خيول تركض بلا هوادة، وهاجم الليل بعدها بسرعة، ثم عاد النهار ومزّت الشمس ثانية، فإذا بالليل يسبقها من جديد. تساءلت في نفسي: "ما الذي يجري؟"، ولم لا أجد لأسئلتي جوابًا!

لم تمضِ دقائق حتى شعرت أن أيامًا عديدة مزّت، كأنّ عشرة أيام قد انقضت في لحظة، وبينما أنا في حيرتي إذا بأحد الحراس يدنو مني، ناداني باسمي واقترب من الباب، ثم همس في أذني:

- يا دمرداش، إني مثلك، من أتباع السلطان طومان باي، وقلبي يغلي كرهًا لهذا الدخيل ابن عثمان، ولكني عبد المأمور.

ثم أطرق برأسه في أسى واستطرد، ليخبرني ما هو أسوأ خبر سمعته في حياتي: - لقد قبضوا على السلطان طومان باي، ومن المقرر أن يُعدم غدًا شنقًا.

عضعض هذا الخبر فؤادي ومزّقه، وشعرت كأن روحي تُنتزع مني انتزاعًا، لم تستطع قدماي أن تحملاني، فجثوت على ركبتي كمن انهارت عليه جدران قلعة حصينة، ووجدت نفسي أهوي من قمة جبلٍ شاهق إلى هاويةٍ لا قرار لها، أسندت ظهري إلى جدار المحبس الضيق، ولم أجد ما يعينني على هذه الكارثة سوى رسالة كريمان التي كانت معي؛ فأخرجت الرسالة من طيات ملابسي، وأخذت أتأمل حروفها التي خطتها بيدها الرقيقة، والعطر الذي كان يفوح منها تسلل إلى صدري فأذابني. قرأت الرسالة وقد غلبتني دموعي، وابتهلت إلى المولى أن يمر يوم الغد بسلام، وأن يعفو سليم الأول عني وعن بقية المماليك، وألا يقتلني مع البقية.

وفي خضم هذا الألم، خشيت أن يقتحم أحد حراس ابن عثمان الغرفة ويرى رسالة كريمان، فيأمر باستدعائها ويُلحق بها وبوالدها الضرر، فبحثت عن مكان أُخبئ فيه الرسالة، فنظرت حولي، حتى وقعت عيني على حجر بارز في الجدار المقابل لي، تقدمت نحوها وحاولت تحريكها، فإذا بها تتحرك بسهولة، فوضعت الرسالة داخلها، ومعها خاتمي المصنوع من الفضة، الذي كنت أضعه في بنصري، ثم أعدت الحجر إلى موضعه كما كان.

وفي تلك الساعة التي امتزج فيها نور الفجر بظلمة المحبس، جمعت بيدي حفنة من تراب الأرض التي طالما وطأتها أقدام

السلاطين، وخلطت ذاك الثرى بقليل من الماء الذي ساقه إليّ السجان صباحًا، عكفت على صنع عجينةٍ من هذا الخليط، ثم سددت بها الفجوة التي انفتحت بين الحجر وجدار المحبس، حتى بدا كأن الحجر لم يُقتلع قط من موضعه، رفعت رأسي إلى السماء من خلف القضبان، وتوسلت إلى البارئ بقلبي المعتل المثقل بالهموم، داعيًا أن يكتب لي عودة إلى هذا المكان، بعدما ننتصر على ابن عثمان وينجو سيدي السلطان طومان باي من محنته.

وفي تلك اللحظة، انفتح باب السجن على مصراعيه، وأُخذتُ مع نفرٍ من رفاقي إلى حيث كان السجن يغص بمن كُتب عليهم البلاء، فما كان إلا نهارًا قد بزغ بغتة، لم أدرك كيف حل بهذه السرعة، كنت واحدًا من خمسة وعشرين نفسًا ممن انكشفت أمورهم لدى الخنزير الدخيل سليم ابن العثمانيين، وكنا حينها قد غُدنا للغصة واللوعة، إذ رأينا كلاب السلطان يقتادون مولانا وسيدنا طومان باي إلى حبل المشنقة.

وقف مولاي بثباتٍ عظيم، ذو هيئة مهيبة، إذ إنه كان مديد الطول، مشدود القامة كأنه جذع شجرة عتيقة، نظر إلى المشنقة باستهزاء من كانت الدنيا بين يديه، فطلب من الحضور أن يقرؤوا له الفاتحة ثلاثًا، فبسط يديه ورفع صوته بالفاتحة، وأخذ الناس من حوله يرددونها من بعده، وقد خيّم على الجميع سكون الحزن والرهبة، ثم صعد سيدنا على درجات المشنقة بخطى وئيدة حتى بلغ حبلها، وحينما التفت إلى المشاعلي، نطق بقولته الشهيرة التي خلدها الدهر، وعلى وجهه ابتسامة كأنما كان يرى ما وراء هذا الفناء:

"اعمل شغلك"

ثم دنا منه الجلاد وهو باكٍ، فغطى رأسه بحبل المشنقة، فلف الحبل حول رقبته، ورفعوه فسقط مولانا على الأرض عند عتبة باب زويلة، رفعوه مرة أخرى فسقط، ثم كرروا الفعل للمرة الثالثة بعدما كشفوا رأسه الشريفة هذه المرة، فرفعت روح مولانا إلى بارئها، وفور زهوق روحه، ضج الناس بالصرخات العالية، وانطلقت آهاتهم حتى كادت تخترق عنان السماء.

عندها، انغمرتُ في البكاء، صرختُ من أعماقي صرخة شُقت لها حنجرتي: -يا بن عثمان يا ضبعَ النوايا وخسيسَ الفعل! يا نذلَ الأخلاق وأرذلَ الناس! يا ساقطَ المروءة، والله، إنك لأحقر من أن يُذكر بين الرجال، فما أنت إلا كلبٌ يتبع القُتات، يا سافلَ الهمّة وضئيلَ النفس، لقد جُبِلتَ على الخيانة واللؤم، وما في قلبك ذرة شرفٍ أو نخوة، ما تركت للنذالة مقامًا إلا وجلست فيه، يا عديمَ الوفاء وأبترَ الصدق، والله ما فيك إلا خبثُ الثعالب وغدرُ الذئاب و...

لم أكمل ما أقوله، إذ بي أرى الحراس والجنود يهجمون علينا بسيوفهم كالعاصفة الهوجاء، هجموا بغدر، وأخذوا يقطعون رؤوسنا واحدًا تلو الآخر. وبينما كان سيف الجلاد يهوي على عنقي، لمحت وجه كريمان، أو خلود، طيفها الأخير كان آخر ما رأيته قبل أن تغرق الدنيا في ظلام لا نهاية له.

لم يستغرق الألم سوى ثانية واحدة، ثم انتفضتُ لأجد نفسي عدت إلى المكان نفسه الذي كنت واقفًا فيه، أمام الإطار الفيروزي المضيء شعرتُ أن الدم ينهمر من عنقي كأنه نافورة، تلمست رأسي مذعورًا

لأجده ما زال فوق كتفي! غير أنني كنت متعرقًا وأشعر بالعطش. التفتُّ حولي بحثًا عن شربة ماء، فلم أجد، لكني رأيت شخصًا يتقدم نحوي من بعيد، كانت الحيرة بادية على وجهه، تلك الحيرة التي كانت على وجهي حينما جئت إلى هنا. سألني عن هذا المكان وهذه الإطارات الفيروزية المضيئة، وعن الضوء الساطع في نهاية الممر، لكن انبهاري بما رأيته وعايشته منذ لحظات جعلني لا أكترث له ولا ألقي له بالًا. التفتُّ مرة أخرى نحو الإطار الفيروزي الذي أقف أمامه، وبينما كان الرجل يكرر عليّ أسئلته، التقطت القلم الذهبيّ وكتبت أول رقم خطر على بالي حينها.

١٨١١

ارتعشت فجأة ورأيت نورًا ساطعًا يغمرني، ثم انطفأ بسرعة، فوجدتني واقفًا أمام بوابة عرفت من شكلها أنها باب العزب في قلعة صلاح الدين، وبجواري رجل يربت على ظهري بحنان! لاحظت حينها أن مجال رؤيتي أصبح أوسع بكثيرٍ مما اعتدت عليه، ولم يمضِ وقت طويل حتى أدركت أن روحي في تلك اللحظة كانت تسكن جسد حصان عربيّ أصيل، لم أعد أندهش من أي شيء، لكن ما أدهشني حقًا هو اكتشافي أن الحيوانات، بل كل الكائنات من حولي، كانت أرواحها في يوم ما تسكن أجساد بشر عاديين.

رأيت مثلًا كلب حراسة مقيدًا من رقبته بسلسلة حديدية يمسكها أحد جنود الوالي محمد علي باشا، نظر إليّ وأخذ ينبح، وقد فهمت ما كان يريد قوله لي، كان يسألني إن كنت أشعر بالخطر المحدق مثله، فهززت له رأسي موافقًا: نعم، أشعر. اكتشفت حينها أن نباحه

بالنسبة للبشر ليس إلا نباحًا، لكن بالنسبة لي كان كلامًا مفهومًا.

سرعان ما انضم جنود آخرون ومعهم كلابهم، وتجمعوا بطول الممر الذي ينتهي عند باب العزب، كان هذا اليوم مزدحمًا بشكل غير عادي؛ حيث دعا محمد علي باشا جميع طوائف الشعب إلى مأدبة كبيرة، وهنا أدركت أنني أعيش التاريخ (Live - بث مباشر)، صوتًا وصورة، أعيش اللحظة التي ستغير تاريخ مصر؛ فقد كان اليوم هو الأول من مارس عام ١٨١١، مذبحة القلعة!

قاطع تفكيري صوت الأبواق التي انتشرت في الأرجاء، وبدأ المدعوون يمرون بجواري عبر باب العزب، حينها رأيت طوسون باشا، تفاصيل كثيرة لا مجال لسردها الآن، لكن المهم هنا هو أن المماليك تم احتجازهم بالداخل، خلف باب العزب، أُغلق الباب علينا، وفي اللحظة التي تفاجأنا فيها بانطلاق البارود من الأعلى يمينًا ويسارًا، انطلقت صيحات الموت والخيانة من كل زاوية، كان القتل سريعًا شنيعًا، والغدر أشنع، ملأت الدماء أروقة القلعة، رأيت رؤوسًا تتطاير، ودماءً تجري كالسيل، رجالًا اعتادوا على قيادة المعارك تُسقطهم الخيانة في لحظات، لم تكن تلك ساحة قتال، بل كانت قيامة حقيقية، مذبحة شنيعة، لا شرف فيها ولا رحمة.

لكن الرجل المملوكي الذي قفز فوق ظهري يبدو أنه أدرك الفخ وشعر بالخيانة مع أول طلقة بارود وُجّهت نحو المماليك، شدّ لجامي لأستدير، فاستدرت بخفةٍ بالغة، ضربني بساقيه على جانبي، فركضت هاربًا من تلك المذبحة، ركضت وكأني أركض مع الريح، حاميًا الرجل الذي أدركت الآن اسمه عندما صاح أحد جنود الوالي

محمد علي باشا: - أمسكوا المملوكي الهارب أمين بك!

حينها أدركتُ من الذي يمتطيني؛ إنه أمين بك، الناجي الوحيد من مذبحة القلعة، حاولتُ استجماع التفاصيل التي يجب أن أتذكرها، لكن لم يكن هناك وقت، استلَّ سوطًا معلقًا في رقبتي وضربني به، فركضت بأقصى سرعتي، موجِّهًا لجامي نحو السور... السور؟!

حينها أدركت أنني أعيش آخر لحظات حياتي، حينها فهمت لماذا كنت أشعر بالغثيان كلما مررت بهذا المكان، وصلت إلى حافة السور، وأدركت أنني الحصان الذي قفز بأمين بك من أعلى سور القلعة هربًا من تلك المذبحة، لينجو هو بحياته مقابل موتي أنا! نوبة الإعياء نفسها هاجمتني حينما قفزت وسقطت بكل ثقلي وعلى ظهري أمين بك من ارتفاع ثلاثة وعشرين مترًا، لحظة الاصطدام بالأرض كانت قاسية، سمعت صوت عظامي تتحطم، الألم اجتاحني كعاصفة، وبينما كانت روحي تتلاشى مع آخر نفس، رأيت أمين بك يُقبِّل ناصيتي قائلًا:

- آسف جدًا يا صديق العمر، كان يجب أن أضحي بك مقابل نجاتي.

قالها وهرب، تاركًا إياي لأعيش آخر ثلاث ثوانٍ من حياتي.

ثانيتين

آخر ثانية

فجأة غمرني الضوء مرة أخرى، لأعود إلى النقطة نفسها، إلى الإطار الفيروزي المضيء، ألتفت حولي كالمجنون، وفي عينيّ نظرات اندهاش ممزوجة بانبهارٍ لم أشعر به من قبل، تذكرت حينها

قول أحدهم لي أنه لا يملك وقتًا كافيًا للتحدث معي، تساءلت في قرارة نفسي: "ما معنى هذه الجملة؟" هل يمكن أن أعود للدنيا في أي وقت؟

وجدتني أجيب على نفسي مستخدمًا المنطق: "نعم، بالتأكيد، فهذا شيء منطقي، أنا الآن في البرزخ، متأرجح بين الحياة والموت؛ لأن قلبي متوقف عن العمل، وجسدي في الأسفل، داخل غرفة العمليات، يعمل بجهاز القلب والرئة الاصطناعي، متى إذن سيعيده ماجد إلى العمل؟!"

تراءى لي ألا أضيّع وقتي في معرفة من كنت في الماضي، بل يجب أن أتعرف على المستقبل، ماذا سأكون في المستقبل؟ ويجب أن أفعل ذلك الآن؛ لأنني لا أعلم متى سأعود بالضبط. كتبت على اللوح "٢٠٤١" وانتقلت إلى هناك، فوجدت نفسي كلبًا ضالًا، أو بمعنى أدق، كلبًا من كلاب الشوارع التي كنت أركلها عندما كنت إنسانًا!

نظرت حولي لأتعرف على المكان الذي أنا فيه الآن، معظم الشوارع تغيّرت ملامحها، لكني أدركت أنني في حي العباسية، وأدركت شيئًا آخر أهم، بل أخطر؛ أنني في هذا العام لن أكون حيًا بالتأكيد، سأكون - كعمر مدكور - ميتًا، رفعت رأسي إلى السماء لأناجي الله، لكني تفاجأت بسيارة مُقبلة نحوي بسرعةٍ مُذهلة، فتفاديتها برشاقةٍ بالغة، حينها لمحت حوالي خمسة كلاب يُهرعون نحوي وهم ينبحون، وكان نباحهم مفهومًا لي، وعرفت أنهم يريدونني أن أبتعد عن تلك المنطقة التي يفرضون سيطرتهم عليها، فهربت مبتعدًا، رأيت قطة جالسة تنظر إليّ بشفقة، أصدرت مواءً فهمت منه بسهولة أنها تسألني:

"أي منطقة تسكن فيها؟ وأي جماعة تنتمي إليها؟" هززت رأسي بأنني لا أعرف شيئًا، لكني أريد الذهاب إلى حي مدينة نصر، وأشعر بالخوف من قطع تلك المسافة التي كنت أقطعها بالسيارة في أقل من خمس دقائق، فنصحتني أن أسلك طريق المساكن التي تهدمت منذ خمسة أعوام، وددت أن أسألها لماذا تهدمت، لكن كان لديّ ما هو أهم. أريد أن أرى ابنتي، ثم أرى خلود، سلكت الطريق الذي وصفته لي تلك القطة، وأخذت أركض وأركض لمدة ساعة ونصف، شعرت أن امتلاكي لأربعة قوائم شيء رائع للركض، ومريح أيضًا. وصلت أمام البيت بعد ربع ساعة إضافية. كان المنزل كما هو، لكنه بدا قديمًا، فكرت في الصعود إلى الطابق الرابع، حيث أسكن، لكن ذلك سيخيفهم بالتأكيد، ومهما نبحت، لن تفهمني سما على الإطلاق. وربما في طريقي للأعلى أقابل على السلم رجلًا مثلي حينما كنت إنسانًا، ويركلني بقوة أو يحملني ويلقيني من أعلى!

آثرت أن أقف أمام العمارة أنتظرها، ولم يمض وقت طويل حتى رأيتها تخرج من العمارة، ومعها نجلا وإياد. اقتربت من سما بهدوء، ومشيت خلفها حتى توقفت عند السيارة، تفاجأت بإياد يركلني بقوة على ظهري ثم يسبني بأقذع الألفاظ، وبّخته سما على ما فعله، ثم انحنت بجذعها عليّ وأخذت تربت على ظهري، حينها لمحت عينّي وقد اغرورقتا. أخرجت من سيارتها علبة بها نصف وجبة دجاج، ثم ربتت على ظهري مرة أخرى، حينها طلبت نجلا منهما الإسراع كي لا يفوتهما موعد الطبيب. لا أعرف من فيهم يريد الذهاب إلى الطبيب، لكني في قرارة نفسي دعوت ألا تكون سما، ابنتي، حبيبتي، التي ما زالت محتفظة بجمالها رغم تقدم عمرها، أعتقد أنها الآن في الثلاثين

من عمرها، أو أكثر قليلًا.

ركبوا السيارة وانطلقوا، ثم هجم عليّ مجموعة من الكلاب وسرقوا مني وجبة الدجاج، وسط كل هذا النباح، لمحت كلبة تتقدم نحوي بسرعة كبيرة، وهاجمتني بشراسةٍ بالغة، حتى جرحتني في رقبتي. التفت إليها فعرفت أنها حسناء، اندهشت وسألتها: "متى متِّ؟" لأنها طالما على هذه الهيئة، فهذا يعني أنها ماتت بلا شك!

لم ترد عليّ، بل استمرت في مهاجمتي بقوة، وكأنها تريد الانتقام مني، حاولت أن أبتعد عنها لأمتص غضبها، ثم أستفهم منها ماذا حدث لكل ذلك، وبعدما فرغت من كل ما لديها من حنق، سألتها بهدوء: "ماذا حدث؟ ولماذا تفعلين هذا معي؟" فنبحت لتخبرني:

- لقد قُتِلتُ ذبحًا بعد دفنك بأسبوع، أي في الحادي والعشرين من الشهر نفسه، والسبب في ذلك هو ابن الكلب.. إياد.. ابنك.

في الحقيقة، لم أغضب منها، بل ابتسمتُ مُتهكِّمًا، فأنا بالفعل - حرفيًا - كلب! أردفت حسناء:

- لقد أخبرتَني أن الفيديوهات ستمسحها، وها هي قد وقعت في يديه.

نبحث لها وهززت ذيلي متأسيًا، طالبًا منها ألا تُكمل، فقد توقعتُ باقي القصة. سألتها:

- وبالطبع زوجك شوقي غربال هو الذي قتلك، أليس كذلك؟

- لقد كان يراقبني طيلة الفترة التي كان إياد يتردد فيها على البيت. يا للعجب! لقد خنته معك سنوات طويلة ولم يكتشف، ولكن

حينما فعلتُ ذلك مع شاب صغير، ورغمًا عني، بدأ يشعر ويراقبني!

- هل تحاولين إقناعي أنكِ لم تفعلي ذلك إلا معي؟ قلتها وضحكت، ثم استأذنتها ببرود لأرحل، سألتني إلى أين سأذهب، لم أجبها وابتعدتُ عنها دون أن أنبح، ورحلتُ متجهًا إلى منزل خلود، لم أحتج أكثر من نصف ساعة حتى وصلتُ ووقفتُ تحت عمارتها. تفاجأتُ حينها بالقطة التي ركلتها يومًا ما عندما كنت واقفًا أمام باب الشقة. في تلك اللحظة، أدركتُ وعرفت من تكون هذه القطة.

إنها جنة.. ابنة خلود.. التي ماتت.

تسمرتُ في مكاني، ولم أستطع التفوُّه بأية كلمة، وللحق، فقد رأيت منها أدبًا جمًا، ووجدتها مُتفهمة لكل ما فعلته، أخبرتني أن لديها الكثير لتقوله لي، شعرتُ حينها أنها تريد إخباري أمرًا مهمًا، سكتت قليلًا لترتب ما تريد قوله، ثم أخبرتني أن السيارة التي صدمتها كانت تقودها امرأة، وهذه المرأة هي نجلا، وكان يجلس بجانبها رجل ذو شارب كث.

سكتت لهُنيهة ثم بكت، كنتُ مصدومًا من كلامها هذا، بل مصعوقًا، سألتها عن تفاصيل أكثر حول هذا الرجل، فأخبرتني أنها لم تسنح لها الفرصة لمعرفة أكثر من ذلك؛ لأنها بعدما صدمتها السيارة، سقطت مغشيًا عليها، وصعدت روحها بعد ذلك، انهمرتْ أكثر فى البكاء، وأخبرتني أنها تفتقد حضن أمها كثيرًا، لكنها كانت تشعر ببعض الأمان عندما تنام أمام باب شقتها. وعندما رأت السعادة مُرتسمة على صفحة وجهها وهي معي، اقتربتُ منها وربتُّ على ظهرها ونبحتُ بصوت خافت:

- أمكِ يا جنة لم تنسكِ قط، كوني متأكدة من ذلك، ومهما كانت سعيدة، فتلك السعادة مؤقتة، لكن بداخلها أشياء كثيرة ماتت بموتك.

كان ذلك حين أقبل علينا بعض الصبية، يشيرون إلينا، وهم يضحكون:

- انظروا، كلب سيتزوج قطة، انظروا كيف يقترب منها ويربت على ظهرها بقدمه، هاهاها، انظروا.

التقط أحدهم عصا غليظة وهوى بها على ظهري، بعدها همّ ليضرب جنة، لكني وقفت أمامها مدافعًا قبل أن أهجم عليه، طلبت منها أن تختبئ بسرعة تحت أي سيارة، ففعلت. وفي تلك اللحظة، ضربني صبي آخر بعصا على ظهري. هجمتُ عليه وقضمت مؤخرته، فصرخ وانحنى ليلتقط حجرًا كبيرًا ليقذفه عليّ، ابتعدت عنهم وركضت هاربًا، فإذا بسيارة تصدمني بقوة في رأسي، فارتميت جانبًا لتدهسني سيارة أخرى قادمة من الاتجاه المقابل، لقيت حينها مصرعي، ولم أشعر إلا بالنور الساطع يغمرني بالكامل، ثم عدتُ مرة أخرى إلى المكان الذي كنت فيه.

أمام الإطار المضيء... والقلم

كنت ألهث بشدة، ولم أستطع التقاط أنفاسي، شعرت بأن حلقي متصلب وجاف، وبظمأ لم أعهده من قبل، لكني لم أعره اهتمامًا في تلك اللحظة، إذ فكرت في الذهاب إلى سنة ألف...

انقطع تفكيري فجأة حين ارتعشتُ بشدة، وشعرتُ بقلبي يرتجف

داخل صدري، وكل شيء حولي يتلاشى. كانت هناك جاذبية قوية تسحبني إلى الخلف. تراجعت وتراجعت وشعرت بدوارٍ شديدٍ، لأجد نفسي فجأة مُحلّقًا عند سقف غرفة العمليات، وأرى الأطباء في الأسفل منهمكين في العمل على جسدي المستسلم بينهم، كأنهم مهندسون ميكانيكيون يصلحون سيارة معطوبة. سمعت ماجد يقول لهم:

- أعيدوا الآن جسده إلى وظائف القلب الطبيعية بعدما تفصلونه عن جهاز القلب والرئة.

هزت مساعدته رأسها بالإيجاب، ونفذت ما طلبه، شعرتُ في تلك اللحظة بأنني سقطت فجأة من الأعلى، ثم غبت عن الوعي.

-٥-

بعد أربع أو خمس ساعات... لستُ متأكدًا

استفقت لاهثًا ووجدت نفسي راقدًا على سريري في غرفتي التي كنت فيها قبل أن أدخل غرفة العمليات، وما إن رمقتني الممرضة المُمسكة بحقنة، حتى ابتسمت لي وخرجت من الغرفة لتخبر ماجد أنني استفقت من التخدير، كنت أشعر بألمٍ شديدٍ في صدري، دخل عليّ دكتور ماجد ومعه لوح به بضع أوراق، بدت أنها تقارير تتعلق بحالتي.

- ما شاء الله، لقد استفقت قبل موعد استفاقتك بساعةٍ ونصف.

صاح ماجد، لم أستطع الرد عليه، دخلت الممرضة مرة أخرى، وقد انتهت من تجهيز الحقنة، استطرد:

- أعرف أن هناك ألمًا في صدرك، لا تقلق، هذه الحقنة سوف تقضي على ألمك هذا، والعملية بحمد الله كانت ناجحة نجاحًا مُنقطع النظير.

شكرته، وما زال كل ما رأيته في أثناء غيبوبتي يدور في عقلي، كان ذلك حين طرقت خلود على النافذة الزجاجية من الخارج، وكانت معها سما، التفت ماجد إليهما وأشار إليهما أن بإمكانهما الدخول، وما إن دخلتا حتى قبّلتني سما، وأمسكت خلود يدي وقبّلتها قائلة:

- ألف سلامة عليك يا حبيبي، لقد نجحت العملية، والآن أنت على ما يرام.

- كنت أقول له الكلام نفسه منذ ثوانٍ يا خلود. قال ماجد وهو منهمك في ملء التقارير ببعض الأرقام، ثم أضاف:

- أرقامك كلها ممتازة، أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر، وستكون قادرًا على الخروج وممارسة حيا...

قطعتْ دابر كلامه بأغرب جملة يمكن أن يسمعها طبيب، أو أي شخص على الإطلاق:

"أريدك أن تجري لي العملية مرة أخرى"

سكت للحظة، وقد ارتسمت على وجهه علامات الدهشة، ثم أطلق فجأة ضحكة وهو ينظر إلى خلود، التي ضحكت هي الأخرى، وفي تلك الأثناء، خرجت الممرضة التي أعطتني الحقنة وبالكاد استطاعت كتم ضحكتها.

- هذا تأثير بقايا التخدير. قال ماجد وما زال يضحك، لكني أعدت عليه الجملة نفسها بنبرة أعلى:

"أريدك أن تجري لي العملية مرة أخرى يا ماجد، أنا لا أمزح"

- حسنًا يا عمر، سأجريها لك. قال بنبرةٍ جادة.

أغمضت عيني وأنا أشكره، فأكمل مازحًا: - سأذهب لتناول العشاء وسأجريها لك بعدما أحتسي قهوتي، لا تقلق.

- أنا لا أمزح معك الآن، هل ستجريها لي أم أبحث عن طبيب غيرك؟

اقتربت خلود مني واضعة يدها على جبهتي وسألت ماجد: - هل

أنت متأكد أصلًا أنه استفاق من تأثير التخدير بشكلٍ كلي؟

- يا دكتور خلود، أنت طبيبة ولا يصح لكِ أن تسألي هذا السؤال، تأثير البنج انتهى منذ...

قاطعته مكملة ما سيقوله: - منذ ساعة ونصف تقريبًا، أعرف، ولكني أخشى من أن يكون قد أخذ جرعة أكبر اللازم.

قاطعث الهراء الذي يتناقشان فيه بأن صرخت: - لاااا، أريدك أن تجري لي العملية الآن.

- أهدأ يا أبي، ما بك؟ قالت سما بنبرة شفوقة، فصاح ماجد: - قولي له يا سما. ثم وجه كلامه لي:

- ما بك يا عمر، اهدأ، أنت لست صغيرًا، أنت بذلك تضر نفسك، الغرز حديثة وجرحك ما زال طريًا، ويحتاج منك أن تهدأ.

أغمضت عيني متذكرًا الممر، والإطار الفيروزي، والنور الساطع، التنقل بين الأزمنة، رؤية ومعرفة حقائق لم أكن لأعرفها حتى لو عشت خمسمائة عام، بكيت حينها بحرقة، فاقترب مني ماجد وربت على كتفي وهو يسألني: - ما بك يا صديقي؟ اهدأ أرجوك.

- أنا هادئ، وكل ما أريده أن تجري العملية مـــ...

اندهشت خلود حينها، ولم تقل سما عنها دهشة، فيما قاطعني ماجد: - ما هذا الذي تقوله يا عمر؟ هل جننت؟

- تستطيع أن تقول ذلك، سأصاب بالجنون لو لم تنفذ ما أطلبه منك.

لم يجبني، وظل ينظر لي صامتًا لا يدري ماذا يقول، رأيت حينئذ أنه من الأفضل أن أخبره بكل شيء:

- عدني أنك ستنفذ ما طلبته منك حينما أقول لك السبب.

ارتسمت الجدية على ملامح وجهه، وهو ينظر لي دون أن يتكلم لثانيتين، ثم قرر أن يسايرني، هز لي رأسه أن أكمل كلامي، وأقول كل ما لديّ، فأكملتُ:

- حينما أوقفت قلبي صعدت روحي وحلقت في سقف غرفة العمليات، رأيتكم وأنتم تعملون على جسدي، ليس هذا المهم، المهم هو أنني انتقلت لأزمنة مختلفة، كانت فيها روحي ساكنة أجسادًا أخرى، ليس فقط في الماضي، ولكن في المستقبل أيضـ...

نهض وأخذ معه تقاريره دون أن يأبه لكلامي الذي بدا له غثاء، قائلًا لسما أنه سيرسل الممرضة الآن لتعطيني حقنة تجعلني أنام، وسأصبح بحالٍ أفضل بعدها، انفعلتُ حينها وحاولتُ النهوض كي أوبّخه، لكن الألم في صدري أعادني إلى مكاني مرة أخرى، اقترب ماجد مني وهو يخلع نظارته ويفرك عينيه، ثم علّق نظره عليّ لثانيتين قبل أن يسأل خلود، وهو مقطّب جبينه ويشير إليّ بسبابته:

- هل هو يكتب رواية خيال علمي هذه الأيام؟ هزت خلود رأسها نافية، فسألها بصيغةٍ أخرى إن كنت أقرأ روايات فانتازيا؟ هزت له رأسها نافية أيضًا، فقال لها:

- أنا أعرف ذلك يا خلود، وأعرف أنه يكره روايات الفانتازيا، وأعرف أنه آخر كاتب من الممكن أن يكتب رواية خيال علمي، ولكن

هل أنتِ موافقة على هذه الترهات التي يقولها؟ سفر عبر أزمنة وإسقاط نجمي وبللورة سحرية وماتريكس؟! قال ذلك ثم وجه كلامه لي حانقًا:

-كل حركة ستتحركها دون حساب ستؤثر في جرحك، لقد حذرتك، العملية نجحت بحمد الله، أرجوك يا عمر لا تفسد ما فعلناه.

حاولت أن أفتح فمي لأتكلم، لكنه أشار لي بيدٍ متصلبة أن أصمت، وأوضح أنه لن يقبل مني أي كلام. أدركتُ حينها أن لا فائدة من التحدث معه، فتظاهرت بأنني اقتنعتُ بكلامه ليغادر ويبتعد عني، وقررتُ أن أتصرف بعيدًا عنه، حتى لو تطلب الأمر الاستعانة بطبيبٍ آخر، خرج ماجد بعد أن طلب من خلود ألا تمكث معي طويلًا، وما إن رحل حتى ساد الصمت لبضع دقائق. كسرتُ هذا الصمت بأن سألت خلود:

- هل تصدقينني يا خلود؟ هل تصدقين ما قلته؟

زمّت شفتيها لثوانٍ ترتب فيها ما ستقوله لي:

-عمر، قبل ما حدث لك مؤخرًا، انتشرت إشاعة أنك سرقت أفكار رواياتك من كاتب مغمور، ومن رواياتٍ نُشِرت قبل حتى أن تولد، كل العالم صدق ذلك عدا أنا، رغم أنه من المنطقي ألا أُصدقك، ورغم أنك أيضًا لا تعرف كيف يصل توارد الخواطر إلى هذا الحد، ولكنك أقسمت لي أنك لم تفعل ذلك، فصدقتك، صدقتك دون أن تبرر لي أي شيء. وللعلم، فقد صدقتك فعلًا من كل قلبي، ووثقت في كلامك ثقة عمياء، صدقت عينيك قبل أن أصدق لسانك. لكني هنا، الآن، أريدك ألا تهتم بما رأيته تحت تأثير البنج وألا...

قاطعتها: - القطة التي تمكث أمام باب شقتك، هي ابنتك جنة.

تسمّرتْ حينها، والتقت عيني بعينيها، فأردفتْ: - هل السيارة التي صدمتها حمراء اللون وماركتها نيسان؟

أجابتني وقد اغرورقت عيناها: - نعم، حمراء اللون لكني لا أتذكر نوعها.

- هل مكان الحادث كان مغطى بالكاميرات؟

- لا، وإلا كنا أمسكنا أي طرف خيط يساعدنا على القبض على من صدمها...

- أو صدمتها.

هزت لي رأسها وسألتني بعينيها بماذا أقصد بتاء التأنيث، فغيرتُ الموضوع:

- هل تعرفين أننا تقابلنا في القرن الخامس عشر؟ كنتِ رسامة ماهرة، كنا من المماليك.

بدا كلامي لها هراء، ولا ألومها على ذلك، فلو كنت مكانها ما كنت أصدق هذا الخيال الجامح، ولكن كان هناك شيء بداخلي يخبرني أن ما رأيته حقيقي، أنا لمست كل شيء بنفسي، كاد قلبي ينخلِع مني حينما قفزت من أعلى سور القلعة وعلى ظهري أمين بك، ما زلت أشعر بطعم أحشاء الدجاج التي أكلتها بنهمٍ في الطريق، ما زلت أشعر بالبرد الذي تخلّلَ جسدي وحز عظامي حين كنت في غرفة السجن في باب زويلة، شممتُ رائحة الدم وتذوقته بلساني حين

ضربني الجندي العثماني، جحظت عيني حينئذٍ، مُتذكرًا شيئًا مهمًا، ألا وهو الرق الذي أخذته من كريمان، وقد خبأته وراء حجرٍ في غرفة السجن، وخاتمي أيضًا، لقد زرت باب زويلة عدة مرات حينما كنت أكتب روايتي الثانية، وأحفظه عن ظهر قلب، وأعرف أين هي تلك الغرفة الآن، هتفت لخلود قائلًا:

- أنا معي الدليل الذي سيؤكد لكم كلامي، أريد أن أذهب إلى باب زويلة، الآن.

- الآن؟! كيف يا عمر؟! سألتني مُتعجبة - فالجرح في صدرك لم يلتئم بعد، علاوة على أن عظمة القص أيضًا يجب أن تلتئم جيدًا، ومن المستحيل أن تذهب إلى أي مكان الآن، وبالتأكيد لن يسمح لك ماجد بذلك، ولو سمح لك فلن أسمح أنا لك.

عرضت عليّ سما أن تذهب هي لتتحقق مما أقول، لا أعرف لأنها تصدقني، أم لأنها تريد إنهاء تلك المهزلة وتريحني من هذه التهيؤات، فأومأت لها أن لا، لأنها لن تستطيع فعل ما سأفعله أنا، كان ذلك حين دخل ماجد ومعه ممرضة ممسكة بحقنة، قائلًا لخلود:

- من فضلك يا خلود، أنتِ أكثر من يعرف أنه يجب أن يرتاح، اذهبي أنتِ وسما الآن، وتستطيعان زيارته في الغد بعد الساعة الخامسة مساء.

انتهت الممرضة من تحضير الحقنة، مُنتظرة تعليمات ماجد الذي نظر لي مبتسمًا:

- أحيانًا أحسد الكُتاب على خيالهم الخصب، وأعتبره ميزة

بالمناسبة، لكن المميزات ليست دائمًا ما تكون مميزات يا عمر، اترك خيالك الآن واستخدمه بعدما تخرج من هنا على خيرٍ، وتمارس حياتك بشكلٍ طبيعيّ.

- متى سأخرج من هنا إذن؟

- كما قلت لك، ليس قبل أسبوع أو عشرة أيام...

زممث شفتيّ غير مُتقبل كلامه، ثم أشرت إلى المُمرضة بأن تعطيني حقنة تجعلني أنام عشرة أيام متواصلة، فضحك ماجد، ثم هز رأسه للممرضة لتحقنني بالمهدئ، فيما اقتربت مني سما وقبلتني، وأخذت خلود تربت على كتفي واقتربت من أذني هامسة أنها تصدقني. قد قرأت في وجهها أنها تتظاهر بذلك كي أرتاح، لكني لمحت في زوايا عينيها الجميلتين أنها لا تصدقني على الإطلاق. لا ألومها على ذلك بالطبع، حقنتني الممرضة وخرجوا جميعًا من الغرفة، تاركين المهدئ يعمل في جسدي ليرتخي جفني بعد دقائق وأسبح في غياهب أحلامي.

-٦-

بعد أسبوع.

لا أعرف كيف مرّ عليّ هذا الأسبوع، فقد قضيت معظمه نائمًا كي يمر بسرعة، لا أستيقظ إلا حين تزورني خلود، وكان معظم كلامي معها عما رأيته في غيبوبتي، قلت لها فقط بعض التفاصيل، حتى استطعت جعلها تصدقني.. بنسبة خمسة بالمائة فقط! ولم أحتج لأكثر من هذه النسبة في الوقت الحالي، أما ماجد فكان رافضًا تمامًا لأي حرف أقوله بخصوص هذا الموضوع، المهم هو أنني قررت أن أخرج من المستشفى في صباح الغد، وهذا ما أخبرت به خلود التي كانت رافضة لهذا الأمر في البداية، لكنها لم تستطع فعل شيء أمام إصراري، ولا ماجد أيضًا، والذي حاول إقناعي بأن أمكث يومين إضافيين، لكني استطعت إقناعه بأنني أشعر بتحسنٍ كبيرٍ، وسوف أكمل رحلة علاجي في البيت، فوافق لكن شريطة ألا أبذل أي مجهود قط، فهززتُ له رأسي وأخبرته ألا يقلق بخصوص هذا الأمر!

كنت حريصًا على أن أذهب إلى باب زويلة في الغد لأنه سوف يكون الأحد، وفي هذا اليوم عادة ما يكون فيه عدد الزائرين قليل، وضعت في عقلي خطة، ستنجح بنسبة تسعين بالمائة.

ذهبت أنا وخلود إلى هناك، ومعي الكاميرا الخاصة بسما، حرصتُ أن أكون هناك قبل فتح المبنى الأثري للجمهور بساعة، قابلنا الموظف الذي يعمل هناك، أخبرته أنني أريد أن أصور بعض الأماكن في الأثر، فقال لي إن دخول كاميرا رقمية لها تذكرة خاصة، غير تذكرة الدخول العادية، لم أمانع وأعطيته ثمن تذكرتين إضافة إلى تذكرة

دخول الكاميرا، فقال لي إنه سيبدأ في قطع التذاكر للجمهور بعد ساعة، هنا حان دور خروج الورقة فئة مائة دولار، لوّحت له بها وأنا أشرح له أنني لن أحضر ممثلين من هوليود لتصوير فيلم تسجيلي، كل ما أريده هو نصف ساعة فقط لأنتهى من تصوير بعض الأماكن والزوايا قبل أن يدخل الجمهور، فيفسد عملي. ما إن رأى الموظف المائة دولار حتى سال لعابه عليها، لكنه قال لي متحسرًا إنه لا يملك زمام الأمور وحده، ويجب أن يستأذن من زميله كي لا يشي به، تركني ليخبر زميله بما يجري، كان صوتهما خافتًا لكني استطعت سماعه، وهو يقول له:

- اطلب منه ورقة أخرى فئة مائة دولار.

فسأله الرجل زميله: - وإن وافق.

- إن وافق على إعطائك مائة دولار، حينئذ كل منا سيعود إلى بيته ومعه مئة دولار، اسمح له بالدخول حينها، ماذا سيفعل في أسوأ الظروف، بالتأكيد لن يخبئ إحدى المئذنتين في جيبه ويرحل بها!

عاد لي الموظف فوجدني قد أحضرت له المائتي دولار، فأخذهما سعيدًا، وقطع لي التذاكر وصعدت أنا وخلود!

حينما وصلنا الطابق الثاني، وقفت أمام الغرفة التي كانت يومًا ما سجنًا، رأيت حينئذٍ كل ما حدث - لدمرداش بن غراب - أو بالأحرى لي، هاجمت أنفي رائحة عرق الحارس الذي كان يقيدني، ورائحة المكان نفسها ما زلت أشمها، ما زالت ترن في أذني أصوات السلاسل التي كنت مُقيدًا بها، ما زلت أشم رائحة كريمان، ابتسمت حينها وأنا أنظر إلى خلود التي نفذت ما طلبته منها. وقفت على مقربة من

السلم، لتنبّهني إذا ما رأت أي شخص يصعد من الأسفل إلى الطابق الثاني. بعد ذلك، دخلتُ الغرفة مُحاولًا تذكر مكان الحجر بالضبط، لم أحتج لأكثر من عشر ثوانٍ لأجده، ابتسمتُ، وأخرجت من حقيبتي إزميلًا رفيعًا، وبدأت أحفر حوله، يمينًا ويسارًا، ثم فوقه وتحته، كنت قد حسبتُ أن الحجر سيبدأ في الخلخلة والتحرك بعد عشرين دقيقة، لكن ما حدث هو أنه بعد سبع دقائق فقط، بدأ يتحرك معي. ومع قليلٍ من الجهد الإضافي، سينخلع من مكانه بسهولة، وما إن استأنفت العمل حتى تفاجأت بخلود تخبرني أن أحد الموظفين يصعد، أخرجت الكاميرا بسرعة، ووقفت هي بجانب السور وكأنني أصورها، وتظاهرنا بأننا تفاجأنا حين صعد إلينا. لم أسأله ماذا يريد كي لا يرتاب في شيء، فقط ألقيت عليه نظرة واستأنفت التصوير، سألني إن كنت بحاجة إلى شيء، فأجبته بالنفي وأنا أبتسم، عرض عليّ أن يشرح لي تاريخ المكان، أردت حينها أن أسبه بأقذع الشتائم، وأخبره أنني سجنت في هذا المكان منذ أكثر من خمسمائة عام وأعرفه جيدًا عن ظهر قلب، لكني تماسكت، وقلت له بابتسامةٍ صفراء تعلو وجهي: - شكرًا، لا يهمني المكان بقدر ما يهمني أخذ بضع صور والرحيل.

أومأ لي ونزل مرة أخرى، أشرت لخلود أن تقف على مقربة من السور لتتأكد أنه ذهب إلى الجحيم ورحل، ففعلت، ودخلت أنا لأستأنف ما كنت أفعله، لكن خلود بعد نصف دقيقة لوّحت لي بيدها أن الموظف الآخر يصعد السلم، وعادت لتقف بجانبي مرة أخرى متظاهرة بأنها تتصور، سألني الموظف الآخر إن كنت أريد أن يرشح لي أماكن أخرى للتصوير، فشكرته وقلت له أنني ذهبت إلى عدة

أماكن في إجازتي، ولم يتبق لي سوى هذا المكان. عرض عليّ أن يصورنا مع بعضنا البعض، حينها ضاعفت الضغط على نفسي، ولو كنت قرّبت من أنفي سيجارة لاشتعلت تلقائيًا، كدتُ أنفجر فيه وألقيه من فوق المبنى، لكني تحاملتُ على نفسي وعصرتُ فوق رأسي مائة طن من الليمون وشكرته مبتسمًا، فنزل بعد ذلك، وما إن تأكدت خلود من أن المكان أصبح آمن حتى لوّحت لي بذلك، فبدأت أستأنف العمل على الحجر اللعين الذي لم يحتج مني سوى مجهودِ هزيلٍ حتى تزحزح من مكانه، واستطعت أن أنتزعه بنجاح. متحملًا الألم الذي بدأ يهاجم صدري، لكني تجاوزت هذا الألم حينما التمعت عيناي، عندما وجدت الرسالة ملفوفة كأنني قد وضعتها أمس، وبداخلها الخاتم الذي كنت يومًا ما أرتديه في بنصري كدمرداش!

أعدت الحجر إلى مكانه بعد أن قبّلته، ثم ذهبت إلى خلود التي ما زالت واقفة تراقب السلم، التفتت لي قائلة: - لم تجد شيئًا، أليس كذلك؟ لم أجبها، بل تظاهرت أنني أشعر بخيبة الأمل، فأردفت:

- كنت أعلم، لقد قلت لك يا حبيبي أن كل ذلك ليس إلا تهيؤات في عقلك البا...

لم تكمل جملتها حين لوّحت لها بالرسالة والخاتم، فقط ظلّت واقفة مكانها، وقد اتسعت عيناها الساحرتان من هول ما رأت، ووضعت يديها على فمها، وبالكاد استطاعت كبح جماح صرختها.

- هيا بنا من هنا الآن، وفري هذه الدهشة حينما نخرج من هنا بسلام.

وضعتُ الرسالة والخاتم في حقيبتي، وخرجت من المبنى دون أن

ألقي السلام على الجشعين الكالحين الجالسين عند البوابة، وحينما خرجنا وقفتُ أنظر إلى المبنى من الأسفل، ووقعت عيني حينها على باب زويلة الضخم، والقائم المُقام فوقه، مُتذكرًا اليوم الذي شُنِقَ فيه السلطان طومان باى هنا، لمحتْ خلود تلك اللمعة التى فى عينيّ حينها، ونظرتْ لي مُبتسمة، مُتفهمة ما أشعر به حينئذٍ، وأشرت لها للمكان الذي كنت واقفًا فيه حينما قُتِلتْ، فوضعت إصبعها على شفتي:

- لا، لن أدعك تحكي لي كل هذا في عجالة ونحن واقفين، بل يجب أن نجلس وتخبرني بكل شيء على مهل، فالموضوع خطير.

كان ذلك حين رنّ هاتفي، وكان المتصل ماجد، والذي لم يبدأ مكالمته بإلقاء التحية أو الاطمئنان على صحتي، بل قال: - أريدك الآن في أمرٍ مهم، لديّ الكثير لأخبرك به.

- أنا أيضًا لديّ الكثير لأخبرك به - قلتها بنبرة يملؤها السعادة - سأكون في المستشفى بعد ساعة من الآ..

قاطعني: - بل في عيادتي بعد نصف ساعة.

لم أضيّع الكثير من الوقت، ركبنا سيارة أجرة واتجهنا إلى عيادته، حينها اتصلت بي سما لتطمئن عليّ وتعرف ما الذي توصلت إليه، فأخبرتها أننى سأكون فى عيادة ماجد، وإن أرادت معرفة المزيد، يمكنها القدوم إلى العيادة، وشدّدت عليها ألا تُخبر والدتها بأي شيء مما يحدث. وصلنا إلى عيادة ماجد في الموعد الذي اتفقنا عليه، ألقيت عليه التحية، لكنه كان شارد الذهن لدرجة أنه لم يرد عليّ، رأيت أنه من الأفضل أن أتمهل ولا أخبره بما وجدت، حتى أكتشف

ما به، أو بالأحرى ما الذي يريد إخباري به، شعرت أنه يرتب كلامًا ما في داخله، فأعطيته وقته تمامًا، ظل غارقًا في صمته لبضع دقائق حتى بدأ الحديث:

- اسمع، لا أنكر أنك لفتّ انتباهي بالكلام الذي قلته بعدما خرجت من العملية، ولكني كطبيب ليس منطقيًا أن آخذ كلامك هذا على محمل الجد.

هززت له رأسي متفهمًا ما يقول، منتظرًا أن يخرج كل ما لديه، كان ذلك حين حضرت سما، وأشرتُ لها أن تجلس بجواري، سكت ماجد لنصف دقيقة ثم أكمل:

- أنت كنت على حق، على حق بنسبة كبيرة تفوق السبعين بالمائة، وقد بدأت أصدقك، لقد أجريت عدة أبحاث على الإنترنت، وتواصلتُ مع أطباء قلب زملاء لي من عدة دول، ومنهم من أخبرني أنهم صادفوا حالات كحالتك، بعد العملية قالوا كلامًا مماثلًا لما قلته لي.

لم أرد أن أقاطعه، بقيت مبتسمًا أهز له رأسي ليكمل، فاستطرد كلامه:

- برزخ، ممر، إطار مضيء، وكلمات من هذا القبيل سمعوها أطباء آخرون من مرضاهم بعد عمليات القلب المفتوح، ولا أخفي عليك سرًا، لقد تواصلت مع حالتين أجريت لهما تلك العملية منذ مدة، أحدهما لم أستطع الوصول إليه، والآخر ذهبت إليه ووجدته رافض التحدث، منكفئ على نفسه، حاولت أن ألح عليه لكنه رفض تمامًا أن يحكي لي ما رآه.

شرع ذراعيه ليخبرني أنه قال كل ما لديه ويريدني أن أتكلم، وأحكي له كل ما رأيت بتفاصيلٍ أكثر، ففعلت ذلك، حكيث له كل شيء كأني أكتبه في إحدى رواياتي، بدا مُنصتًا لي باهتمامٍ وبشكلٍ جيد هذه المرة، وبعدما انتهيت سألني إن كنت تأكدت من كل هذا أم لا، فأخبرته بأنني كنت في باب زويلة حين اتصل بي، نهض من كرسيه وسألني بعينين يملأهما الفضول: - وماذا وجدت؟ هل وجدت شيئًا؟!

لم أجبه بأي كلمة، بل أخرجت من حقيبتي الرسالة والخاتم، فنهضت سما من مكانها، بينما التقط ماجد الرسالة، وظل ينظر إليها بعينين لامعتين، قرأ الكلام المكتوب، ثم أخذ يتفحص الرسمة التي في الظهر، والتي رسمتها كريمان يومًا ما، فقال لي: - بالفعل هناك شبه كبير بينك وبين الرجل المرسوم على الرق، كما أن هناك شبهًا أيضًا بين الفتاة وبين خلود، رغم أن الرسمة ليست احترافية.

فقاطعته بنبرة هادئة: - لو سمحت لا تقل ذلك، فكريمان ابنة الشيخ سراج الدين الصفدي شهبندر التجار كانت رسامة ماهرة، أمهر من أمسكت القلم في الدولة المملوكية، مع كامل احترامي لابن إياس.

بينما كانت سما تتفحص الخاتم: - أبي، هذا الخاتم بالفعل قديم جدًا.

أجبتها مبتسمًا: - هذا الخاتم يا حبيبتي خلعته من إصبعي في اليوم الذي شُنِقَ فيه طومان باي، والذي قُتِلتْ فيه أيضًا. أمسكت خلود ذراعي ولسان حالها يقول "بعيد الشر عنك"، فيما سألني عن الحصان الذي قفز به أمين بك، فابتسمت له وأملت له رأسي دون أن

أجيب، فأدار شاشة اللاب توب ليريني صورة تخيلية لموقف عشته يومًا ما!

بعد مرور عدة ساعات، تحدثنا فيها عن تفاصيلٍ كثيرة، شعر ماجد أنني أريد أن أطلب منه شيئًا ما، وهو يعرف هذا الشيء، لكنه كان يريد أن يسمعها مني، فسألني بشكلٍ مباشرٍ: - وماذا تريد الآن يا عمر؟

- لقد قلت لك أن تجري لي تلك العملية مرة أخرى، فلدي أشياء كثيرة أريد أن أعرفها.

- مثل ماذا؟

- أريد أن أعرف ماذا حدث في الليلة التي سبقت دفني، ما حدث يوم موت والدتي، ما حدث يوم موت جنة ابنة خلود، أشياء من هذا القبيل.

- حسنًا، ولكني أريد أن أخبرك بشيء قد تعلمه خلود، وهو أنه من الصعب أن أفتح الجرح مرة أخرى، وأقطع عظمة القص وأوقف القلب، الأمر ليس مستحيلًا لكنه صعب، ومع ذلك سأبذل قصارى جهدي.

سكت قليلًا ثم استطرد: - سأجري لك العملية يا عمر، ولكن لي شرطان؛ الأول هو أن توقِّع لي على تعهد بأنك المسئول عن ذلك، الثاني هو أننا سنعقد اتفاقًا بيننا، وهو أن العملية القادمة كلها ستكون لي، بعدها بأسبوع سأجري لك العملية نفسها، لتذهب فيها إلى البرزخ، وتفعل فيه ما تشاء لنفسك.

أعتقد حينها أنني قد فهمت ما يقصد، لكني طلبت منه المزيد من التوضيح، فشرح لي:

- ستذهب يوم وفاة والدي، وتعرف لي هل بالفعل ما أخبرني به أخي، أن والدنا قال له وهو على فراش الموت إنه لم يترك لهم شيئًا، ولو كان أخي يكذب عليّ، فأين خبأ السبائك؟

تدخلت خلود: - أنا قلقة يا عمر. فيما أضافت سما: - وأنا أيضًا يا أبي.

لم أحتج إلى أكثر من ثانيتين في التفكير، ثم قلت له بلسانٍ واثق:

- موافق.

-٧-

في صباح اليوم التالي

حينما حجز ماجد غرفة العمليات لى، أخبر إدارة المستشفى بأننى أحتاج إلى توسيع شريان تاجي آخر، كي لا يلفت أنظار الإدارة التي يهمها في النهاية المقابل المادي، وفي الساعة السابعة صباحًا كنت راقدًا على السرير في غرفة العمليات، دخل طبيب التخدير الذي حقنني بمخدر كلي، غبث حينها عن الوعي، ولم أستفق إلا حين بدأ ماجد في فتح الجرح نفسه الذي شقّه في المرة السابقة، حلّقت حينها عند سقف الغرفة، وبدأت أرى ماجد وفريقه حول جسدي، إلى أن حان وقت توقف القلب، وتوصيل جسدي بجهاز القلب والرئة، حينها قَبّل ماجد رأسي في حنوٍّ بالغ، وقال لي: - وفقك الله يا بطل، وفقك الله يا صديقي، سوف أوقفه الآن.

اندهشت الممرضة حينها من فعل ماجد الذى أشار لها بيده كأنه مايسترو لفرقة موسيقية أن توقف القلب الآن، ففعلث، حينها بدأت أرى العالم من حولي يميد بي، شعرت باهتزازةٍ قوية، ووجدتُ نفسي بعدها عند المكان نفسه، اخترت أحد الإطارات الشاغرة، كأنني أختار غرفة في فندق، ووقفت أمامها، ثم أمسكت القلم الذهبي، وكتبت على اللوحة تاريخ وفاة والد ماجد، ثم انتظرت لثانيتين قبل أن يغمرني الضوء الساطع وأشعر باهتزازة قوية، لأجد نفسي بعدها فوق سطح إحدى العمارات بمنطقة فيصل في الجيزة، شعرتُ حينها أنني مترنحًا كصرصارٍ ضُرِبَ بشبشب حمام للتوّ، فاحتجت لنصف دقيقة حتى أكون في كامل وعيي، نظرت بعدها حولي فلمحت الباب

الذي يفضي إلى السلم، حاولت فتحه فوجدته مُغلق بقفلٍ حديديّ صغيرا

- ما هذا الهراء الذي تورطتُ فيه؟! قلت في نفسي متأففًا ثم بحثت عن أي شيء أكسر به هذا القفل فوجدت قطعة حديد مُلقاة على الأرض، التقطتها وطرقت مرتين على القفل فلم ينكسر، طرقت المرة الثالثة بقوة فانكسر، وفتحت الباب ونزلت على السلم، تفاجأتُ بسيدة هَرِمة يزيد عمرها عن تسعين عامًا تسكن في الطابق الأخير، تفتح الباب لتسألني من أنا، وماذا كنت أفعل فوق السطح، فأخبرتها أنني سباك، وكنت بالأعلى لأصلح خزان المياه، طلبت مني أن أصلح لها صنبور المياه لديها لأن حفيدها كسره أمس، وجدتُ نفسي آنئذٍ أعيش مأساة سيدة على وشك الموت، أمسكتُ يدها ودفعتها بلطفٍ داخل شقتها وأغلقت الباب واستدعيت المصعد، وحينما جاء دخلته وضغطت على زر الطابق الأرضي، داعيًا الله ألا يقف في أيّ طابق، لكن الله لم يستجب لدعائي، ووقف في الطابق الثالث، حينها دخل رجل وظل ينظر إليّ بعينين مُتفحصتين، لاحظ أنني غريب وسألني من أنا، فسألته مندهشًا:

- لماذا كل من يراني هنا يسألني من أنا؟ هل سكان هذه العمارة لا يزورهم أحد من أقاربهم مثلًا؟

حاول استيعاب كلامي المنطقيّ جدًا، غير أنه كرر كلامه وسألني من أنا! كان حينها المصعد قد وصل إلى الطابق الأرضي، فاعتذرت له قبل أن ألكمه لكمة قوية جعلته فاقدًا للوعي لأربع ثواني، كنت خلالها في الشارع أستوقف سيارة أجرة طالبًا من السائق أن يذهب

بي إلى حي الدقي، وكنت هناك بعد خمس عشرة دقيقة، وجدت محلًا متخصصًا في كاميرات المراقبة والأجهزة الصوتية، سألتهم عن جهاز تنصُّت صغير الحجم، كنت قد رأيته يومًا ما في إعلان على الفيسبوك، عرض عليّ الرجل عدة نماذج، من بينهم جهاز صغير بحجم عقلة الإصبع، يستطيع تسجيل أي صوت من حوله، وبإمكاني أن أستقبل كل هذه الأصوات على هاتفي، تذكرت حينها أنني ليس معي هاتف نقال، فاستأذنته أن أسحب المبلغ المطلوب من الماكينة وأعود إليه، كانت ماكينة الصراف الآلي بجواره، سحبت منها مبلغًا يكفي لشراء هاتف جديد وسماعة أذن، وذهبت به إلى المحل. قابلتني عقبة أخرى، وهي أن الهاتف ليس به خط تليفون، زممت حينها شفتاي فعرض عليّ الرجل أن أشتري خطًا معه ولا يحتاجه، فوافقت رغم أن المبلغ الذي طلبه مبالغ فيه، لكني أدركت أنه يستغل الموقف، واحترمت فيه استغلال الفرصة، أعطيته ما طلب قبل أن يربط جهاز التنصُّت بالهاتف، وأصبح كل شيء على ما يرام في أقل من عشرين دقيقة. توجهتُ بعد ذلك إلى منزل عائلة ماجد، والذي يبعد عني حوالي خمس دقائق سيرًا على الأقدام، كان المنزل مكونًا من طابقين، في الطابق الأول يسكن فيه والده وزوجته وابنته الصغرى، حين اقتربتُ من المنزل سمعت صوت نحيب وبكاء، وثلاثة رجال واقفين أمام مدخل البيت، سألتهم ما هذا البكاء، لكنهم أجابوني بجفاء بسؤال آخر منطقي:

- من أنت أولًا؟

- أنا الكاتب عمر مدكور، صديق مقرب لدكتور ماجد، وجئت لأسأل عنه.

اعتذر لي أحدهم عن جفاء نبرته وأخبرني بأدبٍ جم، أن دكتور ماجد مسافر في مؤتمر طبي، وأن والده يحتضر الآن.

تظاهرت أنني متأثر، وقلت "لا حول ولا قوة إلا بالله" ثم سألتهم عن أخيه، فأخبروني أنهم اتصلوا به، وأنه في الطريق الآن، لم تمر عشر دقائق حتى وصل أخوه الذي قابلته بالأحضان:

- أدعو الله أن يزيح عن الوالد أي سوء وشر..

- شكرًا جزيلًا يا أستاذ عمر.

اندهشتُ حينها أنه تعرف عليّ، لكن فرحتي بنجاحي في زرع جهاز التنصُّت في جيبه جعلتني أنسى أيّ شيء، جلستُ على مقهى مُجاور للمنزل، وضبطت تسجيل الصوت، مُنتظرًا أن يدخل المحروس لغرفة والده، طلبت حينها قهوة فرنساوي وحجر معسل، قبل أن أضع سماعة الأذن، أحضر لي القهوجي ما طلبت بعد خمس دقائق، وما إن قربت الفنجان من شفتي حتى بدأت أستقبل صوتًا مميزًا، كانت والدته تقول له إن والده بالداخل يريد التحدث معه على انفراد، دخل أخو ماجد، وفيما يبدو أنه قَبّله أو قَبّلَ يديه لا يهم، المهم أنه دار بينهما حوار طويل لا داعي لذكر تفاصيله، فحوى هذا الحوار أن والده أوصاه أن يُقسّم التركة "تحويشة عمره" طبقًا لشرع الله على أخته وأخيه ماجد، وهذه التركة عبارة عن عشرين سبيكة ذهبية عيار ٢٤، وزن كل سبيكة خمسمائة جرام، داخل هذا الصندوق، ومعهم الفواتير الخاصة بهم، وفهمت من الحديث الذي دار بينهما أنه أعطاه الصندوق حينها، ثم طلب منه أن يقسم على المصحف ثلاثًا أنه سينفذ الوصية، فأقسم الرجل وهو يبكي، ثم مات بعدها الوالد

وانتقلت روحه إلى بارئها، صرخ حينها وانتحب، فدخلت عليهما الأخت ثم الأم، وظلوا يصرخون حتى كادت طبلة أذني تتهتك، فنزعت السماعة من أذني، كان ذلك حين رأيته يخرج من البيت ومعه الصندوق، والذي لم يكن كبيرًا مثلما تخيّلت، ركب سيارته تاركًا النحيب والصراخ والعويل، وانطلق، فتركت حجر المعسل كما هو والقهوة الفرنساوي كما هي دون أن أرتشف منها ولو رشفة، ثم أوقفت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يتتبعه، حتى وصل إلى منزله، فوقفت على مقربة من العمارة، ووضعت سماعة الأذن مُنتظرًا سماع أي شيء جديد، وما إن صعد إلى الأعلى وفتحت له زوجته، قال لها مُتهللًا: - أخيرًا حصلنا على السبائك... أخيييرًا!

قالها وفيما يبدو دخل مكتبه ودخلت وراءه، فقال لها: - سنخبئها هنا في هذه الخزينة إلى أن يهدأ الموضوع قليلًا، وسأعود أنا إلى الدفنة والعزاء قبلما يلاحظون غيابي.

أوقفتُ سيارة أجرة وجلست بداخلها منتظرًا، إلى أن رأيته يخرج من باب العمارة ويركب سيارته عائدًا إلى بيت العائلة مرة أخرى، كانوا حينها قد أحضروا المُغَسِّل، وأنهى الغسل والتكفين استعدادًا للصلاة عليه ومن ثم دفنه، وما إن خرجوا حاملين النعش على أكتافهم، حتى دخلت بينهم لأحمل معهم النعش، وفي تلك اللحظة، وفي وسط الزحام، دسستُ يدي داخل جيبه وأخذت جهاز التنصُّت، ثم انحرفت يمينًا لأدخل إحدى العمارات، حتى مروا جميعًا، ومن ثم جلست في أحد المقاهي منتظرًا استعادة قلبي مرة أخرى وأعود لحاضري، طلبت قهوة فرنساوي وحجر معسل، ثم استعدت ما تم تسجيله مرة أخرى كي أحفظه عن ظهر قلب، وما إن قربت فنجان

القهوة من شفتي لأرتشف أول رشفة، حتى شعرت بإعياءٍ شديدٍ واهتزازة قوية شعرت على أثرها أنني أعتصر، حتى غمرني النور وعدت إلى الممر، أمام الإطار الفيروزي، ومن ثم عدت أحلق فوق سقف غرفة العمليات، وجدت حينها جسدي مفتوحًا كسيارة لادا يعمل عليها ميكانيكي وصبيانه، فيما كان الميكانيكي، أقصد ماجد ينظر فوقه، تمالكتُ حينها نفسي من الضحك، بدأوا في نقل جسدي من جهاز الرئة والقلب إلى أجهزة جسمي، رويدًا رويدًا.

رويدًا رويدًا.

حتى ساد الظلام من حولي، حينما شعرت بصعقة قوية هزت بدني و...

***

بعد أربع ساعات ونصف "كما أخبرني ماجد"

استفقت من التخدير فوجدت هذه المرة ماجد فوق رأسي، والذي بمجرد أن فتحت عيني سألني بفضول:

- ها... أخبرني ماذا عرفت؟

شعرتُ حينها بأنني لستُ في كامل وعيي، فطلبت منه خلود أن ينتظر ريثما أستفيق بشكلٍ كاملٍ، فجلس على الكرسي لثوانٍ معدودة حتى بدأتُ أتمالك نفسي، وأتذكر ما حدث في أثناء الغيبوبة، لكني شعرت بأني ظمآن، أشرت لهما بذلك، فأحضر علبة عصير، وساعدني على شرب نصفها تقريبًا حتى ارتوى ظمأي، ثم أخبرته أن أخاه طمع في التركة لنفسه، وخبأ عشرين سبيكة في

صندوق، داخل خزينته، وأعتقد أن هذه الخزينة في...

أكمل هو بدلًا مني: - في مكتبه، أعرف جيدًا تلك الخزينة. قالها وهو يخلع البالطو الأبيض في عجالة ويضعه على طرف سريري، ويستأذن قائلًا:

- اليوم هو في العين السخنة، وزوجته الآن بمفردها في المنزل، وهذه فرصتي الوحيدة للحصول على هذا الصندوق.

قالها وانطلق متوجهًا إلى هناك، رن الجرس ففتحت له زوجة أخيه، لم يمهلها لترحب به ورش عليها مخدر جعلها تترنح وتفقد جزءًا كبيرًا من وعيها، ثم دخل غرفة مكتبه فوجد الخزينة راقدة في سلام، سألها عن كلمة السر، مُهددًا إياها إن لم تخبره به فسوف يقتلها، فقالت له أن الخزينة مفتوحة أصلًا، وليست محمية بكلمة سر، فتحها ووجد الصندوق، وبداخله ثماني عشرة سبيكة فقط، لم يأبه بالسبيكتين الناقصتين وظل يضحك بهيستيريا، فيما كانت زوجته تبكي، ركلها في جانبها ورحل، هذا ما أخبرني به عندما عاد إليّ بعد ساعة ونصف، حاملًا الصندوق بين يديه. بدأ يقبّلني بجنون، ثم فتح الصندوق وأشبع عينيه برؤية السبائك الذهبية، ليعود بعدها إلى تقبيلي مرة أخرى، كان ذلك أمام أعين خلود وسما، اللتين ظنتا أنه فقد عقله، وللحق، لا ألومه على ذلك، كنت أشعر به وبفرحته الغامرة. صاح وهو يقفز من شدة الفرح:

- الموضوع ليس غريبًا أو مدهشًا فقط كما تظنون، نحن في يدنا كنز، أنت كنز يا عمر، ثلاث سبائك من هذا الصندوق تجعلني أبًا، أربع سبائك أخريات تجعلني صاحب أكبر عيادة قلب في مصر كلها، عيادة

تدر عليّ في عامين فقط ثروة قيمتها أكبر من قيمة ما بداخل هذا الصندوق - نظر إلى الأعلى - يا الله يا كريم، أشكرك يا رب.

ثم وجّه كلامه إليّ: - استعد يا بطل سأجري لك العملية مرة أخرى لتعرف لي...

- ماذا تقول؟! - قاطعته بحدة متهكمًا - لا أسمع ما قلت جيدًا، كرر ما قلته! لقد كان الاتفاق أن المرة القادمة سوف تكون لي.

رفع يديه قائلًا: - أعتذر، لقد نسيت، اعذرني يا عمر، فأنت صديق عمري، وتعرفني جيدًا حينما أكون مشتعلًا بالحماس، المهم أننا سوف نستغل أن الجرح لم يلتئم بعد، نستطيع أن نكرر تلك العملية في فجر الغد، ولكن بشرط أن أجري لك عدة فحوصات كي أطمئن أولًا أن وظائف جسدك تعمل بشكلٍ جيد، وأنك تستطيع تحمل التخدير مرة أخرى.

قبّلني من جبهتي ثم أردف: - سأرسل لك الآن الممرضة التي ستفحصك.

قالها والتقط الصندوق من فوق المنضدة، ثم قبلني مرة تاسعة ورحل!

***

فجر اليوم التالي...

وجد ماجد من نتائج الفحوصات أنني أتحمل التخدير الكُلّي دون أي ضرر، وقد ساعدتني على ذلك بنيتي الجسدية القوية، والنظام الغذائي المتوازن السليم الذي اتبعته طوال حياتي، إضافة إلى

مواظبتي على الذهاب إلى صالة كمال الأجسام خلال السنوات العشرة الأخيرة، وقبل ذلك ممارستي للألعاب القتالية؛ كل هذا جعل جسدي مربوعًا قويًا بما يكفي لتحمل ما يحدث.

عندما دخلت غرفة العمليات مستلقيًا على السرير المتحرك، أشرت لماجد ليتقدم نحوي، وقلت له ممازحًا:

- في المرة السابقة لم تمنحني حتى الوقت الكافي لشرب القهوة، وأعدتني بسرعة، حاول أن تطيل المدة هذه المرة، فلدي الكثير لأفعله.

- حسنًا يا صديقي، ولكن أريد منك خدمة صغيرة. نظرت إليه متسائلًا، فأكمل متندرًا:

- الممرضة المسؤولة عن توصيل جسدك بجهاز القلب والرئة، فقدت زوجًا من الجوارب في الغسالة منذ شهرين، وخرج منها واحد فقط، هل يمكنك العودة إلى ذلك اليوم و...

لكزته على كتفه فضحك، أما أنا، فلم أستطع الضحك، إذ كنت أشعر بالألم يوقظ ضلوعي، وهذا طبيعي بسبب القطع في عظمة القص بصدري، المهم أن ماجد هز رأسه متفهمًا، وأخبرني أنه سيطيل المدة أكثر من المرتين السابقتين.

بدأ طبيب التخدير عمله، ثم شرعوا في فك الغرز التي تم خياطتها أمس، وسرعان ما وجدت نفسي مرة أخرى أحلق فوقهم، أشاهدني كدجاجةٍ مُنفرجة أمام طاهٍ متمرس يحشوها بالأرز دون رحمة استعدادًا لشيِّها! أوقف ماجد قلبي تمهيدًا لنقل جسدي إلى جهاز

القلب والرئة، فاهتززت، واعتصرت، واهتصرت، وانتقلت في غضون ثوانٍ إلى الممر الذي كان حينها به حركة كثيرة هذه المرة. رأيت الكثير من الأشخاص غيري، فتساءلت في داخلي متعجبًا: - ما كل هذه الأرواح المتأرجحة بين الدنيا والآخرة؟ هل اليوم عطلة رسمية هنا؟ أم أن الأمر سيبدأ بالانتشار وسيعرفه الجميع؟!

لم أشغل بالي طويلًا بالتفكير في هذا، ولم تمضِ نصف دقيقة حتى وجدت إطارًا شاغرًا، فوقفت أمامه، والتقطت القلم الذهبي، وكتبت تاريخ اليوم السابق لفضيحة سرقاتي الأدبية، وانتظرت ثانية...

ثانيتين

ثلاث...

بدأتُ أشعر بالاهتزاز الذي لم يعد الآن عنيفًا بالنسبة لي، فقد اعتدتُ عليه، أغمضتُ عيني، داعيًا الله ألا أبدأ رحلتي هذه المرة من داخل حمام سيدات! غمرني نورٌ ساطعٌ وقويٌ، وفجأة وجدتُ نفسي نائمًا على قضبان السكة الحديدية داخل نفق مترو الأنفاق. لم أكن في كامل وعيي، نهضتُ مترنحًا، ونفضت ملابسي محاولًا استيعاب موقفي. كنتُ على قضبان المترو! وما إن بدأتُ أستعيد وعيي حتى فوجئت بالمترو يقترب نحوي بسرعةٍ كبيرة. حاولت أن أرتد يمينًا أو يسارًا للنجاة، لكني ترددتُ وفكرت مرتين من شدة التوتر، فلم أتمكن من فعل أي شيء. دهسني المترو وحولني إلى أشلاء. في اللحظة نفسها عدتُ إلى مكاني، أمام الإطار الفيروزي، بأنفاسٍ متقطعة، شعرتُ بأن قلبي ينبض بقوةٍ شديدة، حاولتُ أن ألملم شتاتي بسرعة؛

فلا رفاهية لدي لإضاعة الوقت، أمسكتُ القلم، وكتبتُ التاريخ نفسه، وقررتُ أن أستجمع تركيزي فور انتقالي.

انتظرتُ حتى بدأ النور الساطع يحيط بي مجددًا، بعد اهتزازة كادت تجعلني أتقيأ، لا أعلم لماذا كانت قوية هذه المرة، لكن المهم أنه بعد انقشاع النور وجدتُ نفسي على ارتفاع نحو عشرين مترًا عن مستوى سطح الأرض، المسافة نفسها التي قفزتها يوم مذبحة المماليك وعلى ظهري أمين بك، أغمضتُ عيني محاولًا استعادة توازني لأستوعب أين أنا. نظرت حولي فوجدت الأهرامات أمامي، تسمرتُ لثوانٍ قبل أن أدرك أنني فوق رأس أبو الهول! كنت أرتدي سترة رياضية، وحافي القدمين. حاولت السيطرة على أعصابي وبدأت أنزلق بحذر حتى هبطت على ظهر أبو الهول، ثم بدأت بالنزول بهدوء كي لا أفقد توازني، لم أكن أعلم أن ارتفاعه بهذا القدر، لكن النزول من فوق ظهره لم يكن خطرًا كما تخيلت.

لمحني أحد الحراس حينها، فصاح وركض نحوي، انحنيتُ، وقبضتُ على حفنة من الرمال، وألقيتها على وجهه قبل أن أفر هاربًا حتى وصلت إلى بوابة الخروج من منطقة الأهرامات، لمحني أحد رجال الأمن، لكنه لم يوقفني. أعتقد أنه ظن أنني أحد العمال، وما إن وصلت ميدان الرماية حتى لمحت ماكينة صراف آلي، سألتُ أحد المارة عن الساعة، فأخبرني أنها الثامنة صباحًا.

في هذا الوقت، كان إياد وسما قد ذهبا إلى رحلة العين السخنة، وكنت قد استيقظتُ لأخذ حمامي وأرتدي ملابسي كي أوهم نجلا بأنني ذاهب إلى اتحاد الكتاب، كنت أخطط للعودة مع حسناء بعد

مغادرة نجلا إلى والدها. هناك حوالي نصف ساعة بين مغادرتها المنزل وبين عودتي مع حسناء، وهي مدة مناسبة لزرع ميكروفونات تنصُّت في عدة أماكن بالمنزل لأعرف ما حدث بالضبط قبل وعكتي الصحية.

سحبتُ من الماكينة ضعف المبلغ الذي سحبته في المرة السابقة، اشتريتُ حذاءً رياضيًا، ثم بدأت أبحث عن محل لبيع الهواتف، استغرقني حوالي عشرين دقيقة لأجد محلًا مفتوحًا في هذا الوقت، اشتريتُ هاتفًا جديدًا واستقللتُ سيارة أجرة، متجهًا إلى الرجل نفسه الذي اشتريت منه في المرة السابقة جهاز تنصُّت، بل ثلاثة أجهزة كي أزرع واحدًا في كل غرفة. أخبرني أن هناك علبة تحتوي على خمسة ميكروفونات تنصُّت تعمل على تطبيق واحد يتم تثبيته على الهاتف، وحجمها أصغر مما اشتريته من قبل. أخذتها، ومعها خط هاتف، ودفعت له ثلاثة أضعاف السعر؛ لأنني لم أكن أملك بطاقة هوية. نظرت إلى الساعة فوجدتها التاسعة والنصف، وهذا يعني أن أمامي نصف ساعة فقط قبل أن يُصبح المنزل فارغًا، اشتريتُ كمامة سوداء من إحدى الصيدليات، ثم استقللتُ سيارة أجرة مُتجهًا إلى هناك.

***

الساعة ٠٩:٥١ صباحًا

كنتُ أقف على مقربة من العمارة، في الجهة المقابلة للشارع، بجوار كشك صغير، خلف سيارة، مرتديًا الكمامة التي غطت وجهي، كي لا تراني نجلا أو حتى تلمحني، وأيضًا كي لا يراني نسختي الأصلية!

الساعة ١٠:٠٠ صباحًا

وجدتني أخرجُ من العمارة، مُمسكًا بهاتفي لأتصل بحسناء، ابتسمتُ حينها، لا أدري لماذا، كان من المفترض أن يدخل المقهى المجاور، الذي يبعد مائة متر عني، ويجلس هناك كي لا تراه نجلا، التي كانت في هذا الوقت ترتدي ملابسها، وستنزل بعد بعشر دقائق.

الساعة ١٠:١١ صباحًا

ما زلتُ واقفًا خلف السيارة، منتظرًا خروج نجلا من العمارة، لكنها لم تظهر، انتظرتُ دقيقتين إضافيتين حتى رأيتها تخرج، وما إن ابتعدت عن المكان حتى هرعتُ بسرعة وصعدت السلم، فتحتُ الصندوق المجاور لباب الشقة، الذي يحتوي على عداد الكهرباء، وأخذتُ منه النسخة الاحتياطية من المفتاح؛ فقد اعتدنا ترك نسخة في هذا المكان تحسبًا لأي طارئ.

فتحتُ الباب ودخلتُ، نظرتُ إلى ساعة الحائط، أمامي حوالى عشرين دقيقة قبل أن أعود مع حسناء. وقت مناسب كافٍ لزرع أجهزة التنصُّت. بدأت بغرفة النوم، وضعتُ أول جهاز خلف السرير بعد التأكد من عمله بشكلٍ جيد، بعدها اتجهتُ إلى غرفة المعيشة، التي كانت مؤلفة من قطعتين، وزرعتُ جهازين: أحدهما بجوار باب الشقة، والآخر خلف أحد كراسي الصالون، وحرصتُ على إخفائهما بإتقانٍ تام، وقفتُ في منتصف غرفة المعيشة أفكر في مكان لوضع الجهاز الرابع، وقررت أخيرًا أن أضعه في غرفة سما وإياد، لم يبقَ أمامي سوى عشر دقائق، تفاجأت حينها بصوت مفاتيح خارج الشقة! شعرت بالدهشة، فقد كان من المفترض أن سما وإياد في

رحلة، وأنا ما زلت في المقهى وسأصل بعد عشر دقائق، لكن هذا ليس وقتًا للتفكير. اختبأت بسرعة البرق خلف إحدى الستائر، وبعد ثانية واحدة، فتحت نجلا باب الشقة. وما إن دخلت وأغلقته حتى سمعتُ صوت رجل معها، أزحتُ بسبابتي إحدى الستارتين ملليمترات ونظرت من بينهما، فرأيتُ أن الرجل الذي معها هو شوقي غربال، زوج حسناء، وقد حملها بعد أن أغلقت الباب، فأطلقت ضحكة كالعاهرات، أخذ يقبلها قائلًا:

- افتقدتك كثيرًا يا نجلا، لم أرك منذ وقتٍ طويل، كيف استطعتِ تحمل ذلك؟

اتسعت حدقتا عيني آنئذٍ وتجمّد الدم في عروقي، شعرتُ أن هناك غصة في حلقي، هل هذا يحدث حقًا؟! أريد أن يوقظني أحد الآن ويخبرني أنني كنت أحلم، وأن ما أراه وأسمعه ليس إلا كابوسًا، كان بإمكاني تقبّل فكرة أنها حاولت قتلي - رغم عدم معرفة سبب وجيه لفعل ذلك - لكن أن تخونني! هذا وحده كان كفيلًا بأن يشعل داخلي نارًا كالبركان. لا أعلم حينها كيف استطعتُ السيطرة على قلبي الذي أخذ يضرب جدران صدري وقد أوشك أن يتوقف عن النبض، لا أعلم كيف تحكمتُ في نفسي، كي لا أخرج من خلف الستائر وأنتقم منهم أشد انتقام. لكن، هذا ما حدث، صككتُ أسناني، وبالكاد كبحتُ جماح غضبي، والتزمت مكاني؛ فالوقت الآن ليس مناسبًا للانتقام، لن أنتقم إلا بعد أن أعرف كل شيء، وبعدما أطمئن إلى أن لا شيء آخر خفي عني وغائب عن علمي. وانتقامي لن يكون عاديًا؛ يجب أن يليق بهما، وبما فعلاه. عليّ أن أقدّم لهما انتقامًا غير متوقع وليس في الحسبان، انتقامًا بعد تفكيرٍ طويل، انتقامًا لم أخطط لمثله حتى في

رواياتي، الانتقام ليس الآن، فكل شيء بعد التأني والتفكير يكون أفضل.

ردت عليه العاهرة:

- ومن قال لك إنني استطعت تحمُّل ذلك؟ بل كنت مشتاقة لك أكثر من اشتياقك لي، وحين حانت الفرصة اتصلت بك.

أخذها ودخل غرفة النوم بخطواتٍ تشي بأنه يعرف المنزل جيدًا وكأنه بيته، لا أعرف ماذا حدث داخل غرفة النوم، لأنني كنت حريصًا على أن أظل مُتسمرًا مكاني دون أن تصدر مني ولو نأمَةٌ، لكني تفاجأت بها تُهرع مرة أخرى إلى الصالة، وهو يُهرع وراءها إلى أن أمسك بها وحملها مرة أخرى قائلًا بصوتٍ جهوري:

- لن أدعك تفلتين مني.

وضعت سبابتها على فمه محذرة بصوتٍ خافت: - قلت لك لا تتحدث بصوتٍ عالٍ.

لم يكد يرد عليها حتى أشارت له بيد مُتصلبة أن يغلق فمه، ثم خطث نحو الباب على أطراف أصابعها فسمعث صوت باب المصعد يُغلَق، وصوت أقدام على الأرض تبعها صوت سعلتي، ضربث بيدها على صدرها، وأشارت له أن يدخل إحدى الغرف بسرعة، وقف مرتبكًا يتلفث حوله لا يدري إلى أين يذهب، دعوت الله ألا يهديه عقله أن يختبئ وراء الستارة، أشارت له أن يدخل غرفة الأولاد ويختبئ تحت أحد الأسرة، فدخل ودخلت وراءه، واختبئا تحت السرير، كان ذلك حين ولجث المفتاح في الباب ودخلث مع حسناء، زوجته، لا

أعرف ماذا شعر حينها عندما سمع صوتها، واكتشف أنها تخونه معي، كما لا أعرف ماذا كان شعور نجلا أيضًا، لكن حتى لو أحسست بما يشعران به الآن، لن يشفي هذا غليلي تجاه ما أشعر به أنا، ولن يقلل من حجم رغبتي في الانتقام.

ما إن دخلنا وأغلقتُ الباب حتى ارتمت حسناء في حضني قائلة باشتياق:

- لا تتخيل كم كنت مشتاقة إليك يا عمر، لم أرك منذ شهرين.

بعدها بثوانٍ شعرتُ أن عيني تقابلت مع عينيه، أو ربما هذا ما خُيّل إليّ، رأيتني حينها قد شعرت بإعياء، وأعلم جيدًا ما شعرت به حينها، كانت نغزة قوية في قلبي، ووضعتُ يدي على صدري درءًا للألم، ثم جلست على الأريكة، دار حوار بينهما حتى هدأت النغزة قليلًا ثم حملها ليدخل بها داخل غرفة المكتب، وأغلقت علينا الباب من الداخل، وحصل ما حصل بيننا. أتذكر في ذلك اليوم أننا قضينا حوالي ساعة قبل أن تغادر حسناء، وغادرتُ أنا بعدها بنصف الساعة لأذهب إلى اتحاد الكتاب. لم يحدث أي شيء غريب في ذلك اليوم، وهذا معناه أن نجلا وشوقي ظلا تحت السرير لمدة ساعة ونصف دون أن يصدر منهما أي صوت، المدة نفسها التي قضيتها أنا خلف تلك الستارة البائسة، وأيضًا دون أيّ حراك، كنت حريصًا ألا يحدث أي تغيير في الخطة التي سار بها اليوم، وأن تجري الأحداث كما جرت في السابق دون أي انحراف.

بعدما غادرتُ خرجتْ نجلا من تحت السرير ومعها شوقي غربال الذي جلس على كرسي، وجلست نجلا قُبالته، وما زلتُ خلف الستارة

منتظرًا ما سيحدث. التقط شوقي سيجارة أشعلها وأعطاها إلى نجلا، وهذه هي المرة الأولى التي أراها فيها تُدخِّن، أخذتها منه ثم أشعل سيجارة لنفسه، وسحب نفسًا عميقًا قبل أن يبتدر كلامه: - أعتقد أن ما شاهدناه منذ قليل لا يحتاج إلى تعليق.

وقفث نجلا وهزت رأسها قائلة له بشرود: - يجب أن ننتقم من الاثنين، أشد انتقام.

- كيف؟

- لا أدري، ولكن يجب أن أجعله يتذوق النار كل يوم، يجب أن أجعله يتحسر على كل شيء، يجب أن أفقده كل ما يحبه ويفتخر به.

- بل يجب أن تقتليه، وبعدها سوف أقتل حسناء.

- أقتله؟! سألت متعجبة. فأطفأ شوقي سيجارته في منتصفها، ثم قال لها مُندهشًا:

- نعم تقتليه، ما المشكلة، هل هذه أول مرة تفعلين فيها هذا؟

- الموضوع ليس كذلك، غير أنني لم أقصد أن أقتل الفتاة، بل كنت أقصد خلود نفسها، عمومًا ليس لديّ مانع في قتله، كل ما أفكر فيه هو كيف سأفعل ذلك! يجب أن يتم الموضوع بخطة مُحكمة، ويجب قبل أن أقتله أن أراه وهو فاقد لكل شيء، وأول شيء شمعته ككاتب.

- ألم تخبريني منذ أسبوع بأنكِ سمعتِ حوارًا دار بينه وبين تلك الناقدة حول روايات لكاتب يدعى فتحي دربالة شبيهة جدًا برواياته؟

أومأت له برأسها أن نعم، وأشارت له بيدها ألا يتكلم ثم سكتت وبدا عليها أنها تفكر، ظلّت هكذا لنصف دقيقة حتى قالت له: - سأبحث عن كتابات وروايات هذا الكاتب، وما إن أصل لنتيجة سأجعل كل العالم يعرف ذلك، وسأنشر فضيحته في كل مكان، يجب أن أجعله يتحسر ويعتصر قلبه من الحسرة، قبل أن أقتله.

أطفأت سيجارتها حين قال لها: - أما أنا، فسوف أفكر في كيفية التخلص من تلك العاهرة التي تُدعى حسناء، ناوليني ملابسي، سأذهب الآن، ونتحدث لاحقًا.

بعد عشر دقائق كان قد ارتدى ملابسه، وحينما أمسك بمقبض الباب ليخرج، قبلثه من شفتيه قائلة له:

- لا تجعل ما رأيته بين هذا الكلب وهذه العاهرة يؤثر فيك، سنتخلص منهما ونعيش باقي حياتنا بجوار بعضنا البعض.

- بلغيني أولًا بأول بأي جديد. قالها ثم قبّلها من شفتيها وغادر، بينما هي دخلت الحمام وأغلقت الباب عليها، أخذتْ حينها نفسًا عميقًا، ثم فكرت أن أدخل عليها الحمام وأقتلها، لكني تراجعت وذكرت نفسي أن هذا الوقت ليس وقتًا مناسبًا للانتقام، ولا أعرف ما الذي سوف يترتب على قتلي لها، وانحراف الأحداث عما سارت عليها. خطوتْ بهدوء ناحية باب الشقة، ثم فتحته وخرجت دون أن تشعر العاهرة بأي شيء!

بعدما نزلتْ رأيتْ أنه قد حان الوقت للعودة إلى البرزخ، ولكن أولًا يجب أن أحتفظ بالهاتف الذي معي، والذي كان مُتصلًا بأجهزة

التنصُّت التي زرعتها، بحثتُ في مدخل العمارة عن مكان أشعر أنه آمن لأخبئه فيه، فوقعت عيني على تجويفٍ أعلى باب العمارة من الداخل، أطفأتُ الهاتف ووضعته داخل كيس أسود، ولففت حوله قطعة قماش ووضعته في التجويف بعد أن قبّلته، ركبت سيارة أجرة متوجهًا إلى كوبري قصر النيل، ثم قفزت من فوقه، لم أجرب هذه الميتة من قبل، وأعتقد أنها تجربة جديرة بالاهتمام! وما إن غطس جسدي حتى غرقتُ في القاع دون أن أطفو، وفي خلال ثوانٍ معدودة كنت عائدًا إلى مكاني، أمام الإطار المضيء، لم أضيّع وقتًا والتقطتُ القلم الذهبي لأكتب تاريخ اليوم التالي لدفني، وانتظرت بضع ثوانٍ حتى شعرت بالاهتزازة والضوء الساطع يُغلّفني، ثم انتفضت فوجدتُ نفسي في مكانٍ مُظلمٍ لم أعرفه منذ اللحظة الأولى، شعرتُ ببردٍ قارس، كما أن رائحة اليود هاجمت أنفي بقوة. التفتُّ حولي كالمجنون، محاولًا استيعاب أين أنا هذه المرة وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل. لم تمر أكثر من ثانيتين حتى أدركتُ أنني فوق القبة السماوية الملحقة بمكتبة الإسكندرية. لم تكن تلك المشكلة، بل كانت المشكلة الحقيقية أنني كنت شبه عارٍ، لا أرتدي سوى ملابسي الداخلية. فكرتُ في عبور الشارع وإلقاء نفسي في البحر وأنتحر لإنهاء حياتي، وأعود إلى البرزخ مرة أخرى، لكني لم أكن أضمن أين سأجد نفسي في المرة القادمة، لذا رضيتُ بما أنا فيه، انزلقتُ بجسدي بحذر شديد من فوق القبة السماوية، محاولًا تجنب أي جروح في جسدي! حتى وصلتُ إلى الأرض بسلام، اختبأت خلف السور المحيط بالقبة، والذي لم يكن عاليًا؛ حيث كان ارتفاعه حوالي متر أو يزيد قليلًا، بقيتُ على هذا الحال حوالي ربع ساعة أفكر فيما

سأفعله بهيئتي هذه، وفيما يبدو أن أحد أفراد الأمن قد رآني عبر كاميرات المراقبة، إذ فجأة ظهر أمامي أحدهم وسألني: - ماذا تفعل هنا أيها المجنون؟ وما هذا الذي ترتديه؟!

لم أعرف بماذا أجيبه، فأي مبرر سأقدمه لن يقنعه، لكن بهيئتي تلك، لم أكن بحاجة إلى إقناعه بأي شيء منطقي، المنطقيّ في هذه اللحظة هو أن أقنعه بأنني مجنون أو مشرد، أيهما أقرب. تظاهرتُ بذلك فعلًا، فأطلق ضحكة ساخرة وأشار لي بالابتعاد، ركضتُ بحركات غريبة مبتعدًا عنه، ولو أقسمتُ له حينها بجميع الأديان السماوية أنني كنت هنا منذ شهرين في ندوة لمناقشة أعمالي الأدبية، لما صدقني، لو حلفت له أن هنا كانت توجد لافتة كبيرة عليها صورتي، لسخر مني أو ربما صفعني على وجهي أو صعقني بالصاعق الكهربائيّ الذي معه! المهم أنني ابتعدتُ متجهًا إلى الشارع العمومي المطل على البحر. حزّ البرد وجهي حينها فدخلت أقرب شارع جانبي، لمحني سائق سيارة أجرة كان ينظف سيارته تحت بيته، فسألني مندهشًا:

- ما هذا الذي ترتديه في هذا البرد، وفي هذه الساعة المتأخرة، أيها المخبول؟

أجبته: - ركبت ميكروباص به ثلاثة رجال، سرقوني وأخذوا حقيبتي وحاسوبي، ثم جردوني من ملابسي وأنزلوني هنا، وإذا ساعدتني، سأعطيك كل ما تريد.

ضحك ساخرًا وقال: - ماذا ستعطيني وأنت مسروق وترتدي ملابس داخلية في الشارع؟

- سأذهب معك إلى أقرب ماكينة صراف آلي وأعطيك ما تريد.

فكر للحظة، ثم أشار لي أن أركب السيارة، اتصل بزوجته وطلب منها أن تلقي قميصًا وبنطلونًا من الشرفة، ففعلت. أعطاني الملابس، فارتديتها بسرعة، ثم ذهب بي إلى ماكينة الصراف الآلي، سألته ماذا يريد مقابل القميص والبنطلون، فأجاب بوجهٍ بريء كطفل: - لن أطلب كثيرًا، ألف جنيه يكفي والحمد لله.

لم أعلق على طمعه أو جشعه، بل قلت: - سأعطيك ألفين جنيه.

- مقابل؟ سألني مندهشًا

- مقابل أن تذهب بي حالًا إلى القاهرة!

بعد ساعتين وثماني عشرة دقيقة.

كنت في القاهرة، أمام العمارة التي أسكن بها، بعد أن تأكدت من هدوء المكان، دخلت العمارة، وتسلقت الباب، ومددت يدي نحو التجويف أعلاه والتقطت الهاتف، شاكرًا الله أنني وجدته ولم يُسرق. لم أرَ حارس العمارة سوى مرتين خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، وكلنا نعرف أنه لو شاهد حريقًا في العمارة لن يكلف نفسه عناء الإمساك بالهاتف والاتصال بالمطافئ، لا أن ينهض ويطفئها. ولكن في ذلك اليوم تحديدًا، ارتدى ثوب الشجاعة، وأمسك بعصا مكنسة حين لمحني، وصاح قائلًا:

- قف عندك أيها اللص! ماذا كنت تفعل هنا؟ وماذا تريد؟!

التفتُّ إليه، وأدركت حينها أن الخطة على وشك الانهيار، ولكن المفاجأة كانت في رد فعله؛ إذ انتفض فجأة وهرب من أمامي وهو

يصرخ: - عفريت الأستاذ عمر، عفريت الأستاذ عمر، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ابتعد عني لا تؤذني ولا أؤذيك، ابتعد عني، أشتاتًا أشتوت... أشتاتًا أشـ...

تركته مع تعاويذه، وابتعدتُ عن المكان لأجلس في أي مقهى وأستمع إلى ما تم تسجيله، كنت أريد أن أعرف ما يُقال في الوقت الحالي، إن وُجد.

راجعتُ التسجيلات التي التقطتها في غرفة النوم، في اليوم الذي دخلتُ فيه الغيبوبة وظنوا أنني متُّ، سمعتُ كل ما قالته لي نجلا حينها بأذني، وكنت حتى تلك اللحظة أظن أن ما سمعته كان مجرد تهيؤات أو تخيلات كاتب لديه خيال واسع. لكن الآن، بعد أن سمعت كل حرف بوضوح، تأكدتُ أنها كانت بالفعل تنوي قتلي، وقد شرعت في تنفيذ ذلك، بالاتفاق مع شوقي غربال.

طلبتُ فنجان قهوة آخر، واستمررت في الاستماع إلى باقي الملفات، ولم أجد فيها شيئًا يستحق الاهتمام، ثم انتقلتُ إلى تسجيلات اليوم التالي، وسمعتُ مكالمة بينها وبين إحدى صديقاتها، بدا من فحواها أنها كانت تخبر صديقتها بأن أكثر من وقف بجانبها بعد موتي كان الدكتور ماجد، وامتد الحديث إلى علاقة قديمة كانت تجمع بينهما، بدأت قبل زواجنا واستمرت لعامٍ ونصف بعد الزواج، قبل أن يبتعدا عن بعضهما، ثم أخبرت صديقتها أنها لم تستطع نسيانه حتى الآن، وأنها حين كانت سما في حالةٍ سيئة، لم تجد أحدًا سوى ماجد لتتصل به، وقد حضر إليها على الفورا

- ماجد العقاد؟! صديق العمر؟! سألت نفسي باندهاش بالغ، شردتُ

حينها في أشياء كثيرة، ما تلك المرأة التي كنت أعيش معها وأظن أنها ملاك؟! أيّ امرأة تلك التي يصل بها الشر لأن تفعل كل ذلك؟! أي امرأة تلك التي سلّمت عقلها وكل حواسها للشيطان؟ لا بل الشيطان نفسه يتعلّم منها! ماذا فعلتُ لها كي تكنّ لي كل هذا الشر؟ كيف كنت أنام بجوارها، وكل هذا بداخل صدرها؟ كيف كانت تتكلم معي بهدوءٍ مُصطنعٍ، مُتظاهرة أنها الزوجة المُطيعة المُخلصة المُحبة؟! كدتُ أجن كلما أفكر أكثر أشعر بأنني كنت مخدوعًا، نعم تزوجت عليها ولا أنكر أني جرحتها، لكن أي جرح هذا الذي يخلُق داخل امرأة انتقامًا يُحيلها من زوجة حنونة إلى امرأة خائنة، وشرّانية أكثر من الشيطان نفسه! قتل مع سبق الإصرار والترصد، ليس مرة واحدة بل مرتين، معي ومع جنّة، تلك الفتاة البريئة التي لا ذنب لها في كل ذلك! علاوة على خيانتها لي. غاص سكين الخيانة بعمقٍ في قلبي قبل أن يذبحني، اغرورقت عيناي في تلك اللحظة، وشعرت بوهنٍ لم أبلغه من قبل، لكني قررت ألا أُضيّع أيّ وقت في هذا الهراء الآن، دخلتُ الحمام وغسلت وجهي ثم نظرت لنفسي في المرآة، مُتعمدًا ألا تقع عيني على الشعر الأبيض الذي غزا رأسي أكثر وأكثر، وشحنت بداخلي انتقامًا لن يقل أبدًا، بل سيزيد.

لم أستطع أن أكمل، وأغلقت باقي المكالمة لأدخل الحمام مرة أخرى وأتقيأ، تذكرت حينها ما سمعته عن علاقتها بماجد وتساءلت في قرارة نفسي للمرة العاشرة.

- ماجد؟! حتى أنت يا ماجد خُنتني؟ كيف استطعت أن تكون معي شخصًا غير هذا الشخص الحقيقي الذي بداخلك؟! كيف استطعت أن تسمح لنفسك بأن تفعل ذلك معي، ولم تجد مني إلا كل خير؟!

فأنت الشخص الوحيد الذي كنت أستأمنه على أسراري! ما هذا العالم القميء الذي أعيش فيه؟! شعرت حينها بالتقزز من كل شيء حولي، ألا يوجد في هذا العالم أي نقطة بيضاء؟ سألت نفسي، ثم سرعان ما أجبتها حين تذكرت سما ابنتي وخلود المُخلّدة داخل قلبي، وأمي رحمة الله عليها.

شعرت حينها أنني أريد رؤية أمي، أريد أن أرتمي في أحضانها، ولكن كيف؟ ليتكِ يا أمي كنتِ معي الآن، لأحكي لكِ عن السواد الذي يغطي كل هذا العالم، السواد الكامن في قلوب كل من كنت أستأمنهم على حياتي وأظنهم أقرب الأقربين إليّ، لم أفكر كثيرًا، فلديّ الفرصة الآن أن أذهب إليها، خرجت من المقهى دون أن أدفع ثمن المشاريب، وصعدتُ إلى سطح البناية المجاورة، ثم وقفت على السور وشرعت ذراعي على امتدادهما وأغمضت عيني عن رؤية السماء المظلمة والسواد الحالك الذي لن يكون بأي حال أكثر قماءة من قلوب هؤلاء الوحوش الوالغة، ثم ألقيتُ نفسي في أحضان الفراغ، الخواء، فجاءت الاهتزازة، ومن ثم النور الساطع الذي يريح قلبي لأقف فجأة في البرزخ، أمام الإطار المضيء، كان العرق يقطر على جسدي كله، وبداخلي ارتجاجة بالكاد تحملتها، لكني لا أريد إهدار أي ثانية، التقطتُ القلم الذهبي، وكتبت تاريخ وفاة أمي، ومن ثم انتقلتُ بعدما غشيني النور الساطع مرة أخرى، وحمدت الله حينها؛ لأنني وجدت نفسي هذه المرة داخل ملعب استاد القاهرة الدولي، مُرتديًا بدلة أنيقة، طالما تمنيت حينما كنت صبيًا أن أكون لاعبًا، وأقف على هذا الملعب مرتديًا "تيشيرت" أحد الأندية الكبرى، وأن أحرز أهداف في...

نفضت رأسي عن التفكير في هذا الهراء، فليس هذا الوقت

المناسب له، التفتُّ حولي فلم أجد أي كائن، اجتزت لوحات الإعلانات وخرجت من البوابة أسفل المقصورة الرئيسية، ثم تسلّقت السور واجتزته لأجد نفسي في الشارع، أوقفتُ سيارة أجرة فوقف لي سائق عجوز سمح الوجه، قلت له دون مقدمات:

- سأعطيك هذا الجاكيت مقابل أن توصلني إلى مستشفى السلام؛ لأنني لديّ هناك حالة طارئة، وليس معي نقود.

فقال لي الرجل دون تردد: - أركب يا بني دون أي مقابل، ارتدِ الجاكت لن آخذه.

وصلتُ هناك بعد اثنتي عشرة دقيقة، صعدتُ إلى الطابق الرابع، قسم العناية المركزة، نظرتُ إليها من خلال النافذة الزجاجية، كانت عيناها الوادعتان مفتوحتين تحدقان في السقف، وعلى وجهها قناع الأكسجين، وبجوارها ممرضة تُعطيها حقنة. حانت منها التفاتة نحوي، وابتسمت لي من خلف القناع، اغرورقت عيناي وبادلتُها الابتسام، وانتظرتُ حتى تخرج الممرضة، لأستأذنها بالدخول. أردتُ أن أقبّل يديها وقدميها، وأتحدث معها ولو لدقيقتين كي يرتاح قلبي وتغشاه السكينة، لم تمكث الممرضة طويلًا بعد الحقنة، وخرجتْ مسرعة، حاولتُ التحدث إليها: - لو سمحتِ أريد أن...

أشارت لي بيدها وهزّت رأسها قائلة: - من فضلك، أنا متعجلة الآن.

شعرتُ حينها بالإحراج، فكرتُ أن أدخل إلى أمي مباشرة دون أن أستأذن أحدًا، لكنني تراجعت عن الفكرة، وقررتُ التوجه إلى الطبيب المتابع لحالتها، وكانت غرفته في آخر الردهة يمينًا، عندما اقتربت من الباب وأمسكت بالمقبض، سمعتُه يقول للممرضة بصوت خافت:

- ما الذي تقولينه؟ كيف أعطيتِها حقنة الباراديسامول بالخطأ؟! هذه الحقنة ستتسبب في موتها لا محالة!

تيبست في مكاني، ثم فتحت الباب فجأة. تعرف عليّ الطبيب فورًا، وقال لي محاولًا التهدئة: - أستاذ عمر، اهدأ، كل شيء سيكون بخير.

تركته واندفعت راكضًا إلى غرفة أمي، دخلت لأجدها تلتقط أنفاسها بشكلٍ متسارع، ومدّت يدها نحوي، أمسكت بيدها، وفي تلك اللحظة دخل الطبيب والممرضة محاولين إنقاذها، لكن دون جدوى، التقطت أمي آخر نفس ببطء، ثم زفرته بهدوء، وأغمضت عينيها، تاركةً جسدها ساكنًا، فيما استقام خط نبضات قلبها على شاشة المؤشرات الحيوية.

كان أوار شعلة غضبي قد تجلى لهما من خلال نظراتي ولهاثي وصوت أنفاسي المتسارعة، اقترب الطبيب مني مرتعشًا، محاولًا التحدث، لكني لم أترك له فرصة، أمسكته من ياقة سترته دون أن أتفوه بكلمة، حاولت الممرضة الهرب، لكني قبضت على رقبتها باليد الأخرى، وقد قررت حينها أن أجعلهما يتذوقان طعم الموت البطيء... ثم...

شعرت فجأة بالإعياء

نور ساطع يُغلّفني من كل صوب وحدب

اهتزازة قوية

عودة تصحبها ارتجاجة أقوى

سقف الغرفة... ثم فجأة...

-٨-

بعد مرور خمس ساعات ونصف... "بحسب ما أخبرتني به خلود"

استفقت حينها فوجدتُ بجانبى خلود التى اتصلت بماجد لتخبره أنني استفقت من التخدير، لكنه لم يجبها، اقتربت مني ومسدت شعري بأناملها، والتقطت منديلًا لتمسح العرق المتقطر على رقبتي، كنت ساهمًا حينها وشاردًا لا أتكلم، وهذا ما لاحظته خلود التي سألتني ماذا بي، ولماذا أنا شاردٌ هكذا، لم أرد عليها رغم أنني أسمعها جيدًا، كل ما رأيته وعرفته هذه المرة بدأ يمر أمام ناظريّ كشريط سينمائي.

دخل ماجد آنئذٍ فقالت له خلود أنها اتصلت به منذ قليل، فسألها مندهشًا:

- حقًا؟! ثم أخرج هاتفه فوجد بالفعل مكالمة فائتة منها، فاعتذر لها مبررًا بأن هاتفه كان على الوضع الصامت لأنه كان مُنهمكًا في متابعة حالة حرجة، وضع هاتفه على الكومود بجواري ثم قال لي:

- ألف سلامة عليك يا صديقي، هذه المرة استفقت بعد مدة أطول من المرة السابقة.

ما زلتُ شاردًا أفكر فيما رأيته واكتشفته، اقترب مني وقد شعر فيما يبدو أنني ظمآن، وقد كنت كذلك بالفعل، كنت أشعر أن حلقي مُتيبسًا، التقط علبة عصير وقربها من فمي، لكني أغلقت شفتي وهززتُ رأسي رافضًا أن أبرد حر ظمأي من يد هذا الوقح الخائن الجبان.

- وهل هذا مقلق يا دكتور؟ سألته خلود فأجابها:

- لا، ليس مقلقًا للدرجة، لقد طلبتُ من طبيب التخدير أن يزود المخدر قليلًا؛ لأن عمر طلب مني أن أطيل مدة توقف القلب، ولكني أراه بخير والحمد لله.

كان ذلك حين حضرت المُمرضة لتخبر ماجد أن الحالة التي كان معها منذ قليل تحتاج لتدخله، فاستأذن:

- سأذهب لتلك الحالة وأعود إليك يا عمر، كي نتحدث بخصوص رحلتك القادمة الخاصة بي.

قالها وهو يغمز لي بعينيه، ثم خرج من الغرفة، وما زالت خلود تشعر بالقلق عليّ، جلست بجواري على طرف السرير، وسألتني بنبرةٍ هادئة ماذا بي وما سبب شرودي، فأخبرتها، وما زلتُ معلقًا بصري على السقف دون أن أرمش:

- اكتشفت في هذه المرة كل الأشياء التي كانت غائبة عني، كل الأشياء غير المرئية التي كنت غافلًا عنها يا خلود، الجانب الآخر، الجانب القبيح من كل شيء كانت عيني تراه جميلًا، أول تلك الأشياء هو خيانة هذا الكلب الذي كان هنا منذ قليل.

اتسعت عيناها عن آخرهما، وسألتني مندهشة: - ماجد؟!

أومأتُ لها برأسي، بينما اغرورقت عيناي وكادت الدموع تسقط، لولا أنني كافحتُ لكبحها، صمتت خلود ولم تعرف ماذا تقول. في تلك اللحظة، سمعتُ صوتًا ينبعث من هاتف ماجد الذي نسيه على الكومود بجواري. التفتُّ نحوه وطلبتُ من خلود أن تُناولني

إياه بسرعة، ففعلت. ما إن أمسكته حتى رأيت إشعارًا من تطبيق الواتساب، برسالة من نجلا تقول: "ماجد... أحتاجك الآن، هل ستأتي إليّ في البيت أم آتي إليك العيادة؟"

أغمضتُ عيني حينها، وقد شعرتُ بألمٍ فاق بكثير ذلك الألم الناتج من شق صدري وكسر ضلوعي وتوقف قلبي وعشرات المرات التي متُّ فيها، فيما أرسلت العاهرة رسالة أخرى، فقرأتها من الخارج دون أن أفتحها لأن الهاتف بطبيعة الحال محميٌ بكلمة سر، قالت له: "رد عليّ يا ماجد... أنا محتاجة إليك.."

سألتني خلود حينها بلسان الحيرة: - ما معنى هذا؟ هل هذا الذي أراه حقيقي؟! رغم أنني أرى ذلك بنفسي لكني لست مُصدقة، في الوقت نفسه لا أستطيع التكلم لأن أي كلمة سأقولها سوف تُفهَم على نحوٍ خاطئ، هل تفهمني؟

- نعم، أفهمك يا حبيبتي. قلتها وما زال الألم يزيد بداخلي، وشبّت النار في صدري أكثر حين حاولت العاهرة الاتصال به، أعطيتُ الهاتف لخلود وطلبت منها أن تضعه بعيدًا عني، كي لا يشك أنني رأيت تلك الإشعارات، ففعلت ما طلبته منها.

وما إن وضعت الهاتف بعيدًا حتى عاد ماجد، سألني كيف حالي الآن وهل أشعر بأي ألم؟ فأومأت له برأسي نافيًا، فسألني هل أستطيع تحمل العملية في فجر الغد أم ننتظر قليلًا، فقلت له أنني سأتحمل لا مشكلة، جلس بجواري على طرف السرير قائلًا لي:

- هذه المرة لن تفعل الكثير، كل ما أريده منك هو أن تذهب إلى المستقبل، وتقابلني، وتعرف كيف سيكون حالي بشكلٍ عام، حالتي

المادية، مركزي الاجتماعي، هل ستقابلني مشكلات وأحداث جسيمة في مستقبلي الذي هو يعتبر ماضي ماجد الذي ستقابله؟ ولو قابلتني مشكلات كبيرة كيف قمت بحلها، والأهم من كل ذلك، هل سيكون لدي ابن أم لا، فأنا كما تعرف.. أطرق رأسه خجلًا، لا أعرف من أين أتى بهذا الخجل! ثم أردف:

- فأنا كما تعرف لا أنجب، وهذه الأيام نجري أنا وعزة عملية التلقيح الصناعي، للمرة الرابعة.

- حسنًا، حسنًا يا صديقي، لقد فهمت ما تريد، أي سنة تريدني أن أذهب إليها؟

- أي سنة، ولكن حاول أن تكون بعيدة نسبيًا.

- اختر أنت، المهم ألا يكون بعد عام ٢٠٤١؛ لأنني في هذه السنة سأكون ميتًا.

سمعت حينها أنين خلود التي لم تستطع كبح دموعها وبكت، فطلب مني أن أذهب إلى يوم عيد ميلاده في العاشر من شهر أكتوبر عام ٢٠٣٥.

أومأت له برأسي أنني موافق: - حسنًا، لا مشكلة، ادع الله أن أكون في هذا العام حيًا.

***

فجر اليوم التالي...

راقدًا على سريري وتدفعني الممرضة إلى غرفة العمليات بعد أن

جهزوني لها، أخذت أفكر فيما سأفعل حينما أنتقل للأعلى، لا يوجد بداخلي أي خطة لأي شيء قادم، ولا أعرف ماذا سأفعل، كل ما أعرفه في تلك اللحظة أنني أدركت كل شيء ورأيته على حقيقته، انقشعت الغشاوة من فوق عيني، كنت أعمى وأبصرت!

دخلتُ غرفة العمليات، ودخل طبيب التخدير وأعطاني الحقنة، فيما دخل ماجد مُبتسمًا لي وربت على كتفي:

- لن أوصيك يا عمر، لا تنسى، يوم عيد ميلادي، العاشر من أكتوبر عام ٢٠٣٥، سأنتظرك هناك.

هززت له رأسي دون أن أنظر إليه، فقد كنت أشعر بالتقزز تجاهه في هذه اللحظة، بدأ المخدر يعمل بداخلي...

تحليق

توصل جسدي بجهاز الرئة والقلب...

توقف قلبي...

انتقلت للبرزخ، ومن ثم وقفت أمام الإطار الفيروزي وكتبت...

١٠/١٠/٢٠٣٥

غمرني النور الساطع مصحوب بالاهتزازة المعتادة، ثم فجأة وجدت نفسي جالسًا داخل كابينة في دورة مياه. حمدت الله حين سمعت أصوات رجال بالخارج، فأدركت أنني في حمام للرجال، حمدت الله مرة أخرى حين وجدتني أرتدي قميصًا وسروالًا غير لافتين للأنظار. لكن الأهم من كل ذلك، أنني في هذا العام سأظل

على قيد الحياة. عزمت في قرارة نفسي أن أخصص فيما بعد وقتًا لتجربة زيارة الأعوام من ٢٠٣٥ إلى ٢٠٤١، لأعرف بالتحديد متى وكيف سأموت! لكن الآن، خرجت من الحمام لأجد نفسي على ارتفاع ١٨٧ مترًا فوق سطح الأرض، فوق برج القاهرة!

لم أُعطِ الأمر سوى خمس ثوانٍ من الدهشة، ثم استدعيت المصعد، بعد دقائق كنت في الأسفل، وجدت ماكينة صراف آلي أمام البرج، أدخلت رقم حسابي لأتفاجأ بأنه فارغ تمامًا، اندهشت حينها وبدأت التساؤلات تجتاحني: - ترى، ماذا سيحدث لي هذا العام؟ هل سأكون مُفلِسًا؟ أم سأصبح ثريًا وسأفتح حساب في بنك آخر؟ أم...

قاطع تفكيري رجل خلفي يلكزني على كتفي بغلظة قائلًا بصوتٍ أجش:

- هل انتهيت؟ أم ستشاهد فيلمًا على شاشة الماكينة؟

اعتذرت له ساهمًا، وتراجعت خطوتين للخلف لأفسح له المجال، لكن التساؤلات لم تفارقني، فكرت في البحث عن نسختي التي تعيش الوقت الحاضر، لأعرف كيف سأكون حينها، لكني تراجعت؛ فأنا الآن في مهمة يجب أن أنجزها. في تلك اللحظة، فكرت في فعل شيء لم أكن أرغب فيه، لكن هذا الرجل يستحق ما سأفعله بسبب لكزه لي بهذه الطريقة المقززة. وما إن سحب أمواله من الماكينة حتى اقتربت منه قائلًا:

- سامحني على ما سأفعله، لكنك تستحق أكثر من ذلك.

التفت لي مندهشًا، لكني لم أترك له فرصة لأي اندهاش، ولكمته

لكمة قوية على وجهه، ثم خطفت ما في يده من أموال، وركضت مُسرعًا حتى وصلت إلى بوابة النادي الأهلي، استقللت تاكسي وطلبت منه أن يتوجه إلى عيادة ماجد. وهناك، تفاجأت بأن العيادة تحوّلت إلى شقة سكنية! سألت حارس العقار عن العيادة، فأخبرني أن الدكتور ماجد قد نقل عيادته إلى مكانٍ أكبر. سألته عن عنوانه الجديد، فأومأ برأسه نافيًا معرفته، لكن سيدة كانت تمر بجوارنا سمعتني وأخبرتني أن عيادته الجديدة تقع في مدينة الشيخ زايد، بجوار أركان بلازا.

لم أضيّع وقتًا وذهبت إلى هناك مباشرة، واستطعت الوصول إلى عيادته بسهولة، لكني لم أجد ماجد. وأخبرتني السكرتيرة أنه لن يحضر اليوم؛ لأنه سيحتفل بعيد ميلاده، فطلبت منها الاتصال به، وعندما سمع صوتي عبر الهاتف، رحب بي بحفاوة.

- أهلًا بصديقي العزيز عمر، اليوم عيد ميلادي، وقد انتظرتك منذ الصباح، كنت أعتقد أنك ستستخدم ذكاءك لتصل إلى بيتي مباشرة، اسمع يا عمر، ابقَ مكانك لا تتحرك، سأرسل إليك سائقي الخاص ليصحبك إليّ.

جلستُ أنتظره، وفي تلك الأثناء، حضرت فتاة عشرينية لحجز موعد كشف لدى ماجد، بعدما انتهت، لمحتني وهتفت بدهشة:

- الكاتب الكبير عمر مدكور؟! لا أصدق عيني! يا لها من صدفة رائعة! لقد اشتريت للتو مجموعة رواياتك كاملة، والدتي كانت من عشاق أعمالك الأدبية وما زالت، هي التي حببتني في كتاباتك، أعطتني رواية لك لأقرأها، ومنذ ذلك الحين قررت شراء كل أعمالك،

ولحسن الحظ أن والدتي في السيارة بالخارج، من فضلك، تعالَ معي لتسلم عليها وتوقع لنا الكتب ونلتقط صورة تذكارية معك.

شعرت في تلك اللحظة بنشوةٍ عارمة، وأدركت أن حالي - مبدئيًا - سيكون بخير في هذا العام، على الأقل من الناحية الأدبية، زاد فضولي لمعرفة باقي تفاصيلي، لكنني قررت أن أترك ذلك لما بعد إنجاز المهمة التي أمامي، خرجتُ مع الفتاة بزهوٍ مجاملةً لها ولوالدتها، وحين اقتربت من السيارة اندهشت حين رأيت من بداخلها، إنها عزة! زوجة ماجد! والتي أعطت للفتاة مبلغًا من المال وشكرتها على الدور الذي قامت به، لم أفهم ما يجري حينها وسألتها مرتبكًا:

- ما الذي يحدث يا عزة؟ لا أفهم شيئًا و...

قاطعتني بحدة:

- ليس مهمًا الآن أن تفهم سوى ما أريدك أن تفهمه.

أشارت لي بأن أدخل السيارة بسرعة وأجلس بجانبها، ففعلت، التفتت يمينًا ويسارًا بقلق، ثم قالت لي في عجالة، وقد ظهر عليها الخوف:

- اسمع يا عمر، أمامي دقيقتان فقط لأخبرك بكل ما يجب أن تعرفه، أنا أعلم أنك جئت من عام ٢٠٢٥، وأنك النسخة المزيفة من تلك النسخة الحالية، البائسة التي ترقد في شوارع وسط البلد.

أخرجت هاتفها، وفتحت صورة لي بشعرٍ أشعث وهيئة رثة، متخذًا من أحد أرصفة وسط البلد مأوى، وحولي قطط وكلاب الشوارع،

اقشعر بدني حينها، ولم أستطع الكلام، فاستأنفت عزة حديثها:

- لقد اطلعت سرًا على المذكرات التي كتبها ماجد في الفترة الأخيرة، وعلمتُ ما يحدث لك الآن في عام ٢٠٢٥، لأنه كتب ذلك في مذكراته، أخذتُ مني الهاتف وفتحت لي صورة التقطتها لأهم صفحة في مذكراته، وطلبت مني أن أقرأها:

- حتى جاء دوري آنئذٍ... وقد طلبتُ من عمر أن يذهب إلى يوم عيد ميلادي في عام ٢٠٣٥، ليقابلني، فأخبره فقط بما يمكنني إخباره، بما أريد أن أنقله لنفسي فقط، خافيًا عنه أي شيء آخر!

لفت انتباهي آخر جملة، فسألتها: - ما هي تلك الأشياء التي سيخفيها عني؟

- أشياء كثيرة يا عمر، أهم تلك الأشياء هي أنه سيطلقني بعدما تفشل عملية التلقيح الصناعي للمرة الخامسة و...

قاطعتها: - هذا الأمر لا يهمني في شيء، ويستطيع أن يخبرني هو به أصلًا...

- هل من الممكن ألا تقاطعني كي أخبرك بكل شيء قبل أن يأتي سائقه؟! قالتها بحدة، فالتزمتُ الصمت لتُكمِل كلامها:

- بعدها سيطلقني ويتزوج من نجلا بعد تفاصيل سخيفة لا وقت لسردها، المهم أنها ستنجب له طفلًا، هذا الطفل الآن عمره خمس سنوات تقريبًا.

قالتها وأعطتني هاتفها مرة أخرى وفيه صورة زفاف نجلا وماجد، وصورة أخرى لهما مع طفلٍ صغيرٍ.

- وأين أولادي الآن؟ سما وإياد؟! أين هما؟ سألتها وقد اغرورقت عيني..

- إياد حُكِمَ عليه بالإعدام بتهمة قتل سيدة تُدعى حسناء، وتم تنفيذ الحكم في أواخر عام ٢٠٢٥. وسما سافرت خارج البلاد بعدما سئمت من البحث عنك، لأنك ستختفي فترة كبيرة لا أحد يعلم عنك شيئًا، هذا بالتزامن مع مضايقة ماجد لها ومحاولته اغتصابها عدة مرات، اشتكت للعاهرة نجلا لكنها لم تصدقها ووبختها.

شردتْ حينها لكنها انتزعتنى من شرودى:

- لا! أرجوك، لا تبتعد بتفكيرك الآن، بل يجب أن تفكر فيما ستفعله اليوم..

- أفكر؟! عقلي قد أصيب بالشلل يا عزة، بماذا أفكر؟! ماذا أفعل؟! لقد فقدت كل شيء؛ ابني وابنتي ومستقبلي، كل شيء! ماذا أفعل لهذا الكلب وتلك العاهرة؟!

- لقد أخبرتك بما كان عليّ إخبارك به، والآن يجب أن أتركك، قبل أن يراني السائق ويبلغه أنني تحدثت معك، وتُفسد كل الخطط.

فتحت درج سيارتها وأخرجت مسدسًا كاتمًا للصوت من نوع "سيج سوير بي ٣٢٠ إم ١٧"، ووضعته في يدي قائلة: - خذ هذا المسدس، أعتقد أنك ستحتاجه، لأنني أعلم جيدًا أن الجرح الذي في قلبك لا يقل عن ذلك الذي في قلبي يا عمر.

أخذت المسدس منها ووضعته في جيبي قبل أن أنزل من السيارة، ثم دخلت العيادة مرة أخرى مُنتظرًا السائق، والذي وصل بعد خمس

دقائق تقريبًا، واصطحبني إلى فيلته، أو بالأحرى قصره، وما إن دخلت حتى انبهرت بكل شيء وقعت عليه عيني؛ حديقة كبيرة يتوسطها حمام سباحة، إضافة إلى الخدم والحشم، وكنت أظن أن السيارة الفارهة التي ركبتها هي سيارته الوحيدة، لكني اكتشفت أن هناك أسطولًا من السيارات التي تعمل بالكهرباء.

استقبلني الخسيس عند بوابة قصره المنيف، صافحني بحرارة ورحب بي، ثم أخذني إلى الداخل حيث مكتبه، تظاهرت بأني لا أعرف شيئًا، وما إن جلس على مكتبه حتى سألني ماذا يقدم لي، اعتذرت له وأخبرته أنني لا أريد أي شيء، فابتدر كلامه مباشرة دون مقدمات:

- لن أضيع وقتك، فأنا أعلم أنه محدود، وسرعان ما ستعود إلى هناك... إلى ٢٠٢٥. تلك الأيام الخوالي، قالها وهو يبتسم، ثم استطرد:

- حسنًا فلندخل مباشرة في الموضوع. الآن جسدك راقد داخل غرفة عمليات في مستشفى خاص، وأجري لك عملية جراحية كما تعرف، ستكون تلك آخر مرة أجريها لك؛ لأن الألياف سوف تتضرر كثيرًا، ولن تحتمل عمليات أخرى، علاوة على أنك لن تكون قادرًا على تحمُّل أي جرعات تخدير أخرى... لكنك ستكمل حياتك بشكلٍ طبيعي، وسوف تكون سعيدًا مع أولادك، ومع نجلا، ومع خلود.

حتى لو لم تخبرني عزة بأي شيء، لكني، في تلك اللحظة، قرأت في عينيه كل كذب العالم، وأدركت أنه يكذب عليّ ويخبرني بذلك فقط ليطمئنني، تابع الدنيء الوضيع كلامه:

- أما بالنسبة لي، ستكتشف إدارة المستشفى أنني أجريت لك

هذه العملية عدة مرات، وسيقيلونني، كما ستوقفني نقابة الأطباء عن العمل، ستكون محنة بالطبع، لكنها لن تدوم طويلًا، وسرعان ما ستتحول إلى منحة كبيرة من الله، سيذيع صيتي بداية من عام ٢٠٢٧ عندما أسافر إلى أمريكا وأتحدث عن تجربتي معك، ثم أجربها على وزير الصحة هناك، بعد أن يقتنعوا بكلامي، سيشترون مني الفكرة بثلاثين مليون دولار، مقابل عدم نشرها لأي جهة أخرى، وقد وافقت على الفور، بالطبع لن ينشروها؛ لأنهم يريدونها لأشخاص محدودين، وسأجرى في نطاقٍ ضيق جدًا.

سكت لهنيهة، بينما كنت معلقًا عيني على ملامح وجهه وأتفحص لغة جسده، استطرد كلامه:

- سأعود إلى مصر في ٢٠٢٨، وسأنجب طفلًا جميلًا من عزة. قال هذا ورن الجرس، فجاءت المربية تحمل الطفل، بينما أردف كلامه:

- هذا هو طفلي يا عمر... احفظ ملامحه جيدًا لتصفه لي عندما تعود إلى عام ٢٠٢٥، انظر كم هو جميل!

تفحصت ملامح الطفل بابتسامةٍ منكسرة، ثم أشار للمربية أن تأخذه وتنصرف، فقلت له وما زالت الابتسامة مرسومة على ملامحي:

- لديك حق يا صديق عمري، طفل جميل جدًا، بارك الله لك فيه. هل هناك شيء آخر تريد إخباري به؟

- لا، لقد أخبرتك بكل شيء.

قالها ثم استند بظهره إلى الخلف، وما زال جالسًا على كرسي

مكتبه، لكنه سرعان ما اعتدل في جلسته كأنه تذكّر شيئًا:

- آه، لقد نسيت! أخبرني عندما تعود أن أشتري هذا القصر قبل عام ٢٠٣٠، لأن أسعار العقارات ستتضاعف بعد هذا العام، وشراؤه قبل ٢٠٣٠ سيوفر لي أكثر من سبعة ملايين.

- حسنًا، هل هناك شيء آخر؟ سألته وأنا أنهض، فهزّ رأسه قائلًا:

- لا يا صديقي، هذا كل شيء، اذهب، اذهب في أمان الله.

قالها وفتح ذراعيه على اتساعهما، بينما كنت أخطو نحو باب مكتبه وأغلقته بهدوء من الداخل، مما جعله ينظر إليّ بعينين ذاهلتين ويسألني بدهشة: - ماذا تفعل يا عمر؟

فابتسمت له قائلًا بنبرة بدت له ودودة: - كل خير يا ماجد، كل خير لا تقلق.

أخذت أنظر حولي في أنحاء الغرفة، ثم أردفت كلامي: - غرفة مكتبك رائعة يا ماجد، ابنك أيضًا جميل، وحياتك مستقرة، لكن الرياح لا تأتي دائمًا بما تشتهي السفن.

قلتها، وأخرجت المسدس الكاتم للصوت من جيبي ووجهته نحوه، أطلقت رصاصتين، واحدة في رأسه والأخرى في قلبه، ثم خرجت من مكتبه، فوجدت المربية مع الطفل، سألتها عن والدته، فأخبرتني أن السيدة نجلا سافرت إلى ألمانيا لقضاء العطلة هناك، هززت لها رأسي، ثم أطلقت رصاصة على الطفل فأرديته قتيلًا على الفور، ولم أبخل على نفسي بالرصاصة الرابعة، كنت أرغب في الذهاب إلى وسط البلد لأقابل تلك النسخة البائسة مني، لكنني كنت أعلم أن

الوقت ضيق، فوجهت المسدس نحو رأسي لأتذوق الموت بطريقة لم أجربها من قبل، وأطلقت الرصاصة.

طعم صدأ حديد على لساني...

عدت إلى البرزخ... وقفت أمام الإطار الفيروزي....

وفي تلك اللحظة خطرت لي فكرة عبقرية!

***

في نفس الوقت... عام ٢٠٢٥

سقط ماجد فجأة في غرفة العمليات، إثر نوبة قلبية مفاجأة، فخرجت الممرضة من غرفة العمليات وذهبت مُسرِعة إلى رئيس قسم القلب الذي حضر على الفور وأمر بنقله إلى الطوارئ لإسعافه، ثم استكمل هو العملية بنفسه، لأعود مرة أخرى فجأة قبل أن أقدم على تنفيذ الفكرة العبقرية التي خطرت على بالي!

***

استفقت بعد أربع ساعات، على سريري، فوجدتُ خلود عاقدة يديها على صدرها ومُطرقة رأسها، بجوارها مدير عام المستشفى، والرئيس التنفيذي، ورئيس قسم جراحة القلب - الذي أكمل العملية بدلًا من ماجد - مُبتدرًا كلامه بحدةٍ بالغة:

- ما هذا الذي يحدث في المستشفى دون علمنا؟! من أنت؟ ولماذا أجرى لك ماجد تلك العملية عدة مرات؟ لقد لاحظتُ أن جرحك قد أُغلِق عدة مرات من قبل في فترةٍ وجيزة، وعظمة القص مُتهتكة،

والألياف تحت الجلد أصبحت بالية، والشرايين حول قلبك بها ضرر بالغ، ما الذي يحدث، وما هي تلك العمليات الجراحية التي لا يكون فيها طاقم كامل بل ثلاثة أفراد فقط؟!... تكلّم.

- لم يحدث شيء. قلتُ باقتضاب وأنا أزم شفتي، فرد عليّ متحفزًا:

- أنت تكذب، هل تريد الانتحار؟ أخبرني، رُد عليّ، إذا كنت تريد أن تنتحر فافعل ذلك بعيدًا عن هنا، هذا المستشفى ذو سمعة جيدة، ولن نقبل أن يُهدم مستقبلنا على يدك! أخبرني الآن لماذا أجرى لك ماجد هذه العملية عدة مرات؟ وليتها عملية كاملة، بل إنه لا يفعل شيئًا سوى فتح صدرك وفصل قلبك عن العمل، لقد أخبرتنا الممرضة المرافقة له بكل شيء، أخبرني الحقيقة.

لم أجبه، ولم أتفوه بأي كلمة، فوجه كلامه لخلود: - لقد علمتُ أنك طبيبة، أخبريني ماذا يحدث يا دكتورة؟

لم تجبه هي الأخرى، وما زالت مُطرقة رأسها، فاستطرد بحدة أقوى: - سوف أبلغ نقابة الأطباء عن ماجد وسوف يُشطَب من نقابة الأطباء، وإن لم تخبريني سوف أذكر اسمك أيضًا.

أصرّت خلود على عدم التحدث، فأكمل رئيس قسم القلب والأوعية:

- حسنًا، كما تشاؤون. وجه كلامه لي قائلًا: - ستظل هنا لمدة ٢٤ ساعة، وبعدها ابحث عن مستشفى آخر انتحر فيه إن أردت، لقد أغلقتُ جُرحك وأصلحت ما أفسدته كثرة العمليات السابقة، وفعلت ما يستوجب عليّ فعله كطبيب.

سكت لهنيهة ثم قال بنبرة هادئة: - من فضلك، لا تجعلني أراك هنا مرة أخرى.

قالها ورحل، ورحل معه مدير المستشفى ورئيسه التنفيذي، جلست خلود بجواري دون أن تتفوه بأي كلمة، اعتذرت لها عما حدث، فوضعت يدها الرقيقة على فمي:

- لا تقل أي شيء يا عمر، فداك عمري كله، المهم أنك بخير.

كان ذلك حين دخلت الممرضة لتعطيني بعض المسكنات، فسألتها بلطف:

- أين دكتور ماجد الآن؟!

فأخبرتني أنه سقط فجأة مُغشيًا عليه في أثناء إجراء العملية، ونقلوه إلى قسم الطوارئ، وتم إسعافه، وهو الآن في الغرفة المجاورة، سكتت قليلًا، ثم أردفت بأسى: - كان الله في عونه، عندما يستفيق سيجد كوارث في انتظاره، أقلها إيقافه عن العمل.

لم أنم تلك الليلة؛ لأن لديّ مهمة يجب أن أنفذها قبل أن أغادر ذلك المستشفى بلا رجعة، استلقت خلود على الأريكة أمامي، وغفلت قليلًا بعدما ألححت عليها، وحينما تأكدت أنها تغط في نوم عميق، كانت الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، تحاملت على ألمي وسموت فوق جراحي، ثم خرجت من غرفتي، قاصدًا الغرفة المجاورة على يمين غرفتي، فوجدتها فارغة، كان الممر خاليًا تمامًا إلا مني، دخلت الغرفة التي على يساري، فوجدتُ ماجد مُستلقيًا على السرير، وعلى وجهه قناع الأكسجين، وضعت يدي على كتفه

برفقٍ، ففتح عينيه ببطء، حاول أن يتكلم لكنه وجد صعوبة في ذلك، ولاحظتُ أنه يحرك لسانه الجاف، سألته إن كان يشعر بالظمأ، فأومأ رأسه بالإيجاب، لم أكترث لظمئه وسألته مبتسمًا: هل تريد أن أحكي لك عما رأيته في ٢٠٣٥؟ هز لي رأسه بحماس، ولمحتُ في زوايا عينيه فضولًا متقدًا، فأجبته بنبرة خافتة، وما زالت الابتسامة مرسومة على وجهي:

- ستعيش في قصر كبير في مدينة الشيخ زايد، سيكون لك ابن رائع، جميل، وستحصل على أوسمة وشهادات كثيرة، وثراء لن تستطيع أن تحلم به حتى.

لمعتْ عيناه حينها، لكني سرعان ما أطفأتُ تلك اللمعة:

- لكني قتلتك هناك، وقتلت ابنك أيضًا. اتسعت حدقتا عينيه حينها، وقد لمحتُ الخوف وهو يسكن ملامحه، هززت له رأسي مؤكدًا كلامي، وما زلتُ مبتسمًا حين قلت له:

- لقد قتلت نسختك في المستقبل، ويجب عليّ أن أُكمِل عملي، وأقتل هذه النسخة الحالية أيضًا، النسخة الدنيئة الخسيسة التي خانتني.

جحظت عيناه أكثر، وبالكاد استطاع أن يتكلم بلسانٍ ثقيلٍ: - أنت تفهم الموضوع بشكلٍ خاطئ يا عمر، لم أخُنك صدقني، أنت لا تعرف كل شيء، اسأل نفسك لماذا لم أخبرها بأنك حي حتى الآن، دعني أشرح لك كل...

لم أعر لكلامه أي اهتمام، واستكملتُ كلامي:

- سأتخلص من تلك النسخة القذرة التي لم تكترث لمعنى الصداقة، ما هي مِلتّك؟ أنا الذي لم أستأمن أي أحد، استأمنتك أنت، أنا لا أكترث كثيرًا لعلاقتك مع العاهرة نجلا، كل ما شغل بالي هو ما ستفعله مع ابنتي سما أيها الخسيس، أنت شيطان قذر يجب أن ترحل.

قلتها والتقطت الوسادة التي بجواره وأطبقتها على وجهه، ثم ضغطتُ بقوة رغم الألم الذي أشعر به في صدري، حاول أن يفلت مني لكني أحكمت الوسادة جيدًا، وضغطتُ أكثر وأكثر حتى هدأ تمامًا، وسكن... وضعت الوسادة كما كانت وأعدت قناع الأكسجين إلى وجهه قبل أن أعود إلى غرفتي.

في صباح اليوم

أخبرتني خلود بأن إدارة المستشفى أعلنوا وفاته بنوبة قلبية أخرى جاءته في الليل، فتظاهرتُ بالحزن، وفي المساء دفعت في الخزينة المبلغ المتبقي عليّ، ثم غادرت مستندًا بيدي على مرفق حبيبتي ومنية النفس...

خلود...

-٩-

مكثت مع خلود لأكثر من يومين دون أن أتفوه بكلمة، وللحق، هي احترمت ذلك، تركتني أعطي فرصة لنفسي كي أعيد ترتيب أولوياتي، وأفكر فيما سأفعله في الفترة القادمة، كان كل ما يشغل تفكيري ليس الظهور مرة أخرى للعالم لأخبرهم أنني ما زلتُ حيًا، بل التبرؤ من تلك التهمة المُشينة التي قتلتني أدبيًا، وتبرئة نفسي منها، هذه التهمة بالنسبة لي مُميتة، أقسى مليون مرة من موتي جسديًا، لا أعرف كيف أبرئ نفسي من تلك الكارثة، وأعلم أنني مهما أقسمت وحلفت أنني بريء فلن يصدقني أو يقتنع بكلامي أحد، أخذتُ أفكر في الأمر إلى أن شعرتُ بعقلي كاد أن ينفجر، حتى تذكرت تلك الفكرة التي وردت على ذهني، وأنا في البرزخ آخر مرة، ولم يتسنَّ الوقت لأنفذها، لا أعلم إن كانت صائبة أم لا، وكي لا أنساها دوّنتها في ورقةٍ قبل أن أشعر بالإرهاق والتعب، وضعتُ تلك الورقة تحت وسادتي وشربت قليلًا من الماء، ثم أغمضتُ عيني لأرتاح قليلًا، ولم تمر أكثر من دقيقة حتى دخلتْ عليّ خلود وقد افتر ثغرها عن ابتسامة آسرة، ولمحتُ في عينيها الساحرتين أن لديها شيئًا مهمًا تريد أن تخبرني به، هززتُ لها رأسي مُستفهمًا، فقالت لي شيئًا جعلني أندهش من هذا التوارد الذي بيني وبينها، لكن سرعان ما زالت دهشتي، فهي الحبيبة التي أحببتها يومًا ما في أصعب أيام مرّت بها المحروسة. قالت لي بعينين مُلتمعتين:

- هذا الكاتب الذي يُدعى فتحي دربالة، ويقولون إنك سرقت منه رواياتك، ماذا لو كان يعرف الطريق الذي يذهب به إلى هذا البرزخ،

وانتقل عبر الزمن، ورأي رواياتك أو سمع عنها أو أخذ معه نسخًا منها مثلًا، ثم عاد وكتبها بأسلوبه الركيك هذا؟

اضطجعتُ على جنبي مُستندًا على كوعي، وأنا أصغي إليها مبتسمًا دون أن أقاطعها، بل تركتها تسترسل مُستمتعًا بالنظر إلى عينيها التي تشع ببريقٍ أعرفه جيدًا. أردفت بحماس: - أو حتى ماذا لو كان هو أنت، ولكن في زمن الستينيات، روحك كانت تسكنه في تلك الحقبة مثلًا.

- أنهيتِ كلامك؟! سألتها مُبتسمًا، فأجابتني بنعم، دسستُ يدي تحت الوسادة لأخرج لها الورقة التي دوّنت فيها شيئًا منذ قليل، وكان نفس الذي قالته بالضبط.

وقفتُ أمامي مُنتصبة القامة، وقد بدا عليها الزهو والافتخار بنفسها، لا أعلمُ ماذا كان سيكون مصيري دون تلك المرأة التي ليس مطلوبًا منها أكثر من ابتسامة تفترُّ عن ثغرها الساحر، أو لمسة رقيقة من يديها الحانيتين، حتى ينمحي على الفور كل الحزن الذي استقر في قاع روحي، وتنطفئ النار المُشتعلة والمشبوبة بداخلي، تلك المرأة التي بأقل مجهود تستطيع أن تعيد الاتزان إلى اضطراب دواخلي، تلك المرأة التي برئتُ بها من كل أوجاعي التي ملأت قلبي، وآلامي التي مزقت روحي بأشواكها، تلك المرأة التي تُلملِم شتاتي بكلمة واحدة، وتجعلني دائمًا قويًا في مواجهة الأيام الغابرة، ولو عاد بي زمن واحد آلاف المرات، سأختارها في كل مرة، ولو قابلتها في ألف زمن آخر، سأختارها أيضًا في كل مرة.

فكرتُ معها بصوتٍ عالٍ: - في رأيك من الذي يوافق أن يجري لي

تلك العملية الآن بعد موت هذا الكلب الذي يُدعى ماجد؟

تحولث ملامح وجهها إلى الجدية قائلة: - عمر، من فضلك لا تتحدث مرة أخرى بشأن هذا الموضوع، لن أجعلك توقف قلبك وتجازف بحياتك مرة أخرى، أنت لا ترى كيف يكون وجهك شاحبًا حين تخرج كل مرة من غرفة العمليات.

- سوف تكون آخر مرة يا خلود، أريد أن أعود لهذا الكاتب وأعرف منه ما حدث.

كان ذلك حين دخلت علينا سما، والتى حين رأيتها شعرت أن روحي قد عادت إليّ من جديد، أقبلث عليّ لَهفَى، عانقتني وهي تعتذر لي لانشغالها عني في اليومين السابقين لأن...

قاطعتها مُكملًا ما كانت ستقوله: - لأن أخوكِ إياد تم تحويل أوراقه إلى فضيلة المفتي وحُكِمَ عليه بالإعدام شنقًا، أليس كذلك؟

للوهلة الأولى شعرت باندهاش، لكنها سرعان ما زالت دهشتها؛ لأنها أدركت أنني بالتأكيد عرفث ذلك من خلال إحدى رحلاتي للمستقبل، فسألتني وهي تبكي هل فعلًا سيُعدم؟! فأخبرتها آسفًا أن نعم، سيتم تنفيذ حكم الإعدام شنقًا عليه آخر هذا العام.

اتسعت عيناهما حين قلت ذلك، واندهشتا لأن وجهي لم يحمل أي تعابير للتأثر أو الحزن، فابتسمث قائلًا:

- من المؤكد أنكما الآن تظنان أن قلبي قد مات من كثرة العمليات، لا تقلقا، لن يُعدَم. أنا أعلم أن المحامي الذي وكلتموه قد طلب الاستئناف على الحكم، وأعلم أنه شبه فاقد للأمل؛ لأنه لا يملك أدلة

تبرئه، لكنه يتشبث بأمل أخير، لا تقلقي يا سما، لدي خطة لإنقاذه، وسأتدخل في الوقت المناسب، هل نسيتما أنني في الأصل محامٍ؟!

فأجابتني خلود مستغربة: - للحق، لقد نسيت بالفعل؛ فمنذ أن تزوجنا، لم أرك مرتديًا روب المحاماة قط، أحببتك كاتبًا، وستظل في عيني هكذا.

- قريبًا سترين محاميًا ماهرًا، وستدركين كم خسرت مهنة المحاماة، لأنني لم أمارسها إلا نادرًا.

أضافت سما: - لكنك مارستها بشكل غير مباشر في رواياتك يا أبي.

- نعم، هذا صحيح يا حبيبتي، وسأستخدم كل مهاراتي في إنقاذ إياد، لكن الوقت لم يحن بعد، يجب أن يتعلم درسًا قاسيًا على ما فعله بالسيدات اللواتي ابتزهن.

ثم وجهت حديثي إلى خلود: - المهم الآن أنني أريد العودة لهذا الكاتب يا خلود، هل تستطيعين أن توقفي قلبي؟

صرخت حينها بانفعال، موجهة كلامها إلى سما:

- هل يرضيكِ ما يقوله والدك يا سما؟ من فضلك، قولي له أن يكف عن هذا الهراء، يكفي جدًا ما حدث.

زمّت سما شفتيها، وأطرقت في أسى لا تجد ما تقوله، بينما تابعت خلود حديثها لي بالنبرة نفسها:

- احمد الله يا حبيبي أنك الآن بخير، لقد خرجتَ من تحت الأرض وسط الأموات والجثامين والعظام، واجتزت عملية خطيرة أجريت

لك عدة مرات، وجربت الموت كثيرًا، وما زلت بخير، الحمد لله، لماذا تصر على الهلاك؟

- أنا وحدي المسئول عن حياتي وعن قراراتي.

تدخلت سما: - وماذا عني؟ وماذا عن خلود؟ وماذا عن قرائك الذين يحبونك؟

- لو لم أعُد إلى هذا الكاتب الذي يُدعى فتحي دربالة لن يكون لي وجه أقابل به القراء بعدما أُعلن أنني ما زلت حيًا يا سما.

قاطعتني خلود: - وماذا لو، لا قدر الله، لم تعد لنا هذه المرة؟ ألم تلاحظ أن ما تقوله هو قمة الأنانية؟ لقد رأيت بعينيك ما مررتُ به عندما عرفت أنني فقدتك.

مددتُ لها يدي فمدتْ لي يدها بسرعة واتكأتُ عليها، بينما ساندتني سما من الخلف، حتى جلست مستندًا بظهري إلى السرير، أشرت لهما بيدي أن تهدآ، فعمّ الصمت في الغرفة قبل أن أقول بنبرةٍ هادئة:

- صدقاني، هذه هي المرة الأخيرة، الأهم الآن، كل ما أحتاجه هو أن أجد من يوقف قلبي لفترةٍ قصيرة، لن يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة، ذلك نصف الساعة تعادل وقتًا طويلًا في العوالم الأخرى.

ردت خلود قاطبة جبينها: - لا أعرف أحدًا يُجري لك تلك العملية، ولن أرشح لك أي طبيب.

حينها وردت إلى ذهني فكرة: - لقد استخدمت نجلا أحد الأفكار

التي ذكرتها في روايتي قبل الأخيرة، ووضعت لي سيانيد في الحساء.

أضافت خلود: السيانيد بالفعل مادة قاتلة وتؤدي لتوقف عضلة القلب بعد أن تختفي آثارها في الدم، ولكنني لا أعتقد أن السيانيد وحده كافٍ!

رفعت سما إصبعها وقاطعت خلود: - في تلك الأيام أيضًا سمعتها تتحدث مع أحد عن مادة تدعى سيكورين، هل هذا الاسم له علاقة بأي شيء؟!

أجابتها خلود وقد اكتسى وجهها بملامح جدية: - نعم أنا أعرف السيكورين، تلك المادة تزيد من تركيز السيانايد، وتجعله يعمل بشكلٍ أسرع على توقف عضلة القلب، سواء هي أو الهالوبيريدول، كانا يستخدمان قديمًا في أثناء بعض عمليات القلب، على ألا تأخذ العملية أكثر من نصف ساعة، أو أربعين دقيقة على الأكثر، بعدها يعطون للمريض صدمة كهربية باستخدام جهاز DC Shock فيعود القلب للعمل مرة أخرى.

سكتت خلود، وكأنها تفكر في أمرٍ ما، سألتها إن كانت تستطيع توفير جهاز الصدمات الكهربائية هذا، فأومأت برأسها موافقة، مشيرة إلى أن الجهاز خفيف الوزن وسهل النقل، وأن إحدى صديقاتها تمتلكه في عيادتها. في تلك اللحظة، تدخلت سما قائلة إنها تستطيع إحضار بقية الزجاجة التي كانت والدتها تخبئها بين ملابسها، ثم انفجرت بالبكاء:

- لا أصدق أن أمي فعلت كل هذا، لم تظهر عليها أي علامات، ليتني

كنت قد مت قبل أن أكتشف كل هذه المصائب عنها.

أجبتها بنبرة حزينة: - وأنا كذلك يا سما، لقد رأيت وسمعت كل شيء، وما زلت غير مصدق.

ثم غيرث الموضوع بسرعة: - حسنًا، لننجز هذه المهمة بسرعة، متى تستطيعين إحضار تلك الزجاجة يا سما؟

أخبرتني سما بأنها مستعدة للذهاب الآن وإحضارها في غضون ثلاث ساعات، أومأث برأسي نافيًا وطلبت منها أن تحضرها إلى هنا صباح الغد، حينها أخبرتني خلود أنها ستذهب الآن لصديقتها لإحضار جهاز الصدمات الكهربية.

***

صباح اليوم التالي...

كان كل شيء جاهزًا، وكنت على أتم استعداد للخوض في آخر رحلة، حاولت خلود مرارًا أن تثنيني عن هذا القرار؛ لأنها شعرت أن هذه المرة ليست كسابقاتها، لكنني لم أُبدِ لها سوى إصرار حازم، فسلمت أمرها لله. قبّلتها وقبّلت سما التي ظلت تدعو لي، ثم أخذت نفسًا عميقًا ورفعت نظري إلى السقف للحظات قبل أن أشير بيدي إلى خلود، التي كانت تمسك بالحقنة بيدٍ مرتجفة، ابتسمث لها وأومأت برأسي أن تمضي قدمًا، ابتلعث ريقها وأخذت نفسًا زفرته ببطء قبل أن تحقنني، دعوت الله حينها أن أُوفق في هذه الرحلة، عازمًا في داخلي أنها ستكون الأخيرة.

لم تمر أكثر من عشر ثوانٍ كنت خلالها أحدق في سقف الغرفة،

حتى بدأت أشعر بتنميلٍ طفيفٍ في ساعدي، إشارة إلى أن المادة بدأت تسري في دمي، شعرت بها تتقدم بخطى ثابتة نحو ذراعي، متجهة بإصرار إلى قلبي، بعد ثانيتين، بدأت تشنجات مؤلمة في القلب، ثم اتسعت رقعة الألم لتشمل الرقبة والصدر بأكمله، تشنّج جسدي واهتز بقوة، تألمتُ وتأوهتُ فزادت التشنجات، وظل جسدي يرتج بقوة حتى شعرتُ أن شهيقي لن يخرج مني ليصبح زفيرًا، ثم...

فجأة، سقطت من ارتفاع ثلاثة أمتار تقريبًا على أرضية البرزخ. تلفّت حولي كالمجنون، غير مصدق أن نصف التجربة قد نجحت بحمد الله، مسحت العرق المتقطّر عن جبيني، وركضت نحو أقرب إطار، لكني تفاجأت بأن شخصًا آخر سبقني إليه ووقف أمامه، هُرعت إلى الإطار المجاور، التقطت القلم الذهبيّ على عجل وكتبت "١٩٦٦". انتظرت الثواني الثلاث فلم يحدث أي تغيير، انتظرت ثانيتين إضافيتين، ولا شيء أيضًا! مددت يدي لألتقط القلم مجددًا، لكني فجأة شعرت بارتجاجة قوية، كانت أشد من أي مرة سابقة، تحملت الصدمة وتحاملت على نفسي حتى غمرني الضوء الساطع الذي ألقاني فجأة في الهواء، ثم سقطت من ارتفاع مترين ونصف تقريبًا على ظهري، شعرت وكأنني انقسمت إلى أربعة أجزاء، لكن الألم لم يكن همي الأكبر؛ فقد كان كل تركيزي على التأكد إن كنت ما زلت أرتدي ملابسي أم لا، ولحسن الحظ، كنت مرتديًا قميصًا وسروالًا.

بدأت أتفحص المكان الذي سقطت فيه، فلم أجد شيئًا سوى الخواء، والظلام، نظرتُ إلى السماء فوجدت أن الشمس تستعد للغروب، أصخت النظر في كل الأرجاء حتى لمعة عيني حينما لمحت على مدى بصري قصر البارون إمبان، فأدركت أنني في حيّ

مصر الجديدة!

ركضت باتجاه القصر حتى أرهقني التعب. وفي تلك اللحظة، سمعت خلفي شابًا يقود دراجة وهو يغني. انتظرته حتى اقترب مني ومر بجانبي، لوحت له بيدي فتوقف وسألني بأدب: "ماذا تريد؟" فأجبته:

- لا تؤاخذني فيما سأفعله يا صديقي الطيب، لو كنت أملك "موبايل" الآن لكنت استدعيت "أوبر".

- ماذا؟! - بدا عليه الاندهاش حينها - ماذا تقصد بأوبر وموبايل؟ هل أنت ممسوس؟ أنا لا أفهمك

- وأنا ليس لديّ وقت لأشرح لك.

انفطر قلبي وتمزق حين قررت أن ألكمه، وآخذ منه دراجته بعد أن اعتذرتُ له، ولن ألومه لو لم يقبل اعتذاري، قُدتُ الدراجة مُسرعًا، مُتجهًا إلى حيّ الجمالية، كان الطريق خاليًا من الناس ومن السيارات، والحياة رائعة، حسدتُ حينها من عاشوا في هذا الزمن الجميل، وروقان البال الذي يحثك رغمًا عن أنفك على الإبداع، اجتزتُ مصر الجديدة، ثم مررتُ بحيّ سراي القبة فالعباسية ثم وسط البلد، وجدتُ زحامًا عند سينما ريفولي، رجالًا يرتدون بدلات "سموكن" ونساءً متألقات بفساتين السهرة، لم أستطع منع نفسي من أن أسأل أحدهم عن سبب هذا الزحام، فنظر إليّ من أعلى إلى أسفل، قائلًا بامتعاض:

- الليلة حفل أم كلثوم يا أبله، ستغني قصيدة تُدعى "الأطلال"

شعرتُ حينها بمزيجٍ من الفرح والحزن، أبكي من الفرح لأنني قد أتمكن من حضور حفلة لأم كلثوم؛ حيث ستغني قصيدتي المفضلة "الأطلال"، والتي لا أملُّ من سماعها حتى لو تكررت عشر مرات متتالية، وفي الوقت نفسه أبكي من الحزن لأنني ببساطة لا أملك رفاهية الوقت لحضور الحفل، ولا حتى لأسأل هذا الرجل لماذا ينظر إليّ ممتعضًا هكذا!

تركتُ كل شيء ورائي مُتحسرًا، وأكملتُ المسير حتى وصلتُ العتبة، ومنها إلى حي الجمالية، الذي يتكون من شارعين رئيسيين وعشرة شوارع فرعية تقريبًا. من المفترض أن أبحث عن شخصٍ يُدعى فتحي دربالة. بدا الأمر سهلًا، فالناس في هذه الفترة، خصوصًا في الأحياء الشعبية، يعرفون بعضهم بعضًا، علاوةً على أن الاسم كان مميزًا، وهذا من حسن حظي، لم تمضِ عشر دقائق حتى دلتني عليه سيدة عجوز جالسة عند ناصية حارة تبيع "فول نابت" يوحي منظره بأن طعمه شهي:

- أستاذ فتحي دربالة! - قالت مُتهكِمة - تقصد المأسوف على شبابه فتحي دربالة! منذ متى أصبح أستاذًا، القصد، ستجده في هذا البيت، الطابق الأرضي، ستجد باب غرفته على السلم، ادفعه بقدمك وادخل، ستجده ينوح كالنساء كعادته، هذا إن لم يحاول الانتحار الليلة.

شكرتها ملتقطًا ثلاث حبات من الفول النابت، ثم دخلتُ البيت، فوجدت باب شقته مواربًا، ورأيته جالسًا أمام منضدة مُنهمكًا في أوراق أمامه، يُقلبها ويرتبها، وفي يده الأخرى قلم رصاص، ما إن التفت ورآني أخطو نحوه حتى نهض مُنتفضًا من مكانه، جمع

الأوراق التي معه، واحتضنها بقوة وما زال مُعلقًا نظره عليّ.

- أهلا يا فتحي. ابتدرتُ بالكلام بنبرةٍ هادئة رغم دمي الذي يغلي في عروقي.

- أهلًا يا عمر مدكور. قالها وقد لمحتُ الخوف في عينيه آنئذٍ، التقط زجاجة مياه بجواره وألقاها نحوي، فتفاديتها لتصيب كتفي، ثم ركض نحو باب الشقة، ركضت خلفه، وتمكنت من الوصول إلى الباب قبله وأغلقته، لكمني في وجهي، ثم اندفع نحو النافذة محاولًا الهرب، لكني ركلته في بطنه فسقط على الأرض، انكبثت فوقه وأخذت ألكمه في وجهه عدة لكمات حتى انثعب الدم من أنفه.

بعد سبع دقائق واثنتين وأربعين ثانية...

كان جالسًا أمامي، مُقيدًا، أخذتُ أتصفح الأوراق التي كانت بحوزته، كانت ملخصًا كافيًا ووافيًا لكل رواياتي، لوّحتُ له بالأوراق، رافعًا حاجبي، وهززت رأسي متسائلًا، انكسرت عيناه وأطرق رأسه لم يدرِ ماذا يقول. لكمته للمرة الخامسة أو السادسة، لا أتذكر.

- تكلّم يا ابن الكلب، من الأفضل لك أن تتكلم قبل أن أقتلك هنا.

- ماذا تريد أن تعرف؟ طالما عدت بالزمن وجئت إليّ، فأعتقد أنك تعرف كل شيء الآن ولست بحاجة إلى أن أخبرك بشيء إضافي.

- معنى كلامك أنني كنت مُحقًا حين ظننت أنك انتقلت إلى عام ٢٠٢٥ وسرقت مني رواياتي، وكتبتها في زمنك لأصبح أنا السارق، أليس كذلك؟!

أومأ برأسه. سألته: كيف؟ فقال إنه من الأفضل ألا يخبرني، لكمته

ليجيب، لكنه رفض، فلكمته مرة أخرى، وأقسمت له أنني سأقتله، ظل على موقفه. عندها أدركت أن القوة لن تجدي نفعًا معه، وأن من الأفضل مسايرته والتحدث معه بهدوء، فلجأت إلى هذا الأسلوب وسألته بنبرةٍ هادئة:

- لماذا تقول لي إن من الأفضل ألا تخبرني؟ لا تخف، كل ما أريد معرفته هو الحقيقة فقط لا غير.

شعرتُ حينها أنه يفكر في التحدث، فأومأت برأسي لأجعله يشعر بالأمان، مرت دقيقة تقريبًا حتى اقتنع وتكلم:

- لقد حاولتُ كثيرًا أن أكون كاتبًا، لكنني فشلت، فأقدمتُ على الانتحار باستخدام تركيبة كيميائية مكونة من مواد مختلفة أشار بها عليّ عطار في حارة الصنادقية، تناولتها ويبدو أنني فقدتُ الوعي فقط، فرأيت نفسي أحلق فوق جسدي، ثم انتقلت إلى ممرٍّ طويل، وعلى جانبه الأيمن أطر مضيئة باللون الفيروزي. فعلت كما رأيتهم يفعلون، واخترت القفز ستين عامًا إلى الأمام، بدافع الفضول بالطبع، فوجدت نفسي في أواخر عام ٢٠٢٤. مكثت هناك وقتًا لا بأس به، واكتشفت وجود كاتب مشهور رواياته مشوقة، ولديه شعبية كبيرة، ينتظره القراء بفارغ الصبر.

توقف قليلًا، وأنا أصغي إليه كتلميذٍ نجيبٍ، ثم أردف: - حلقي جاف، أريد أن أشرب.

انحنيت والتقطت زجاجة الماء التي ألقاها عليّ في البداية، وقربتها من فمه، فشرب حتى ارتوى، ثم طلبت منه أن يكمل:

-كنتُ حينها لافتًا للأنظار، وشعرت بالخوف وسطكم وبين مصطلحاتكم الغريبة، كما أخافني الزحام والسرعة التي تتحركون بها، لكن وسط كل هذا، رأيت مكتبة تُقام فيها ندوة للكاتب المشهور عمر مدكور، دفعني فضولي المحترق لأدخل وأرى ما الذي يفعله الكتّاب المشهورون، وجلست بجوار قارئة كانت تحبك كثيرًا. من شدة حبها لك، كتبت في مفكرتها ملخصات لكل رواياتك، استمتعت بما قلتَه في الندوة، ولا أنكر أنني حسدتك حينها؛ كاتب معروف ومحبوب، تشرئب الأعناق لرؤيتك، وطلّتك كانت مهيبة لم أر مثلها من قبل، تعلّمت منك الكثير، وقررت أن أفعل مثلك حين أنشر رواياتي، باستخدام حبكاتك، لأنني سرقت مفكرة تلك القارئة، قرأتها مرة، واثنتين، وعشرة، وكتبت الملاحظات على جسدي لأضمن ألا أنسى شيئًا، عدت إلى زمني وكتبت كل ما تذكرته. بحمد الله لم أنس شيئًا، فكتبت ملخصات رواياتك وحبكاتك الست في ست ورقات، ثم جلست وكتبت ست روايات خلال مدة لن أخبرك بها، أوصلت الليل بالنهار حتى انتهيت من مهمتي، وسأنشر الروايات قريبًا جدًا.

حاولت أن أثنيه عما فعله قائلًا: - وهل ستشعر بقيمة النجاح حين تسرق شيئًا ليس لك؟ كيف ستستقبل الإطراء على شيء فعله غيرك؟

- إذا كان هذا هو الطريق الوحيد، فلمَ لا؟ ليس لدي مانع. قالها ببساطة، ثم أطلق ضحكة ساخرة واستطرد:

- ثم ما الذي يضمن لي أنك لم تسرقهم من كاتبٍ آخر في عام ٢٠٨٥ مثلًا؟ طالما عدت لي إلى هنا، فهذا يعني أنك تستطيع القفز إلى هناك أيضًا، أقنعني بأنك لم تسرقهم من كاتبٍ آخر سيأتي بعدك.

- المسألة مسألة مبدأ يا فتحي، الأمر لا يتعلق بالإقناع، بل بالشرف والأمانة، هذا إبداع، كيف تسمح لنفسك أن تسرق إبداع غيرك؟ هذه جريمة.

- ومن سيحاسبني على هذه الجريمة؟ حسنًا لا بأس، اخرج إلى الشارع الآن، وابحث عن أقرب شاويش أو عسكري درك وبلّغ عني، وأخبره أنني سرقت إبداعك، لن يأبه أحد لك.

- أنت لا تفهم شيئًا يا فتحي، سوف تُنشر روايات رديئة بأسلوبٍ ركيك مُستخدمًا حبكاتي المثالية، مبدئيًا لن تلقى صدى إطلاقًا، نظرًا لركاكة أسلوبك، والذي لا يقارن بأسلوبي قط، ستفسد حبكاتي بسردك السيئ، ولن يستفيد أحد منا، علاوة على أن مصر في العام القادم سوف تشهد نكسة، ولن يهتم أحد من القراء برواياتك حينها.

- دعني أرى ذلك بنفسي وأجرّب، من يضمن لي أنك صادق؟ قالها بابتسامةٍ سمجة، فغلى الدم في عروقي حينها، وانقضضت عليه مُطبقًا بكلتا يدي على رقبته: - إذن سأقتلك، وأتخلص منك.

ضحك بهستيريا جعلتني أندهش من رد فعله، شعرتُ أنه ليس طبيعيًا. قال لي وقد احمرّ وجهه وأذناه من أثر الاختناق: - حتى لو قتلتني، لقد أرسلت الروايات إلى دار النشر بالفعل، ولن أخبرك متى أرسلتها بالضبط. كي لا تعود لي مرة أخرى، لن تصل إلى شيء، لكن يمكنك الذهاب إلى زمنٍ بعدك، وتفعل مع كاتب في المستقبل ما فعلته معك، الأمر بسيط.

ضغطتُ أكثر على رقبته قائلًا:

- أنا لست مثلك أيها الحشرة، لن أقبل أن أسرق إبداع شخص آخر. وللعلم، لقد قتلتُ أعز أصدقائي من قبل، ولا مانع لدي في أن أكررها، وإذا كنت مجنونًا، فأنا أكثر جنونًا منك.

ظل يضحك بغرابة كالممسوس، شعرت حينها بالتقزز، ورأيت أن لا فائدة منه، كما أن لا فائدة من قتل شخص ميّت أصلًا! استعوضتُ الله على تعبي طوال السنين التي انكببتُ فيها على حاسوبي لأكتب رواياتٍ بحبكاتٍ لا تشوبها ثغرة، حبكات أخذت كثيرًا من روحي وذهني ووقتي، تركته وغادرت بعد أن بصقتُ على وجهه، ثم ركبت الدراجة البائسة. كان الطريق أمامي خاويًا خاليًا إلا من بعض المترجلين، أغمضتُ عيني لأستنشق بعض الهواء النقي الذي كان يميز تلك الفترة، وقررتُ ألا أعود صفر اليدين، وأن أستغل الفرصة لأعيش ولو نصف ساعة في هذا الفيلم الأبيض والأسود، والذي طالما عشقته وتمنيتُ أن أعيشه، ولو في خيالي، فاتجهت إلى سينما ريفولي، حيث حفلة أم كلثوم والعرض الأول لأغنية "الأطلال"، لأراها وهي تقول لأول مرة:

"أعطني حريتي، أطلق يدي، إنني أعطيتُ ما استبقيتُ شيئًا"

وأصرخ مع الذين سيصرخون حينما تسترسل متسائلة بتعجب: "هل رأى الحب سكارى مثلنا؟!"

وأرد عليها بصوتٍ جهوري: "كرري هذا المقطع يا ست... لقد أتيت لكِ من عام ٢٠٢٥ يا ست!"

على الأقل، أكون قد فعلت شيئًا مما حلمت به، وأحقق إنجازًا يعوض إخفاقي في تلك الرحلة، وبينما كنت شاردًا في التفكير،

تفاجأت بسيارة تخرج من شارعٍ جانبي، ودهستني، ليغلفني ضوء شديد السطوع، وأنتقل بعد اهتزازة قوية إلى الإطار الفيروزي. والمفترض الآن أن أجلس القرفصاء منتظرًا عودتي إلى عالمي الحقيقي. فكرت في الذهاب إلى تاريخ يسبق الذي كنت فيه، كي أقتله قبل أن يفكر في سرقتي، لكن الأمر لم يكن مضمونًا، فقد لا أجده أصلًا في ذلك المكان. فجلست منتظرًا انتهاء مفعول المادة التي حقنت بها، ثم جاءتني فكرة عبقرية، وهي العودة إلى فترة دراستي في الجامعة، وإعادة تشكيل حياتي من جديد، بما أنني أستطيع تغيير أي شيء في أي زمن أذهب إليه، كنت مُدركًا تمامًا أن أي تغيير سوف يترتب عليه أشياء في المستقبل؛ لذا كنت حريصًا - قدر المستطاع - على عدم تغيير أي شيء في المرة قبل الأخيرة، التي عرفتُ فيها أشياء كثيرة كانت غير مرئية بالنسبة لي، اكتفيت بمعرفة الحقائق التي كنت أجهلها، وبعد تجميعها رتبتُ أفكاري وأولوياتي وقررت ماذا سأفعل، وقد قررتُ أن أفعل ذلك الآن!

أمسكتُ القلم وكتبتُ ... ٢٠٠٥

بدأت الاهتزازة ترج جسدي، ومن ثم النور الساطع الذي أخذني وأودى بي إلى شقةٍ مهجورة، دعوت الله ألا تكون مسكونة بالأشباح، وألا تكون في بنسلفانيا! اقتربت من النافذة لأرى من وراء خصاصها الشارع الذي أوجد فيه، لكنني لم أستطع تحديده بالضبط، وإن كنت قد شعرت أنني في محافظة غير القاهرة. فتحت باب الشقة بهدوء ونزلت إلى الشارع، ولم أحتج لأكثر من نصف دقيقة حتى أدركت أنني في محافظة الغربية، مدينة طنطا، لم يكن في جيبي أي نقود، وأريد الذهاب إلى القاهرة في أسرع وقت، فكرت في حل،

حتى اهتديت إلى فكرة الذهاب إلى موقف الميكروباص، ومن هناك أستقل أحدهم، وفي الطريق، أضع السائق أمام الأمر الواقع وأخبره أنه ليس معي أي نقود، إما أن يسامحني، أو يلعنني ثم يسامحني، أو يلعنني ثم يشفق عليّ أحد الركاب ويدفع لي الأجرة، ومن ثم يسامحني!

ركبت الميكروباص وجلست في المقعد الأخير، ولم يكن بداخله سوى خمسة ركاب غيري، وقد ترامى إلى مسامعي أن الميكروباص يمتلئ عادةً خلال ساعتين، زفرتُ متأففًا ونظرت إلى السماء أدعو الله أن ينتهي هذا الهراء وأصل إلى القاهرة بسرعة، لم أكن قد أكملت دعائي عندما تفاجأتُ بستة صبية يرتدون ملابس كرة قدم ويحملون كرة، لكن ما كان لافتًا للنظر حقًا هو أنني رأيت بينهم محمد صلاح! والذي جلس بجواري! كدت أبكي من فرط الفرحة، وظللت لدقائق أنظر إليه مبتسمًا فاغرًا فاهي. سألني لماذا أنظر إليه هكذا، فقلت له:

- لا أعلم إن كنت ستصدقني أم لا، لكنك ستصبح لاعبًا عالميًا، وستكون من أفضل ثلاثة لاعبين في العالم.

نظر لي مُستغربًا، كان ذلك حين صاح السائق بالركاب أن يدفعوا الأجرة، فبدأوا بتجميعها ثم أعطوها له، ومن حسن حظي أنه أخذ منهم ما أعطوه له، عد حينها النقود، ثم وضعها في جيبه مباشرةً دون أن يلحظ أنها ناقصة، وهذا من فضل الله عليّ، المهم أنني كنت في القاهرة بعد ساعة تقريبًا.

أوقفت تاكسي وطلبت منه أن يذهب بي إلى جامعة القاهرة، ما إن

وصلنا حتى نزلت وركضت مبتعدًا، ولا شك أنه دعا عليّ، المهم أنني دخلت الجامعة مباشرة، متوجهًا نحو كلية الحقوق، في المكان نفسه الذي كنت دائم الوقوف عنده. وجدتني واقفًا هناك بالفعل، وحولي أصدقائي يخبرونني بأسماء الطلبة الذين دفعوا رسوم الرحلة، ابتسمت حينها، هذه أول مرة أقترب من نسخة لي عشتها يومًا ما. ليس هذا فقط، بل سأفعل هذه المرة ما لم أفعله من قبل، سأتحدث معه!

اقتربت أكثر حتى أصبحت خلفه مباشرة، أسترق النظر إلى الورقة التي معه، والتي تحتوي على أسماء المشتركين في رحلة شرم الشيخ، لمحت سطرًا شاغرًا في القائمة لم يُكتب فيه اسم، وأعرف أنه سيكتب في هذا السطر فيما بعد "نجلا"، وقد دفع لها رسوم الرحلة لتكون معه، وأعرف أنه سيعلن للجميع عن خبر ارتباطهما، بعد أن أخفوا الأمر طوال الأسبوعين الماضيين، وإعلانه خبر الارتباط سيكون مفاجأة للجميع.

لمحني أحد الواقفين وأشار إليّ متسائلًا بدهشة: - هل أنت والد عمر مدكور؟!

كنت أظن أنه سيقول إنني أخوه الأكبر مثلًا، فالفارق بيننا ليس كبيرًا كما تخيّلت، لكن سرعان ما عدت وقلت لنفسي أن لا، الفارق واضح وكبير، تسعة عشر أو عشرون عامًا. علاوة على الشيب الذي غزا رأسي، والتجاعيد التي ظهرت على وجهي، كلها عوامل جعلت أحدهم يظن أنني والده ويصيح بذلك. التفت إليّ عمر ذو التسعة عشر عامًا، وظل ينظر إليّ بعينين ناقدتين لا تخلو من الدهشة. قطّب

جبينه، ثم أطلق ضحكة قصيرة وهز رأسه متسائلًا: - من أنت؟

كنت أتمنى أن يكون الموقف أكثر دراميةً، لكنني لا أتحكم في الوقت الذي يمر كالحصان الجموح، وقد أعود إلى عام ٢٠٢٥ في أي لحظة دون سابق إنذار. أمسكت مرفقه ودفعته برفق قائلًا:

- أريدك في موضوعٍ مهم، على انفراد.

نزع مرفقه من قبضتي بحدة أعرفها جيدًا، طريقة كلامه كانت نابعة من اعتزازٍ بالنفس وكبرياء الشباب التي كانت تغلفني حينها:

- من أنت؟ لا أعرفك، ولا تلمسني هكذا مرة أخرى! لو فعلت ذلك مجددًا ستعود يدك إليك دون كفك... وإذا كان لديك شيء تقوله، فقله هنا.

فكرت للحظة في استخدام القوة، لكنني تراجعت حتى لا أفسد كل شيء. أغمضت عيني وتنفست بعمقٍ وقلت له بلين: - من فضلك يا أستاذ عمر، أريدك في أمرٍ مهم جدًا، يتوقف عليه مستقبلك.

بعد نصف ساعة...

كنا نجلس في أحد المقاهي المجاورة لجامعة القاهرة، التلفاز يعرض - حصريًا ولأول مرة - كليب أغنية "وماله" لعمرو دياب! بينما أطلق عمر ذو التسعة عشر عامًا عدة ضحكات متقطعة، ثم سألني متهكمًا:

- وهل مطلوب مني أن أصدق كل هذا الهراء الذي قلته لي؟!

- نعم، بالضبط. أجبته بوضوح.

- ماذا أصدق أيها المعتوه؟ هل تراني ساذجًا كي أصدق أن رجلًا - لا أنكر أنه يشبهني - يقول لي إنه أنا بعد عشرين عامًا، وأنه جاء لي من المستقبل؟!

- هذه هي الحقيقة يا عمر، ويجب أن تصدقها، دون الدخول في تفاصيلٍ مُعقدة.

حك ذقنه وهو يفكر، ثم قال: - انظر، لا أعرف ما الذي سيحدث في عام ٢٠٢٥، وما هي تلك التكنولوجيا التي ستفعل ذلك - هز كتفيه في حيرة وأردف - لكن ربما تكون محقًّا.

فكرت قليلًا، ثم رفعت سترتي لأريه الشامة التي في بطني. فغر فاهه، وأشار لي بحدة:

- اجلس يا مجنون! لو رآنا أحد ماذا سيظن فينا!!

لويت شفتي امتعاضًا، وقلت له: - تحدث معي بأدب، هذا أولًا. ثانيًا، قل لي إنك تصدقني كي أواصل كلامي.

- آسف، لم أقصد أن أسيء إليك، لكن اعذرني، فالموضوع يجعلني أجن، أشعر كأنني أعيش في رواية خيال علمي!

- بالمناسبة، أعلم أنك طالما حلمت بأن تصبح كاتبًا، لذا أحب أن أبشرك بأنك ستكون كاتبًا مشهورًا يومًا ما. ولكن لن تأتي الرياح بما تشتهي السفن.

- كيف؟ سألني مقطِّبًا جبينه. في هذه اللحظة، عرض التلفاز إعلان ألبوم جديد لكاظم الساهر بعنوان "انتهى المشوار"، رمقت ساعة الحائط، والتي كانت تشير إلى الواحدة إلا ربعًا ظهرًا، فأجبته:

- ليس هذا وقته الآن، دعني أكمل كلامي دون مقاطعة أو تهكم، أعرفك جيدًا وأعرف حماسك وفورة شبابك، وأعلم أنك تحاول جاهدًا كبح لسانك عن السخرية.

رد عليّ، وقد اكتست ملامح وجهه بالجدية: - حسنًا، لن أتهكم، تفضل، قل ما عندك.

- بعد كل ما مررتُ به، وبعد النضوج الذي بلغته أنا، ولم تبلغه أنت بعد، أريد أن أقدم لك نصيحة؛ تلك النصيحة هي خلاصة تجربتي في هذه الحياة، أغلى وأقيم وأعلى وأثمن عملتين يمكنك امتلاكهما في حياتك، هما الوقت والمجهود. الوقت لا تضيعه فيما لا يفيد وينفع، والمجهود فلا تهدره على من لا يستحق.

قلت له هذا الكلام مدركًا أنه سيحتاج بعض الوقت كي يفهمه ويستوعبه، سكت حينها لهنيهة ثم قال لي: - حسنًا، نصيحة رائعة سأضعها فى اعتبارى، شكرًا لك، ولكن ما مناسبة هذه النصيحة الآن؟

ازدردت ريقي وأخذت بضع ثوانٍ لأرتب ما سأقوله، وأنا أدرك تمامًا أنها ستكون صدمة، أخذت من علبته سيجارة وأشعلتها، نفثت دخانها بهدوء قبل أن أقول له:

- اترك نجلا وشأنها يا عمر، لا تقترب منها، اقطع علاقتك بها تمامًا.

عقد ما بين حاجبيه مستنكرًا كلامي: - ما هذا الذي تقوله؟ لو كنت أنا حقًا، لكنت تعلم جيدًا أنني أحبها، ولأجلها أفعل المستحيـ...

حاولتُ أن أمتص نزقه وطيشه: - اسمعني جيدًا أنا...

نهض فجأة: - أنت فعلًا مجنو...

قاطعته وأمسكته من مرفقه وأجلسته بالقوة: - اجلس، ولا تلفت إلينا أحدًا، هذه العاهرة سوف تدمرك وتدمر حياتك وتقتلك.

قال لي مُتهكمًا: - رغم أنك الآن - سبحان الله - تجلس أمامي.

- ليس لدي الوقت لأشرح لك تفاصيل؛ فقد تعيدني خلود إليها في أي وقت حين تلجأ لجهاز الصدمات الكهربائية.

- ومن خلود هذه هي الأخرى؟! سألني باللهجة الساخرة نفسها، فأجبته بحدة:

- احترم نفسك ولا تتحدث عنها هكذا، وبدلًا من أن تسخر مني، ابحث عنها الآن وابدأ حياتك معها، خلود هي الفتاة الوحيدة التي ستجعل حياتك جنة، ابدأ معها من الآن أرجوك، وانس تمامًا أمر تلك العاهرة التي تُدعى نجلا.

- ما تطلبه مني مستحيل، لن أفعل ذلك، أنا أتنفس حب نجلا، أنت أبله مُختل لا تعرف أي شيء كما تدعي.

شعرتُ حينها بضيقٍ في التنفس، وأنني أنفخ في قربة مثقوبة، أدركتُ أنه لا جدوى من الحديث معه، رغم أنني توقعت موقفه هذا، وكنت أعلم أنه لن يوافق على ما سأطلبه، قررتُ حينها اللجوء إلى الخطة البديلة. نهضتُ واقفًا بانفعال، أمسكني من رسغي، فلكمته في وجهه، ثم غادرتُ المقهى متجهًا إلى الجامعة.

سألتُ أحدهم عن الوقت، فأخبرني أن الساعة الواحدة ظهرًا، وهو موعد محاضرتها. دخلتُ من البوابة الرئيسية بين الطلاب دون أن

يلحظني أمن البوابة، واتجهث مباشرةً إلى المدرج الذي ستدخل إليه بعد قليل. كان عمر خلفي، سمعته يناديني من بعيد، محاولًا اللحاق بي، لكنني لم أكترث ولم ألتفت إليه، أكملث المسير نحو المدرج فوجدتُ نجلا واقفة بين زميلاتها، أمسكتُ برسغها بقوة وأبعدتها عنهن، ثم صفعتها على وجهها عدة صفعات متتالية، صرخت صرخاتٍ عالية تجمّع على إثرها الطلاب حولنا، وظنّ البعض أنني والدها، فلم يتدخل أحد. في تلك اللحظة، وصل عمر ذو التسعة عشر عامًا ووقف أمامي، بينما ما زلتُ أمسك برسغها بقوة.

- اتركها لنتحدث بهدوء. قال لي بصوتٍ جهوري، فأومأتُ له رافضًا رفضًا قاطعًا:

- لن أتركها أيها الأحمق، طالما أنك ترفض تنفيذ ما أطلبه منك، فسوف أقتلها الآن أمامك، وأنتهي من كل شيء.

تعالت صرخاتها، فأطبقتُ مرفقي على رقبتها، حاول هو الاقتراب مني، لكنني أشرتُ له أنه إن اقترب خطوة واحدة سأضغط أكثر وأقتلها. فلوّح لي بيده قائلًا:

- حسنًا، اهدأ أرجوك، لم أفهم بعد ما الذي تريده، أنت تعلم أنني أحبها.

- وقد أخبرتك أنها ستدمرك وتدمّر حياتك ومستقبلك، لماذا لا تريد أن تفهم؟ سوف تخونك أيها العاشق المغفل، ستخونك مع العديد من الرجال، من بينهم الكلب ماجد، وستجعل منك أضحوكة أمام الجميع.

- لن تخونني دون سبب، المرأة لا تخون إلا من خانها، عمومًا، حسنًا، لقد فهمتُ كلامك واستوعبته، من الآن فصاعدًا، سأتعهد بعدم خيانتها أو معاملتها بشكلٍ سيئ، ولن أهملها أبدًا. بذلك أضمن أنها لن تخونني، ولن تخونك، المسألة بسيطة، لقد حصلتَ على فرصتك وخضتَ تجربتك معها بالكامل، أما أنا، فلا، هل تظن أن هذا عدل؟

- أنت أحمق ولا جدوى من التحدث معك.

قلتها وأنا أطبق على عنقها بقوةٍ أكبر، فاقترب مني وقد التقط من أحد زملائه مطواة، مدّ بها يده نحوي، مُهددًا إن لم أتركها فسوف يفصل رأسي عن جسدي، فزدت من قوة قبضتي عليها، انقض عليّ وركلني في بطني، فتركتها ووقفت أمامه وجهًا لوجه، بينما وقف الطلاب حولنا مشدوهين مما يحدث، بينما صرخت بعض الطالبات، لوّح لي بالمطواة مُحاولًا إصابتي، شعرت حينها بألمٍ في صدري. فجأة، مد يده نحوي، لكني تفاديته بحركةٍ سريعةٍ وركلته في خصيته، انحنى مُتألمًا، وفي اللحظة نفسها خطفت المطواة من يده وجرحته في مرفقه بجرحٍ غائر. كان ذلك في الوقت نفسه الذي لاحظت فيه وجود أثر خياطة لجرحٍ قديمٍ في نفس المكان بمرفقي.

انتعب الدم منه ونهض ليهجم عليّ مجددًا. في تلك اللحظة، سمعت أحد الطلاب يقول إن أمن الجامعة وصل، أدخلت المطواة في جيبي ونظرت حولي كالمجنون، باحثًا عن العاهرة نجلا، لكنها كانت قد اختفت. بصقت عليه، وقلت بانفعال:

- لقد جعلتها تهرب مني، أيها الأحمق، أنت تستحق كل ما سيحدث لك في المستقبل، وستعرف جيدًا أنني كنت على حق.

ركضت هاربًا قبل أن يصل أمن الجامعة، وحين وصلت إلى الباب، لمحتها خارج الجامعة وسط زميلاتها، تبكي، وهي تمسك هاتفها المحمول محاولة الاتصال بأحدهم، اقتحمت الدائرة التي كانت تتوسطها، وأحكمت قبضتي عليها مجددًا، ثم أخرجت المطواة من جيبي، ووضعت نصلها على عنقها لأذبحها. في تلك اللحظة، بكت بحرقة، والخوف والرعب باديان على ملامح وجهها، فابتعدت زميلاتها صارخات، وسادت الفوضى في المكان، لم يكن يفصلني عن ذبحها سوى حركة سريعة في ثانية واحدة.

في تلك الثانية، تلاقت عيناى بعينيها المذعورتين، رأيت فيها "سما"... ابنتي، تذكرتها حين حملتها لأول مرة في المستشفى، وضممتها إلى صدري في حنوٍّ بالغ، رأيتها وهي تحبو نحوي بوجهها الضحوك، ورأيتها ذات تسعة الأعوام تدخل غرفتي وأنا مريض، فتربت على صدري بيدها الصغيرة، تذكرتها وهي تمسك بملابسي بقبضتها الرقيقة حين أحملها، رأيتها وهى فتاة فى السابعة عشرة من عمرها، وقد زاد طول شعرها وتمشطه أمامي منتظرة مني أن أبدي لها إعجابي بها كما كنت أفعل دائمًا، "سما" التي تنتظرني الآن مع خلود في عام ٢٠٢٥... ولو قتلت تلك العاهرة، فلن أجدها حين أعود.

صرخت عاليًا لأفرغ غضبي الكامن بداخلي، ثم تركتها ورحلت مُبتعدًا عنها بعد أن بصقت في وجهها، لكن الألم في صدري ازداد فجأة، توقفت لألتقط أنفاسي اللاهثة، نظرت خلفي، فرأيت سيارة شرطة، شعرت بالإعياء، وسقطت مغشيًا عليّ، بينما هاجمني ضوء ساطع كضوء الشمس، وضعت مرفقي على عيني لأحميهما من شدة

الضوء الذي غلفني تمامًا، ثم اهتز جسدي فجأة...

كان ذلك حين مرت حوالي أربعين دقيقة، وقد شعرتْ خلود بالقلق عليّ، فوضعت قطبي جهاز الصدمات الكهربائية على صدري ثم صعقتني... مرة

والثانية

والثالثة

فانتفض جسدي

-١٠-

سعلتُ عدة سعلات متتالية، فهرعت سما لتحضر لي كوب ماء، بينما جلست خلود بجانبي، أسندت رأسي إلى صدرها وضمّتني بحنان، قربت سما كوب الماء من فمي، فشربت حتى ارتويت وارتوى حلقي الفتيبس كصحراءٍ لم تطأها قدم منذ دهور، مددتُ يدي المرتعشة نحو سما، فمدت يدها إليّ، أمسكتُ بها، وجذبتها نحو صدري، وضممتُها هي وخلود أيضًا، وأخذت أقبلهما بحرارةٍ واشتياقٍ شديدين، حامدًا الله على وجودهما معي في تلك اللحظة، شعرت بدفء لم أشعر به من قبل، وبدأت أنفاسي تهدأ قليلًا داخل صدري، كما انتظمت ضربات قلبي. سألتني خلود عما رأيت في تلك الرحلة، وما الذي فعلته، فسكتُّ لبرهة، ثم أجبتها بأسى: - لم أوفّق فيما أردت فعله يا خلود، ولم تسر الأمور كما خططت ورتبت لها.

- لا بأس، فليذهب العالم بأسره للجحيم طالما أنك معنا يا حبيبي.

شردتُ حينها في كل ما حدث لي مؤخرًا، وهي فترة قصيرة مقارنة بما مررتُ به من أهوالٍ وأحوال، رأيتُ في تلك الفترة ما لا يتحمله أحد، لوحتُ سما بيدها أمام وجهي، فالتفتُّ إليها مبتسمًا، وقد قررت في تلك اللحظة أن أكون أكثر إيجابية، طلبتُ من خلود أن تحضر لي ورقة وقلمًا... الآن..

لم أكد أكمل الجملة حتى مدت يدها، والتقطت الورقة والقلم من الكومود بجانبها وأعطتهما لي، بدأتُ أرسم أسهُمًا ودوائر وخطوطًا متداخلة، معتبرًا أن حياتي رواية يجب أن تُحسم أحداثها وتُختتم بنهايةٍ مناسبة، ولو كنتُ بطل هذه الرواية، فلا بد أن أكون فاعلًا

ومؤثرًا، لا مهمّشًا، قررتُ آنذاك ألا أعود إلى الماضي أو أقفز إلى المستقبل، بل الأولى والأهم أن أعيش حاضري، راضيًا بكل ما فيه، متحملًا بشجاعة تبعات كل خطاياي التي ارتكبتها. وفي الوقت نفسه، سأستعيد حقي من كل من ظلمني. سأنتشله... سأنتزعه!

رسمتُ دائرة كبيرة في منتصف الورقة وكتبت داخلها "التطهير".

أعرف جيدًا أن عنصر التطهير هو أهم عناصر أي رواية، يجب أن تتطهر كل شخوص الرواية من دنس ما فعلته في الماضي، وأهم شخصية يجب أن تتطهر هي البطل.

شعرت سما أنني قد اتخذت قرارًا في داخلي، والأمر نفسه أحست به خلود، التي سألتني بنبرةٍ جادة عمّا أفكر فيه، فأجبتها بكلمات مقتضبة:

- حان الوقت لأعيش حاضري، وأعلن للجميع أنني ما زلت حيًا ولم أمت، وليأخذ كل ذي حقٍّ حقه.

***

في صباح اليوم التالي

اعتدتُ من خلال رحلاتي السابقة إلى الماضي والمستقبل ألا أهدر أي وقت، وأدركتُ قيمته جيدًا، وصلتُ في تمام الساعة التاسعة صباحًا إلى منزلي الذي افتقدته كثيرًا، ذلك البيت الذي طالما حلمتُ أن يكون كما تمنيت، ناجحًا، ولكن للأسف أصبح حلمي أطلالًا. قابلتُ سما أسفل العمارة كما طلبتُ منها، ثم ذهبتُ إلى إحدى صديقاتها بعد أن أعطتني مفتاح الشقة، وطمأنتني أن نجلا بالأعلى، بمفردها،

صعدت إليها، ولا أنكر أن قلبي كان يخفق بقوةٍ حينها، لكنني طالما انتظرتُ تلك اللحظة التي سأقف فيها أمامها لتعلم أنني لم أمت.

فتحتُ باب الشقة بهدوء ودخلت غرفة النوم، فوجدتها نائمة، مرت أمام عيني في تلك اللحظة مشاهد كثيرة من حياتنا، نفضت رأسي بقوة لتتبخر تلك المشاهد وتختفي، ثم جلست بجوارها على طرف السرير، أتأملها متذكرًا كم كنت أعاني وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة أمامها، بينما كانت تنظر إليّ بعينين يملأهما الحقد والغل والانتقام، إنها الحقيقة، حقيقتها التي أدركتها وأيقنتها.

لا أنكر أنني أحببتها، وحبي لها هو ما جعلني أراها في الماضي بعينين عاشقتين لكل تفاصيلها المعنوية قبل الجسدية، لكني الآن، بعدما اكتشفت حقيقتها البشعة، أشعر أن حتى شكلها قد تغير في عيني، لم تعد تلك المرأة التي كنت أعشقها في الماضي، ورغم أن الحقيقة غالبًا ما تكون مؤلمة، إلا أنها أفضل كثيرًا من أن تعيش في غفلة، إنه الفرق الشاسع بين الظلام والنور.

لم يمر وقت طويل حتى تقلّبت، فاصطدمت قدمها بي، فتحت عينيها بتكاسل، وما إن رأتني بجوارها حتى انتفضت من مكانها كأنها ضُعقت بكهرباء ١٠٠٠ فولت، واعتدلت جالسة، عيناها جاحظتان، غير مصدقة ما تراه. فركت عينيها علّني أكون كابوسًا ليس إلا، علّني أختفي من أمامها، لكنها سرعان ما أدركت أنني حقيقيٌ، ماثل أمامها، تلفتت يمينًا ويسارًا، وقد شحب وجهها فجأة. شعرتُ بها تحاول جاهدة البحث عن كلماتٍ، لكنها أخفقت، شعرتُ بدقات قلبها التي وصل صوتها إلى مسامعي، وبعروقها التي تيبّست تحت جلدها من

شدة الخوف في تلك اللحظة، كنت مستمتعًا بالنظر إليها وهي في هذه الحالة؛ ظلت تنظر إليّ بعينين ذاهلتين لا يملأهما سوى الخوف والرعب، وبالكاد استطاعت أن تتكلم، متلعثمة:

- هــ هل أنت حقيقـ حقيقيّ؟! هل ما أراه حقيقيّ؟

هززت رأسي قائلًا بعينين متجمدتين ووجهٍ خالٍ من أي تعبير: - نعم، أنا حقيقي، أنا حيّ، لم أمت.

انتفضت من مكانها حين تكلمتُ وسمعتْ صوتي، وتلاشى آخر أمل لديها في أن أكون كابوسًا، وتأكدت تمامًا أنها لا تحلم، نهضت ووقفت بجوار الدولاب، مُلتصقة بالجدار، ترتعش من شدة الخوف، لم أكن أنوي التحدث معها أو إطالة الوقت، لكنني لم أستطع مقاومة فضولي، فسألتها:

- لماذا فعلتِ كل هذا؟ ألهذه الدرجة كنتِ تحملين لي حقدًا وتخفينه وراء قناع الزوجة المثاليّة المُخلصة؟

تلعثمت: - أنـ أنـ أنت الذي ظلمتني، وقهرتني، وخُنتني، وتزوجت عليّ، وجعلتني أضحوكة أمام كل النساء.

قلت لها بنبرةٍ هادئة وصوت خفيض، وما زلت مُعلقًا عيني على ملامح وجهها:

- لقد أخبرتك أنني لم أعد أشعر بالراحة معك، وأنني سأرتبط بأخرى، وإن كنتِ تريدين الانفصال أو الطلاق، فلن أمانع، وسأعطيكِ كل حقوقك بما يرضي الله، لم أظلمك في شيء، وحتى لو كنتُ قد خنتك، فهل هذا يعني أنكِ تقتلينني؟

اقتربت منها، فرفعت يديها نحو وجهها، ظنًّا منها أنني سأصفعها وأنفِّس عن غضبي، لكنني خيّبت ظنها، اقتربت أكثر، فزادت رعشتها وارتجاف جسدها، قلت لها مبتسمًا:

- هل هذا يعني أن تخونيني؟ لقد كنتِ تخونينني حتى قبل أن أتزوج خلود، وأعتقد أنني لست بحاجة لقول مع من كنتِ تخونيني، مع من، ومن، ومن!

لم تجد ما ترد به، فانهارت في البكاء وما زالت ترتجف، ابتعدت عنها وأخرجت مسدسي من جيبي قائلًا:

- من المفترض أنكِ الآن تعيشين آخر دقائق حياتك، كنت قد قررت ذلك منذ أمس، لكنني غيّرتُ حبكتكِ وأجريتُ تعديلًا بسيطًا على نهايتك، قررتُ هذا وأنا في طريقي إلى هنا، لن تكون نهايتكِ برصاصة بائسة خرجت من فوهة مسدس كاتم للصوت يا نجلا.

رفعت نظري إلى السقف وكأنني أفكر، ثم أردفت: - ليست نهاية مشوقة، هذه النهاية تصلح لشخصية ثانوية - برقّت عيناي بلهيب الانتقام مستكملًا - لكنني تعودت أن أمنح الشخصيات الرئيسية في رواياتي نهايات تليق بهم وبأفعالهم.

اقتربتُ منها أكثر حتى صار وجهي أمام وجهها تمامًا: - لذلك يا نجلا، سوف أؤجل نهايتكِ قليلًا.

سقطتْ حينها مغشيًّا عليها

***

في اليوم نفسه... الساعة ٠٥:٤٧ م

داخل مصنع مهجور في طريق السويس ـ الكيلو ٦٩.

جلست نجلا على كرسي خشبي، مقيدة اليدين من الخلف، وما زالت غائبة عن الوعي تحت تأثير المخدر الذي حقنتها به في الطريق، جلست أمامها أتأمل ملامح وجه هذه المرأة التي كنت أعشقها يومًا ما، تلك التي فعلتُ من أجلها الكثير، تخطيتُ كل الصعاب والمستحيلات كي أحظى بها. كنت أبكي في داخلي وأنا أسترجع كل ما مرّ بنا، منذ أول مرة رأيتها في الجامعة، مرورًا بزواجنا وإنجابنا، لحظاتنا الحميمية، ثم بداية انحدار مؤشر سعادتنا حينما بدأت تتغير معي دون سبب واضح. كيف شعرتُ لأول مرة بعدم اهتمامها بي، وكيف أصبحت غريبة الأطوار، لا تكترث بنظافة البيت أو بالنظام الذي يشجعني على الكتابة والإبداع، حتى وجدت نفسي أمام امرأة أخرى، مختلفة تمامًا عن تلك الفتاة التي أحببتها، امرأة خانتني مرة تلو الأخرى، حتى اعتادت الخيانة، وأصبحت تستمتع بها.

سمعتُ حينها صوتًا داخلي يحدثني:

- أنت أيضًا خنتها يا عمر، كيف استطعت أن تكون متبجحًا هكذا وتدينها بخيانتها لك، دون أن تدين نفسك ولو لمرةٍ واحدة! هل فكرت يومًا فيما كانت تشعر به حين كنتَ تتركها لترتمي في أحضان غيرها؟ كم مرة أقمت علاقات مع نساء كثيرات؟ بل حتى صديقاتها لم يفلتن من إغوائك لهن، ثم تواعدهن في ليالٍ حمراء! هل تريد حقًا أن تنكر، حتى مع نفسك، أن حسناء كانت الأولى؟ كم مرة جلست مع أحدهم، وقد كنتَ مع زوجته منذ لحظات؟!

ازدردت ريقي وهززت رأسي بقوة، طاردًا هذا الصوت من مسامعي، ثم اقتربت منها حتى صار وجهي مقابل وجهها مباشرة، صارخًا في وجهها:

- لا يوجد أي مبرر لما فعلتِه، كان بإمكانكِ طلب الطلاق، وحينها كنت سأوافق يا نجلا، لا يوجد أي عذر يجعلكِ تحولينني إلى مسخة وأضحوكة بين الرجال.

في تلك اللحظة، دخل رجلان ومعهما شوقي غربال مُكبلًا، وما إن رآني حتى هرع إليّ وجثا على ركبتيه متوسلًا: - أرجوك يا عمر، سامحني، أقسم لك أنني لم أقصد خيانتك، هي التي أغوتني، وفي النهاية لقد أخذت حقك حين أقمت علاقة مع حسناء زوجتي، اعتبر هذه بتلك.

كنت واقفًا أمامه، منتصب القامة، منتفخ الصدر، مُثبتًا عيني على ملامحه المنكسرة، انحنى بجذعه وقبّل قدمي، وهو يستطرد باكيًا: - اصفح عني يا عمر، أرجوك، لا تقتلني.

أشرتُ للرجلين أن يربطاه في الكرسي المقابل لنجلا، ففعلا، ثم سألاني إن كنت أريد شيئًا آخر، فطلبت منهما أن ينتظرا بالخارج.

كان الضوء خافتًا في ذلك المكان النائي، الذي لو صرخ فيه أحدٌ لشهور، لما جاء أحدٌ لنجدته. اقتربتُ منهما، مُمسكًا بمسدسي، وأخذت أتفحص وجهيهما، ثم أطلقت ضحكة قوية قبل أن أوجه كلامي إلى نجلا:

- هل تعلمين أن ابنكِ في السجن الآن، ومحكوم عليه بالإعدام

بسبب هذا الكلب الذي كنتِ تخونينني معه؟

نظرت نجلا إلى شوقي باستغراب، فأراد أن يبرئ نفسه، لكني أسكته بلكمةٍ في وجهه:

- لا تتحدث إلا عندما أسمح لك أيها العاهر. هل كنت تظن أنك ستنجو بما فعلت دون عقاب؟ من سوء حظك أنني لم أمت بعد، ومن سوء حظك أيضًا أنني قررت الانتقام وأخذ حقي منك، سأعاقبك على كل ما اقترفتَه. اقتربت بوجهي من وجهه، ثم أضفت بصوتٍ خفيض:

- أنا هنا لتنفيذ عدالة الله على الأرض، ومن سوء حظك أنني من سيتولى ذلك... بنفسي.

بصقت في وجهه، ثم ابتعدتُ عنه، موجهًا كلامي لكليهما:

- ما ذنب تلك الفتاة التي قتلتماها؟! ما ذنب خلود أمها أن تُحرَم منها؟ من أي جنس أنتما؟ هل أنتما بشر مثلنا؟! من حسن حظكما أن وقتكما لم يحن بعد، استمتعا بما تبقى لكما من العمر، استمتعا بالأنفاس التي تدخل صدوركما وتخرج بسلاسة؛ لأنه لم يتبق لكما الكثير.

قلتها وانصرفت مبتعدًا عنهما، ثم قابلت الرجلين اللذين استعنت بهما في الأسفل، أعطيتهما باقي مستحقاتهما، وأوصيتهما بأن يراقباهما باستمرار. هذان الرجلان كنتُ قد أسديت لهما خدمة منذ عام ونصف، ومنذ ذلك الحين ينتظران مني أي طلب، وعندما رأيت أن وقتهما قد حان، ما إن طلبت منهما إحضاره، حتى اختفيا من

أمامي، وبعد ساعتين اتصلا بي ليخبراني أن المهمة قد أنجزت، فطلبت منهما أن يأتيا به إلى هنا.

لم يرغبا في قبول المقابل، لكني أصررت على دفعه، أعطيتهما مبلغًا من المال، وأوصيتهما بأن يبقيا عينيهما عليهما باستمرار، وسأعود في أقرب وقت ممكن.

***

بعد ساعتين وثلاث وعشرين دقيقة

كان الظلام قد أتمّ انتشاره حين غادرتُ المصنع مُتوجهًا لتنفيذ المهمة التالية، والتي لم تغب عن ذهني لحظة واحدة. في تمام الساعة التاسعة مساءً، كنت واقفًا أمام مستشفى السلام، مترقبًا وصول الطبيب الذي كان يتابع حالة أمي، علمت من اتصالاتي أن نوبته قد بدأت للتو، بينما الممرضة ستنهي نوبتها بعد ساعتين، انتظرت نصف الساعة، ثم صعدت للطابق الرابع، وقفت شاخصًا أمام الغرفة التي كانت يومًا ما عامرة بأنفاس أمي، والتي صعدت فيها روحها أيضًا، بسبب إهمال ممرضة، وتسثُر طبيب عليها.

وقفت لدقائق هكذا حتى لمحت انعكاس الممرضة في الزجاج، وهي تدخل إلى الغرفة التي كان فيها الطبيب، كان الطابق خاليًا تمامًا إلا مني، ومن رجل هَرِم يمشي في الممر مستعينًا بعكاز ذي أربعة أرجل، ما إن أغلقت الممرضة الباب حتى تبعتها ودخلت وراءها الغرفة، ثم أغلقت الباب من الداخل. كان الطبيب منهمكًا في فحص بعض التقارير الطبية، بينما حاولت الممرضة أن تسألني باندهاش ماذا أريد، لكنني عاجلتها بصفعة أسقطتها على الأرض مغمى عليها،

نهض الطبيب منتفضًا وتراجع خطوة للخلف حين تعرف عليّ، وبدأ يتلعثم:

- ماذا تريد؟ ماذا تريد؟

أجبته مبتسمًا: - أريد روحكما، كما أخذتما روح أمي.

لكمته لكمة ليست قوية فطارت نظارته وأسقطته بجانب الممرضة. لم أضيع الوقت، قيدتهما وأغلقت أفواههما بشريطٍ لاصق، ولم تمر أكثر من خمس دقائق حتى استفاقا فوجدا نفسهما على هذه الوضعية، برقت عينا الطبيب الذي أخذ يزوم، وهو يحرك يديه ويفركهما ليفك قيده المُحكم، بينما كانت الممرضة تبكي بحرقة، أشرت لهما ألا يصدرا صوتًا إذا أرادا الموت في سلام.

- ظننتما أن الأمر سيمر هكذا، وكأنها روح لا قيمة لها، مجرد سيدة عجوز رحلت، ما المشكلة! أليس كذلك؟ حينها بدأ بكاؤهما يزداد، فقلت ببرود:

- فات وقت البكاء، وللأسف لا وقت لديّ للتشفي فيكما.

أخرجت كيسين بلاستيكيين من جيبي، وغطيت رأسيهما بإحكام، وثبت الكيس عند الرقبة بشريطٍ لاصق. ووقفت أمامهما عاقدًا يدي عند صدري، أشاهد لحظاتهما الأخيرة، وهما يحاولان يائسَين التقاط آخر أنفاسهما، حتى انفجرت رئتاهما وماتا مختنقَين.

بعدما تأكدت أنني سلمت روحهما إلى الخالق، وقفت خلف الباب أتحسس الهدوء في الخارج، حتى شعرت أن الجو هادئ، ففتحت الباب ببطء وخرجت بعد أن أتممت مهمتي. رفعت عيني إلى السماء

متأملًا السحب التي تقطع قرص القمر الفضيّ المُضيء، والذي كان آنئذٍ بدرًا بكامل استدارته، وحوله تختال النجوم كأنها تريد أن تخبرني شيئًا ما، حانت مني التفاتة إلى يمامة استقرت على غصن شجرة، ومن غير المنطقيّ، أو حتى مستبعد أن أجد يمامة تقف على شجرةٍ في هذا الوقت من الليل، شعرت أن روح أمي تسكنها، فقلت مبتسمًا وما زلت رافعًا رأسي للسماء:

- ارقدي في سلامٍ يا أمي الحبيبة، فقد أخذتُ حقك.

شعرتُ حينها أنها هبطت من السماء لتطبع قبلةً حانيةً على خدي، قبل أن تصعد إلى عليائها مرة أخرى، وقد ارتاحت روحها.

***

في صباح اليوم التالي، التقيتُ بالمحامي المكلف بالدفاع عن ابني إياد، طلبت منه الاطلاع على ملف القضية، ودرسته بعناية قبل أن أضيف إليه أدلة جديدة تُثبت غياب إياد وقت وقوع الجريمة، قدمت هذه الأدلة إلى هيئة المحكمة يوم الاستئناف؛ حيث توليت المرافعة دفاعًا عنه، كما طلبتُ استدعاء دينا، ابنة خلود، وقد شهدت أنه كان معها في وقت وقوع الجريمة، وقد طلبت فحص الكاميرات التي كانت في تلك المنطقة حين ركب معها السيارة.

خلال المرافعة، التي حضرتها سما، وهي تنظر إليّ بفخرٍ واعتزاز، ذكرت أن القاتل الحقيقيّ هو زوج حسناء، شوقي غربال، والذي صرح في أقواله بأنه غادر المنزل صباح يوم الجريمة وعاد ليجدها مقتولة، لكن كاميرات المراقبة لم تُظهر خروجه أو دخوله إلى العمارة في ذلك اليوم، هذا يعني أنه بقي داخل العمارة مختبئًا في شقة

ما، أو ربما في السطح، وبعد رفع البصمات من "ترابزون" الطابق الأخير والسطح، ومراجعة الكاميرات المثبتة هناك، تبيّن أن شوقي بالفعل اختبأ في السطح لفترةٍ تقارب الساعة والنصف، ثم نزل لينفذ جريمته.

اطلعت هيئة المحكمة على الأدلة الجديدة، واقتنعت بمرافعتي التي ختمتها بطلب الحكم ببراءة إياد عمر عبد الحي مدكور. وبفضل الله، تم تبرئته، وصدر أمر بالقبض على شوقي غربال، والذي لن يجدوه؛ لأنه الآن في المصنع المهجور يعيش آخر ساعات عمره، هو ونجلا.

خرجتُ من المحكمة دون أن ألقي نظرة على إياد في القفص، عازمًا على الإبلاغ عنه لاحقًا وزجّه في السجن بتهمة الابتزاز، بينما كانت الفرحة ترتسم على وجه سما التي قالت لي:

- لا توجد فتاة في هذا العالم تفتخر بوالدها أكثر مني يا أبي، أحبك جدًا.

ضممتها إلى صدري وقبلتها، فاستطردت قائلة: - لماذا لا تكمل في مجال المحاماة يا أبي؟ ودعك من الكتابة. يكفي أنك تعلم جيدًا أن رواياتك ليست مسروقة، وأنا أيضًا أعرف ذلك، إضافة إلى...

لم تُكمل سما جملتها حتى رنّ هاتفي، وكانت خلود المتصلة، لاحظت في صوتها فرحة غير معتادة عندما بدأت كلامها: - هناك مفاجأة غير متوقعة، سئحلّق فرحًا عندما تعرفها!

- ما هي المفاجأة؟ لقد تشوقتُ لمعرفتها.

- ادخل أقرب مكتبة تقابلك، واشترِ رواية "رجل المستقبل" للكاتب فتحي دربالة.

- ماذا؟! سألتها بدهشة، فأجابتني:

- فقط افعل ما قلته، اشترِ الرواية واقرأ الإهداء والفقرة التي في ظهرها.

أغلقت المكالمة ونظرت حولي، فرأيت مكتبة على الجانب الآخر من الشارع، عبرت أنا وسما ودخلنا المكتبة، ما إن دخلنا حتى نهضت الفتاة التي تعمل هناك، وقد ففرت فمها حين رأتني، واقتربت مني مرحبة:

- أستاذ عمر مدكور، هل أنت ما زلت حيًا؟ كيف هذا؟

- لم أمت أساسًا، كان مجرد خبر كاذب، كل ما هنالك أنني مررت بوعكة صحية والحمد لله تجاوزتها.

- الحمد لله، لا تتصور كم أحبك، وكم أحب رواياتك وأعمالك الأدبية.

شكرتها مستغربًا من كلامها، إذ كان من المفترض أن تعرف — كحال ملايين القراء — أنني الكاتب المتهم بالسرقات الأدبية، لم أشغل ذهني كثيرًا بالتفكير في الأمر وسألتها:

- هل لديكِ رواية بعنوان "رجل المستقبل" لكاتب مغمور اسمه فتحي...

قاطعتني: - دربالة؟! تقصد الأديب فتحي دربالة؟ حسنًا، ثوانٍ.

مدت يدها، والتقطت نسخة من الرواية وأعطتني إياها، مؤكدة أنها لن تأخذ مني ثمنها:

- لو علم صاحب المكتبة أن الأديب الكبير عمر مدكور دفع ثمن الرواية، سيفصلني.

شعرت بالامتنان وشكرتها مرة أخرى بابتسامة، رغم أنني لم أفهم شيئًا مما يجري! طلبت مني توقيع بعض النسخ من رواياتي، فلم أمانع بل رحبتُ بذلك. وقعتُ لها عدة نسخ، وكانت سما بجواري تشعر بسعادة غامرة، بعدما خرجتُ من المكتبة، أمسكتُ الرواية وبدأتُ في قراءة الملخص المكتوب على ظهرها.

"كاتبٌ بائس مغمور، لم يكن موهوبًا، بل موهومًا، كان على شفا حفرة من الانتحار بعدما يئس من أن يكون كاتبًا، حتى أتى اليوم الذي جاءه فيه رجلٌ من المستقبل، فأعطاه درسًا أخلاقيًا أيقظ ضميره، لتحدث سلسلة من الأحداث المشوقة بعد ذلك..."

أيها القارئ، أنت على موعد مع القصة التي تحبس الأنفاس، الرواية الوحيدة للأديب فتحي دربالة، والذي تفوق فيها على نفسه وعلى كتاب آخرين، فلمع نجمه في فترة الستينيات وأصبح بروايةٍ واحدة سيد الإثارة والتشويق والغموض، ولم ينطفئ نجمه إلى الآن، ولن ينطفئ.

ابتسمتُ حينها لا إراديًا وفتحت الرواية لأقرأ الإهداء:

إهداء

إلى ذلك الرجل الذي جاء لي من أواخر الربع الأول في القرن

الحادي والعشرين، وأوقظ ضميري، وأحيا الكاتب الميّت بداخلي...

لك فأعلم يا ع. م، أنني مدين لك بالكثير، لن يفهم هذا الإهداء أحدٌ غيرك...

واحدةٌ وحيدة، أفضل من ستة

شكرًا

لم أتمكن من كبح دموعي في تلك اللحظة، أنا عمر مدكور، الكاتب الذي يعرفه الملايين بكونه رائدًا في الوصف، لم أستطع وصف هذا الشعور، لم يذهب جهدي سدى، ولن أُوصَم بعد الآن بالكاتب السارق، فتحت سما هاتفها حينها، وأخذت تبحث عن الأخبار التي كانت تتهمني بالسرقة الأدبية، فلم تجد شيئًا.

انهمرت دموعي، ولم أستطع تمالك نفسي من فرط الفرح، حتى فقدت توازني وجلست على الرصيف. كانت سما تربت على كتفي وثقبّل رأسي، ولم تستطع هي أيضًا منع دموعها من السقوط، اقتربت من أذني لتخفف من وقع الفرح الكبير، وقالت مازحة:

- انهض يا أبي قبل أن يراك أحد قرائك ويصورك، ويقول إن الأديب الكبير عمر مدكور يجلس على الرصيف.

تحول بكائي إلى ضحك، ثم استطردت:

- انهض، لنذهب إلى خلود، فهي بالتأكيد تنتظرنا الآن لتشاركنا هذه الفرحة العارمة.

نهضت معها، وذهبنا إلى خلود التي استقبلتني بعناقٍ جعلني

أنسى كل ما عايشته خلال الفترة الماضية، قضيت تلك الليلة معها، بجوارها، في حضنها كطفل ضائع وجد أمه أخيرًا، كنت أرتشف من معين حنانها حتى ارتويت، واكتفيت.

في صباح اليوم التالي...

استيقظتُ في التاسعة صباحًا، وقد شعرت بوخزة في قلبي، لم تكن مؤلمة بقدر ما كانت مقلقة، أخذتُ حمامًا دافئًا، ثم ارتديت ملابسي ونظرتُ مبتسمًا إلى خلود النائمة كالملاك، مُتأمِّلًا قسمات وجهها الآسرِ البديع، والذي لا يكفيني فيه رواية كاملة أخصصها لوصفه، قبّلتها برفق، ثم دخلت الغرفة الأخرى؛ حيث كانت سما نائمة بجوار دينا، التي استيقظت عندما دخلت عليهما، أشرتُ لها بسبابتي ألا تتكلم كي لا توقظ سما، ثم انحنيت وقبّلتها، وأنا أبكي بصمت.

بعد ذلك، توجهتُ إلى المصنع المهجور، بعدما اطمأننت على سمعتي ككاتب، وبعد الليلة الساحرة التي قضيتها أمس مع خلود، وبعد أن أخذت بثأر أمي، شعرت بسلامٍ داخلي لم أشعر به من قبل، هذا السلام الذي طالما تمنيتُ طوال حياتي أن أعيشه ولو لساعةٍ واحدة، ها أنا الآن أشعر به يغلّفني، لدرجة أنني لا أريد التفوه لأي شخص بأيّ كلمة، أريد فقط الصمت، والاستمتاع بسلامي الداخلي.

حينما وصلت المصنع المهجور ورأيت نجلا، وما زالت مُقيدة، شعرت بالتقزز. حينما رأتني انهارت في البكاء، وأخذت تزوم، فنزعت الشريط اللاصق من فمها، فزام شوقي غربال هو الآخر، لكني أشرت له أن يصمت، بعدما نزعت عنها الشريط اللاصق ظلّت تتوسل إليّ أن أسامحها، وأنها أخطأت في حقي، طلبت مني أن أعطيها فرصة

أخرى، فابتسمتُ بجانب فمي وأطلقتُ ضحكة قصيرة مُتهكمًا دون أن أتفوه بأي كلمة، أعطيتُ لها كل الوقت الذي تريده لكي تقول كل ما تريد قوله، بينما أنا كنت جالسًا أمامها في هدوء، عكس ما كنت أنوي فعله تمامًا، فقد كنت ناويًا أن أنفُث كل غضبي فيها لكني اكتفيت بالجلوس أمامها والنظر إليها، وهي تستجديني وتتوسل إليّ وتستعطفني أن أرحمها وأعطيها فرصة أخرى وأخيرة.

حتى أفرغت كل ما بداخلها من توسلاتٍ واستجداءات، ثم أشرتُ لأحد رجالي، فقام بإحضار المشنقتين وعلّقهما في سقف الغرفة، وضع كرسيًا تحت كل مشنقة، وأوقف كليهما فوق الكراسي، وما زالت أيديهما مقيدة من الخلف، لفّ حبل المشنقة حول رقبتيهما، بينما كنت جالسًا أراقب وجهيهما، لا سيما وجه نجلا، أخذت أتفرس ملامحها حتى انهارت بالبكاء، ظلت تردد كل ما قالته مرارًا حتى تشققت حنجرتها، وأدركت أخيرًا أن لا جدوى من توسلاتها.

نهضتُ ووقفت أمامها، شاخصًا بعيني نحوها، متذكرًا كل ما فعلته بي، ولي، وكأن شريط حياتي يمر أمام عيني، لم أتكلم، ظللت صامتًا، حتى مر أمام عيني المشهد الأخير، الذي كنت فيه أنازع الموت أمامها، وألفظ أنفاسي الأخيرة قبل أن أُدفن حيًا. عندها، ركلتُ الكرسي بقدمي، ليتدلى جسدها من المشنقة، وما زلتُ معلقًا نظري عليها، وهي تعيش آخر خمس ثواني في حياتها، تستجدي شهيقًا لن يدخل صدرها، وتودع زفيرًا كان هو الأخير لها.

وقبل أن أنفذ الحكم في شوقي غربال، تفاجأتُ باقتحام اللواء زياد ضرغام للمكان مع قوته، علمتُ لاحقًا أنه قاد التحقيقات في

مقتل الطبيب والممرضة، وبعد مراجعة الكاميرات، تعرف عليّ، وتتبعني حتى تم القبض عليّ، قبل أن أنفذ حكمي في شوقي غربال.

عندما حقق معي اللواء زياد ضرغام، رويت له كل ما حدث، لمحت في زوايا عينيه دمعة، جاهد كثيرًا ألا تسقط، أدركت حينها أن بداخله شخصًا يعرف أنني لم أفعل شيئًا سوى أخذ حقي ممن سلبوني حياتي، ربما كانت طريقتي خاطئة، لكنني لست نادمًا، بل أشعر بالراحة، وما زال السلام الداخلي يغمرني.

***

بعد ثلاثة أشهر

تم إعدام شوقي غربال بتهمة قتل زوجته حسناء...

***

بعدها بشهرٍ ونصف...

صدر الحكم بتحويل أوراقي إلى فضيلة المفتي، على أن يُنفذ الحكم بعد أسبوعين.

خلال هذين الأسبوعين لم أكن أفعل شيئًا سوى الكتابة، كانت الكتابة ملاذي الوحيد، وحرصت على ألا ألتقي بخلود أو سما إلا في يوم تنفيذ الحكم، أردت أن أسلم لهما روايتي الأخيرة، لتكونا آخر من أنظر إليهما قبل أن يصعد عشماوي إلى المنصة ليلف حبل المشنقة حول عنقي.

حينها نظرت في عينيه، لمحت فيهما حزنًا لم يستطع إخفاءه،

فقلت له حينها مبتسمًا وبنبرةٍ هادئة:

- اعمل شغلك.

نزل من المنصة وعيناه مغرورقتان بالدموع، ثم انزلقت الذراع، وانفتحت طبلية المشنقة ليتدلى جسدي، وخرجت روحي، التي ستسكن جسدًا آخر بعد ثوانٍ، بلا شك.

تمت

عمر مدكور

١٥ فبراير ٢٠٢٥

القسم الثالث

(ما بعد ...)

نزل من المنصة وعيناه مغرورقتان بالدموع، ثم انزلقت الذراع، وانفتحت المشنقة ليتدلى جسدي. وخرجت روحي، التي ستسكن جسدًا آخر بعد ثوانٍ... بلا شك.

تمت

عمر مدكور

١٥ فبراير ٢٠٢٥

***

لم يكن هذان السطران سوى نهاية رواية الكاتب عمر مدكور..

السبت ١٥ فبراير ٢٠٢٥ ـ الساعة ٠٥:١٣ مساءً

شعر بفرحةٍ عارمة حين انتهى منها وكتب كلمة "تمت"، نهض واقفًا في منتصف غرفة مكتبه، مائلًا بجسده يمينًا ويسارًا كأنه يرقص، ثم بدأ يقفز ويقفز، ويلف حول نفسه مبتهجًا، ثم حمل جهاز اللاب توب بين يديه ورفعه عاليًا، كأنه يحمل كأسًا فاز بها للتو، وقد كان هذا شعوره بالفعل، بعد أن دأب على كتابة تلك الرواية التي أجهد نفسه في العمل عليها، حتى أنجزها في غضون خمسة أيام فقط، لم يغادر خلالها غرفته على الإطلاق، خمسة أيام لم ينم خلالها سوى ساعات قليلة، مُستلقيًا على الأريكة الجلدية الموجودة في مكتبه، واضعًا رأسه على الوسادة، وما إن يُغمض عينيه، حتى تبدأ أحلامه في استعادة كل ما كتبه في الرواية، فينتفض مستيقظًا، ويتناول بكأس ويسكي قرصًا أو قرصين من العقاقير التي أدمنها في الفترة الأخيرة، ثم يشعل سيجارة ويجلس على مكتبه مجددًا ليستأنف

عمله على تلك الرواية، على حاسوبه الذي لم يغلقه طيلة خمسة أيام متواصلة، يكتب عليه دون توقف، موصلًا الليل بالنهار، حتى عندما يلاحظ خطأ إملائيًا أو حرفًا ناقصًا، لا يتوقف ليصلحه، بل يستمر في الكتابة دون الالتفات إلى ما كُتِبَ! حالة واحدة يتوقف فيها عن الكتابة، حين تتحدث إليه خلود، التي ظلت بجواره، في غرفة مكتبه، طيلة الأيام الخمسة.

اقتربت منه واضعة يدها على كتفه في حنو: - ارتح قليلًا يا حبيبي، لقد أرهقت نفسك بالكتابة.

ينظر إليها مُبتسِمًا ثم ينهض واضعًا يديه على خصرها ويطبع قبلة على شفتيها، ثم يخبرها أنه لا يشعر بأي تعب على الإطلاق، طالما هي بجواره، فتقبّله ثم تعود لتجلس مرة أخرى على الكرسيّ في زاوية الغرفة. حتى انتهى أخيرًا من كتابة روايته، فأخذ يقفز فرحًا ثم يشرع ذراعيه على امتدادهما ويلف حول نفسه مجددًا، تقترب منه خلود وتبارك له على الانتهاء من روايته على خير، فيحملها ويلف بها، ثم يلثم شفتيها قائلًا:

- أنتِ أكبر وأهم دافع لي في هذه الحياة يا خلود، ودونك لن أعيش فيها ولو لثانية، هذه الرواية أكملتها في هذا الزمن القياسيّ لأنك كنتِ بجواري طوال هذه الفترة، حتى حينما أنام دقائق معدودة، تظلين مُستيقظة بجواري، أحبك أكثر من نفسي يا خلود.

كان ذلك حين وقفت نجلا وراء الباب، مُقرِّبة أذنها لتسمع ماذا يقول، فتطرق الباب بقوة وهي تبكي:

- عمر، رد عليّ أرجوك، دعني أرَك، وأتكلم معك ولو خمس دقائق،

ثم أغلق على نفسك مرة أخرى، أريد الاطمئنان عليك.

في الداخل، أشار عمر إلى خلود واضعًا سبابته على شفتيه، قائلًا لها بصوت خافت:

- لا تتكلمي الآن، الحرباء تقف خلف الباب، فتومئ خلود برأسها وتجلس في مكانها. ليردف عمر:

- سأفتح لها الآن، وأفتعل معها مشكلة صغيرة لتدخل غرفتها، وبعدها ننزل أنا وأنتِ، سأوصلك إلى بيتك، ثم أذهب إلى مشوار بالقرب من وسط البلد.

تومئ خلود برأسها مرة أخرى قبل أن يفتح عمر الباب لنجلا، التي ما زالت واقفة أمام باب مكتبه تبكي بحرقة.

- ما بكِ أيتها العاهرة؟ كيف تجرئين على طرق الباب هكذا، وأنتِ تعلمين جيدًا أنني منهمك في كتابة روايتي الأخيرة، أقصد روايتي الجديدة.

لم تكد نجلا تفتح فمها لتتكلم حتى انهال عليها ضربًا وصفعها عدة مرات، حتى كادت تفقد وعيها، فاندفعت نحو غرفتها، وأغلقت على نفسها من الداخل، ظل يطرق الباب بقوة، حتى قرر دفعه بكتفه وكسره ليدخل وراءها ويكمل ضربه لها، لكن حال دون ذلك ابنه إياد، الذي وقف أمامه قائلًا:

- لا يا أبي، لن أسمح لك بإيذاء أمي أكثر من ذلك، انظر إلى نفسك في المرآة يا أبي، لترى لماذا نحن قلقون عليك، انظر إلى هيئتك الرثة وشعرك الأشعث وإلى السواد الذي تحت عينيك، يجب أن تتوقف يا

أبي عن تعاطي هذه العقاقير والخمور و...

قاطع عمر ابنه بغضب: - لا تتحدث معي بهذه الطريقة يا ابن العاهرة، واطمئن، قريبًا جدًا سأطردك من منزلي، بمجرد أن أتسلم نتيجة تحليل الـDNA وسيتأكد شكي بأنك لست ابني، بل ابن... لا، لن أقول الآن ابن من، أمك العاهرة تعرف جيدًا من هو والدك، وهي الآن تسمعني من داخل الغرفة.

كان ذلك في الوقت نفسه الذي دخلت فيه سما المنزل، عائدة من الجامعة، فأقبلت عليه بشوقٍ ولهفة، فحضنها وظل يقبلها قائلًا لها:

- أنتِ الوحيدة التي بسببها أعيش في هذا البيت يا سما يا حبيبتي، لولاكِ كنت غادرته منذ زمن بسبب العاهرة وابنها.

أطرقت سما رأسها وقد اغرورقت عيناها بالدموع. فقال لها: - ادخلي غرفتك الآن يا حبيبتي.

دخلت سما غرفتها وهي تبكي، في الوقت نفسه الذي دخل فيه إياد إلى أمه ليواسيها، فدخل عمر غرفة مكتبه مرة أخرى وأشار إلى خلود لتغادر معه وهو مرتديًا ملابس البيت، والتي كانت عبارة عن روب مهترئ فوق بيجامة كلاسيكية. ركب سيارته وركبت خلود معه، فقالت له باندهاش:

- كيف ستذهب إلى مشوارك بهذه الملابس يا حبيبي؟

- لا تقلقي، إنه مشوار قريب من هنا، ليس بعيدًا.

أدار محرك السيارة متجهًا نحو منطقة وسط البلد، وهناك توقف ونزل من سيارته بعد أن أخذ محفظته، وأشار لخلود أن تجلس

مكانه وتقود السيارة إلى منزلها. دخل بعدها محلًا واشترى طعامًا للقطط والكلاب. وما إن مرّ بكلبٍ أو قطة في الشارع حتى وضع يده في الكيس وأخذ قبضة من الطعام ورماها لهم. اقتربت منه كلاب وقطط أخرى، فجلس على الرصيف ليطعمهم بنفسه ويسقيهم، وهو يتكلم معهم بعد أن يتلفت يمنة ويسرة مرتابًا كأنه سيخبرهم بسرٍّ دفين:

- أعلم أنكم لستم حيوانات، أعلم كل شيء، لا تخافوا، سركم محفوظ في بئر لا قرار لها.

ثم يستأنف إطعامهم مجددًا حتى حل الليل ونام مكانه بين قطط الشوارع والكلاب الضالة، وما إن أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي، حتى استيقظ وودّعهم قبل أن يتوجه إلى فندق قريب ليستأجر غرفة لليلة واحدة.

أخرج من جيبه العقاقير التي اعتاد على تناولها، وابتلع عدة أقراص ليبدو طبيعيًا ومتماسكًا أمام جمهوره وقرائه، الذين يشتاقون إليه ويسألون عنه يوميًا، يدخلون إلى صفحته على فيسبوك، فلا يجدون منشورًا جديدًا له، كان آخر منشور قد مضى عليه وقت طويل. رأى أن الوقت قد حان للتواصل معهم عبر فيديو بث مباشر، بدأ الفيديو بثلاثة آلاف متابع يشاهدونه:

- قرائي الأعزاء وجمهوري، افتقدتكم كثيرًا، أعلم أنني ابتعدت عنكم لفترة طويلة، ولكن اطمئنوا، لقد انتهيت لتوي من كتابة رواية جديدة وأرسلتها إلى دار النشر.

ارتفع عدد المشاهدين إلى خمسة آلاف وثلاثمائة، بينما تابع عمر

حديثه:

- لا يعلم أحد، إلا الله، كم جاهدتُ لأبدو أمامكم الآن طبيعيًا ومتماسكًا، المهم، أود أن أعرّفكم بنفسي كما لم تعرفوني من قبل؛ أنا عمر مدكور، كاتب روائي أعاني نوبات اكتئاب حادة واضطرابات نفسية مزمنة منذ فترة ليست قصيرة، تمامًا مثل الاكتئاب الذي أصاب ستيفان زفايج، إرنست هيمنجواي، وفرجينيا وولف، هذا هو قدرنا ككُتاب.

زاد عدد المتابعين الذين يشاهدونه إلى أحد عشر ألفًا، فاستطرد مبتسمًا:

- ما أكثر النساء الخائنات في رواياتي، واللاتي كنّ سببًا في شكوكي بزوجتي نجلا، وما أندر النساء المثاليات التي خلقتهن في أعمالي الأدبية وكتبت عنهن، مما جعلني أشك في إمكانية وجود امرأة مثالية بالفعل، بحثت عن هذه المرأة طويلًا، ولم أجد؛ فقررت أن أخلق تلك المرأة المثالية من خيالي، وأسميتها خلود، ستتعرفون إليها عندما تقرؤون روايتي الأخيرة. المهم أنني خلقتها من خيالي وأحببتها، استمتعت بوجودها معي في غرفتي خلال كتابتي لروايتي الأخيرة. ولكن... بعد انتهائي من الرواية أمس، نظرت حولي ولم أجدها، فلماذا أعيش إذن وأكمِل حياتي؟!

أنا الآن متماسك بفضل العقاقير التي تناولتها، متماسك لأن هذه هي الصورة التي أريد أن تبقى في أذهانكم دائمًا، وبعدما أخبركم بكل شيء أرغب في قوله، سأنهي حياتي... سأنتحر! لهذا قلت لكم إنها الرواية الأخيرة. لكن، بالطبع، لن أفعل ذلك على الهواء مباشرة؛

لأنني أريد أن تظل آخر صورة لي في أذهانكم هي تلك الصورة الهادئة التي أظهر بها الآن، وليس صورة رجل يتدلى جسده من حبل مشنقة.

وصل عدد المشاهدين إلى مائتي ألف حين استطرد عمر:

- كثيرون منكم قالوا إنني ملحد؛ لأنني تحدثت مؤخرًا في حفلات توقيعي عن تناسخ الأرواح، الأكوان الموازية، الإسقاط النجمي، عذاب القبر، وماذا سنواجه بعد الموت، فهل أنا ملحد حقًا؟ الله أعلم. لكني أؤمن بتناسخ الأرواح. ومع ذلك، إن سألتموني: هل تناسخ الأرواح حقيقي؟! لن أتمكن من الإجابة، ولكني سأعرف قريبًا، فقط أتمنى، إذا كان تناسخ الأرواح حقيقيًا، ألا تسكن روحي جسد صرصار بائس في بالوعة بحيّ شعبي، أو برص يقف ساعتين على جدار حمام بداخله امرأة تعاني من الصرع، أو خنفساء بائسة تحاول عبور طريق مليء بالمارة، وما إن تجتاز تسعين بالمائة من الطريق حتى يدهسها طفل صغير يلعب ويضحك! أو ذكر سلحفاة يعيش مع أنثاه في صندوق زجاجيّ في منزل دافئ، ويقضي خمسة أيام حتى يتمكن من اعتلائها في النهاية، ثم يأتي طفل سمج ليعيده إلى مكانه الأول بكل بساطة!

أصبح عدد المشاهدين خمسمائة ألف، فانتقل لموضوعٍ آخر:

- توفيت أمي منذ ستة أشهر في المستشفى، اتصلوا بي ليخبروني بوفاتها، كيف لي أن أتأكد أنها لم تُقتل؟ كيف لي أن أعرف أنها لم تفت نتيجة إهمال طبي من أحد الأطباء؟ وكيف أتأكد أن ماجد العقاد، طبيبي النفسي وصديق عمري، لا يتخيل زوجتي عارية حين

يصافحها؟!

لقد ذهبت نجلا إلى أماكن كثيرة مؤخرًا، فما الذي يثبت لي أنها لم تكن تقابل عشيقًا؟ كيف أتأكد أنها لا تخونني؟ أستطيع مواجهتها وأطلب منها أن تقسم، نعم، لكنها حتى لو أقسمت لي مائة مرة على المصحف، هل سيكون ذلك دليلًا على طهارتها؟ سوف تقسم بلا تردد، ولكنني سأظل حبيس جدران سجن الشك الذي أقبع فيه منذ زمن طويل.

أطلق ضحكة قصيرة ممزوجة بالسخرية، ثم قال:

- رواياتي! حتى رواياتي التي كتبتها وطالما حبست أنفاسكم، ما الذي يثبت لكم أنني لم أسرق حبكاتها من كاتبٍ مغمور عاش في الأرجنتين في خمسينيات القرن الماضي؟ أنا، عمر مدكور، لا أستطيع أن أؤكد لكم ذلك؛ فقد تزعزعت ثقتي بنفسي، هذا ما حدث بمنتهى الأمانة، لا أعرف كيف أو متى، لكنني أعلم جيدًا أن لا شيء حقيقي، كل شيء في هذا الوجود قابل للشك.

الشك... الشك... الشك!

الشك أخطر على الإنسان من عشر قنابل بحجم قنبلة هيروشيما، الشك قادر على تمزيق أعماق الإنسان وتدميره، يستطيع الشك أن يهلك ويهتك أية روح، خاصة عندما تكون تلك الروح متذبذبة، متأرجحة داخل الجسد... كروحي.

كنت أرغب في أن أحكي لكم أسطورة إيروس وبسيخي، لكن ليس هذا وقتها!

سأرحل... تاركًا لكم آخر رواية لي، غالبًا ستُنشر بعد موتي، اعلموا أن هذه الرواية ليست سوى أفكار لطالما دارت في خيالي... بداخلي، فنسجتها مع أفكار أخرى أؤمن بها.

أوصيكم بكلاب وقطط الشوارع، خاصة التي ستعيش في عام ٢٠٤١، فربما أكون واحدًا منهم، أو ربما لا أكون. لا أعلم، ولكنني سأعلم قريبًا، بعد دقائق.

أراكم على خير.

القسم الرابع
(ما بعد بعد ...)

-١-

طوال فترة البث المباشر كانت نجلا وإياد وسما يبحثون عنه ويتصلون به في كل مكان لكن بلا جدوى. حتى استطاعوا التواصل مع السلطات، والذين بدورهم توصلوا إلى المكان الذي بث منه الفيديو، ووصلوا إلى الفندق واقتحموا غرفته، لكن بعد فوات الأوان..

فقد وصلوا بعدما انتحر مشنوقًا بخمس دقائق...

-٢-

في نفس الوقت

اقتحم مدير دار النشر مكتب مدير التحرير فجأة دون أن يطرق الباب، ليسأله مُتلهفًا:

- تفقَّد البريد الإلكتروني الآن، وأخبرني هل أرسل عمر مدكور روايته الأخيرة أم لا؟

تفحص مدير التحرير بريده الإلكتروني، فلم يجد شيئًا، فأجابه مدير دار النشر:

- إذن يجب أن نحصل على تلك الرواية بأي ثمن وبأي طريقة، حتى لو اضطررنا لسرقة الحاسوب المحمول أو...

نهض مدير التحرير وقاطعه متهللًا: - انتظر، انتظر، ها هو البريد الإلكتروني، لقد أرسلها عمر، رحمه الله، أمس.

قال ذلك، وهو يفتح الملف المرفق ليتأكد من أنها الرواية، وما إن فتحها حتى قفزا من فرط الفرح.

-٣-

جزء من خبر في جريدة الأهرام بعنوان "انتحار الكاتب عمر مدكور"

...وكان الكاتب عمر عبد الحي مدكور يمر في الفترة الأخيرة بنوبات اكتئاب حادة، كما قال في بثه المباشر لجمهوره، بعد غياب طال عنهم كثيرًا، خرج عليهم بهذا البث، وقد بدا حريصًا على أنه يريد أن يكون معهم حتى آخر لحظة في حياته...

-٤-

في اليوم التالي...

حرصت الإعلامية إسراء شبل على استغلال "التريند" وهو فى قمة اشتعاله، واستضافت طبيبه النفسي وصديق عمره د. ماجد العقاد، ومعه مدير دار النشر التي نشرت له كل أعماله السابقة، إضافة إلى روايته الأخيرة "لم يحن وقتك بعد" والتي لن يوقع صاحبها على أي نسخة منها لقرائه.

ابتدرت الإعلامية كلامها لدكتور ماجد الذي بدا على وجهه الشاحب حزن عميق:

- حدثنا من فضلك يا دكتور عن الكاتب عمر مدكور، كيف كانت حالته مؤخرًا؟

- كانت حالته سيئة، لكني كنت مُسيطرًا عليها، وكنت قد كتبتُ له أدوية تجعله قادرًا على التماسك، وتجاوز تلك المرحلة، لكنه استغل سفري إلى ألمانيا، وبدأ في كتابة تلك الرواية اللعينة التي طالما حذرته من كتابتها، علاوة على أنه أفرط في استخدام عقاقير الاكتئاب والذهان، وكان يتناولها بمشروبات كحولية، ما جعله في حالة يُرثى لها.

- لقد قرأنا جميعنا الرواية، إنها رائعة، مليئة بالرموز والإسقاطات، حتى إنه ذكرك فيها، بل وقتلك أيضًا.

أطرق رأسه لثوانٍ ثم أجابها:

- روعة تلك الرواية تكمُن في أنه استطاع ترجمة كل ما بداخله فيها، حتى ظهوري في صفحاتها كرجلٍ خائن، خانه مع زوجته، هذا ما كان يدور في خاطره، الأستاذة نجلا زوجته، صديقة عزة زوجتي منذ الطفولة، علاوة على أنني أعتبر الأستاذة نجلا كأختي الصغرى، وكان يعلم ذلك جيدًا، لكن قراءاته في الفترة الأخيرة عن الشك والشكوكيين وبعض النظريات الفلسفية، أدخلته في دوامة الشك، وجعلت الشك منهجًا له في كل شيء، وهذه كانت بداية كتابته لتلك الرواية اللعينة التي...

قاطعه مدير دار النشر، مُتحفزًا:

- من فضلك يا أستاذ، من فضلك لا تقل هذا الكلام على رواية الأديب عمر مدكور رحمة الله عليه...

رد عليه دكتور ماجد مُهاجمًا: - أنا لستُ أستاذًا، أنا الدكتور ماجد العقاد، وليس من حقك أن تملي عليّ ما أقول أو ما لا أقول.

أشارت له إسراء شبل بيدها أن يهدأ، ثم وجهت سؤالها لمدير دار النشر:

- كنت سأسألك للتو، كيف استطعت في زمن قياسي أن تُحرر وتنسق وتطبع وتوزع تلك الرواية؟

- إنها فرصة العمر يا أستاذة إسراء، الرواية التي تسببت في انتحار كاتبها، الرواية التي انتحر كاتبها بعد الانتهاء من كتابتها بيوم، الرواية التي تترجم ما كان يدور بخلد كاتب مخضرم قبل انتحاره، وفي الحقيقة نحن لسنا أمام رواية عادية، بل كتاب استثنائي عبارة

عن رحلة في عقل كاتب أخذ قرار الانتحار قبل أن يكتب فيها أول كلمة، بدأ فيها وهو يعلم جيدًا نهايتها، ونهايته.

من غير المنطقي ألا أستغل هذه الفرصة، لقد نشرتها بأخطائها التي سيتقبلها القراء حتمًا لأنهم يحبونه، وفي العموم هي ليست أخطاء جسيمة، بل طفيفة جدًا.

تدخل ماجد منفعلًا موجهًا كلامه لمدير النشر:

- لن يغفر لك الله على نشر هذه الرواية التي شوّهت صورة الرجل بعد وفاته.

لم يكترث له مدير النشر وتظاهر أنه لا يراه، ثم وجه سؤاله للإعلامية:

- أستاذة إسراء، هذه الرواية لو كانت معك، هل كنت ستحرقينها أم ستستغلينها وتنشرينها؟

أومأت له الإعلامية رأسها أنها بالتأكيد ستنشرها.

فرفع مدير النشر يديه قائلًا بنشوة: - هذا ما أريد أن أقوله، يجب على المرء أن ينتهز الفرص، حتى دكتور ماجد هذا، يستغل الفرصة الآن، ووافق على الظهور معك كي يعلن عن نفسه كطبيبٍ نفسي.

انفعل حينها ماجد أكثر وأكثر، ثم التقط كوب الماء الذي أمامه وألقاه عليه بقوة قائلًا: - اخرس يا كلب.

ثم نهض متوجهًا نحوه ليضـ...

لم تكتمل الحلقة وانقطع البث...

-٥-

شاهد عيان لمراسل قناة الثقافة المصرية:

رأيته في الليلة التي سبقت انتحاره، في منطقة وسط البلد، وقف بسيارته أمام جروبي، كان يتكلم وهو ينظر إلى الكرسي الفارغ بجواره، ولم تمر دقيقة حتى ترك السيارة على جانب الطريق، ودخل محلًا خاصًا بكل ما يتعلق بالحيوانات الأليفة، كان يرتدي ملابس رثة، وشعره أشعث، وهيئته لا تسر عدوًا ولا حبيبًا، اشترى كيسين من طعام الحيوانات، وجلس بهما على الرصيف ليطعم الكلاب والقطط وأخذ يتكلم معهم.

موظفة في مكتبة بمنطقة الزمالك:

جاءني الأستاذ عمر رحمه الله منذ ثمانية أيام يسأل عن رواية لكاتبٍ يدعى فتحي دربالة، فاستغربت طلبه، وأخبرته أنه لا يوجد كاتب بهذا الاسم، ظل يتحدث إلى جواره كأن معه شخصًا، أشفقتُ عليه حينها، وطلبت منه توقيع بعض النسخ من رواياته، لم يكترث لكلامي حينها ورحل.

شاب جامعي:

كنت مع زملائي في باب زويلة، ورأيته هناك ومعه إزميل، يحاول نزع حجر من مكانه، هُرع إليه أحد أفراد الأمن وأخبره أن ذلك ممنوع، لكنه صرخ قائلًا إنه يُدعى دمرداش بن غراب، وقد خبأ رسالة خلف هذا الحجر منذ قرون. أشفقت عليه حينها، وكدت أبكي لرؤية كاتبي المفضل في هذه الحالة.

-٦-

بعد أربعة أشهر

في احتفالٍ مهيبٍ بإحدى دول الخليج، وصلت رواية "لم يحن وقتك بعد" إلى القائمة القصيرة، ومنها إلى المركز الأول من بين مائة وسبعٍ وعشرين رواية أخرى، وفازت بإحدى أكبر الجوائز في العالم العربي، كان الناشر قد رشحها بعد أسبوعين من نشرها. بالطبع لم يصعد كاتبها إلى المنصة لاستلام الدرع، بل استلمه نيابةً عنه ابنه "إياد عمر مدكور"، الذي كان يبكي حين تسلم الجائزة بدلًا من والده، ثم أشاروا له بالجلوس على المنصة للتحدث عن والده وظروف كتابة تلك الرواية، التي بيعت منها في أربعة أشهر أكثر من مليوني نسخة، وتُرجمت إلى الآن لأربع لغات.

كان من بين الحضور الطبيب النفسي د. ماجد. ونجلا التي كانت ترتدي فستانًا محتشمًا أسود اللون، وقد بدا وجهها شاحبًا من فرطِ الحزن، وبجوارها سما التي كان حزنها أضعاف حزن أي شخص آخر.

بدأ إياد كلمته وعيناه مغرورقتان بالدموع:

- أولًا، أريد منكم الوقوف دقيقة حداد لقراءة الفاتحة على روح والدي الأديب عمر مدكور.

وقف الجميع في القاعة، التي سادها الصمت لمدة دقيقة قرأوا فيها الفاتحة، ثم تابع إياد قائلًا:

- لا أدري ماذا أقول في الحقيقة، لكني أرجو ألا تأخذوا أحداث هذه الرواية على محمل الجدية، اعتبروها عملًا أدبيًا مميزًا من كاتبٍ

لن يتكرر مثله في هذا العالم مرة أخرى، أبي... عمر مدكور... رحمه الله.

أقول هذا لأنني غالبًا ما أجد قراءً يربطون بين ما كتبه وبين حياته الشخصية، أحب أن أستغل هذه الفرصة لتصحيح تلك المفاهيم، أبي لم يكن في حياته سوى امرأة واحدة فقط، وهي السيدة نجلا... أمي، تلك المرأة التي عانت في الفترة الأخيرة؛ لأنها كانت تحب أبي بصدق، كنا نتألم عندما نسمعه في غرفته يتحدث كما لو كانت هناك امرأة أخرى معه تدعى خلود، وبعد يومين نسمعه يتحدث بصوتٍ عالٍ إلى طومان باي، ودمرداش بن غراب ومحمد علي باشا وأمين بك، وغيرهم. أدركنا بعد ذلك أنه كان يتقمص شخصيات رواياته كعادته، لكن هذه المرة كان الأمر مبالغًا فيه وزائدًا عن الحد، خاصة مع تدهور حالته الصحية والنفسية التي سمعنا عنها جميعًا، علاوة على العقاقير التي كان يتناولها مع الخمور دون علم أحد.

سكت لهنيهة ثم استطرد باكيًا:

- كل ما فعله أبي تجاهي أو تجاه أمي في أثناء كتابته لهذه الرواية لم يزعجنا، بل على العكس، كنا نصبر لأننا أردنا إسعاده ومساندته، وأتمنى لو عاد إلى الحياة، وكرر كل ذلك مضاعفًا، لن نُظهر له أي ضيق، أحيانًا تكون الكتابة مؤذية، مؤلمة، وللأسف قد نالت من أبي رحمه الله.

صفق له الحضور جميعًا، بينما التقت عينا نجلا بعيني دكتور ماجد.

في اليوم التالي...

مطار القاهرة الدولي

وصل إياد برفقة والدته وأخته، حاملين معهم درع الجائزة التي حصلت عليها رواية "لم يحن وقتك بعد"، إضافة إلى المبلغ المالي الذي تسلّموه من القائمين على الجائزة، استقلّوا سيارة "أوبر" متوجهين إلى منزلهم، غير أن نجلا لم تصعد معهم، إذ أخبرتهم بأنها ستذهب لقضاء مشوار قريب، وما إن دخل إياد الشقة حتى اتجه مباشرة إلى غرفة مكتب والده، وقد لمعت عيناه عندما وقعتا على اللاب توب.

بينما دخلت سما غرفتها، وأمسكت صورة والدها، وأخذت تبكي بحرقة حتى رفعت رأسها فجأة، فتجمّد الدم في عروقها، واتسعت حدقتا عينيها حين تراءى لها شيء ما!

***

تمّت بحمد الله تعالى

أمير عاطف

شقة بإحدى حارات حي الجمالية

الاثنين ١٠ أكتوبر ١٩٦٦